رواية

مصطفى عبيد

نيتروجلسرين

أن تعيش لتقتل







نيتروجلسرين

رواية

نيتروجلسرين

رواية

تأليف :

مصطفي عبيد

تصميم الغلاف:

أحمد مراد

مراجعة لغوية:

أحمد سعيد

رقم الإيداع: 2018/10019

الترقيم الدولي: 978-977-820-050-8

إشراف عام:

محمد جميل صبري



نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع

22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة – الهرم

هاتف أرضي: 0235611772 0235688678-

هاتف محمول: 01000405450-01005248794-01001872290

بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com - info@kayanpublishing.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com




«لا أحلم بأن يشرب الذئب مع الخروف من وعاء واحد. هذا حلم كبير. لا أحلم بأن يتوقف الناس عن متعة القتل. إن هذا مستحيل. كُل حلمي أن يظل القاتل قاتلًا والقتيل قتيلًا، دون أن تختلط عليّ اليد التي غرست السكين والقلب الذي تلقى الطعنات.

هابيل حبيبي، أفرح به حين يرفض مد يده ليبادل ابن أمه طعنة بطعنة. قابيل حبيبي. أفرح به وهو يبكي من الألم حين رأى جثة أخيه عارية، محرومة الروح في العراء.

أحلم بالحياة، حلبة مصارعة، بالعدل، بين الخطأ والندم، لا منتصر فيها ولا مهزوم».

الشاعر عماد أبو صالح



خطاب من قارئ

عزيزي الأستاذ......

تحية عطرة وسلامًا ومحبة.

أما بعد.

أتابع باهتمام ما تنشره من حكايات غريبة عن القتلة السريين في تاريخنا الحديث، وأتعجب مثلما تعجبت أنت كيف أخرجت هذه الأرض تلك النماذج، وكيف خطا على ترابها هؤلاء البشر! إنك بما كتبت تضبط جينات التطرف والإرهاب المتوارثة عبر أجيال من المصريين جيلًا بعد آخر. وأتصور أنك مُحق في تصديرك المقالات التي نشرتها بُحكم ثابت يؤكد أننا شعب يُخلّد المُجرمين ويُقدّس القتلة، وربما كان ذلك سببًا في اتساع دوائر العُنف في السنوات الأخيرة.

لن أطيل عليك سيدي، فالحكاية أنني وجدت كنزًا وثائقيًا أعتقد أنه يهمك ويهم الناس عندما اشتريتُ



شقة قديمة في شارع الإسكندر الأكبر بمصر الجديدة لأخصصها عيادة لي. في إحدى الغُرف ترك المالك أجولة مملوءة بالكُتب والمجلات والأوراق القديمة، وبينها هالني أن أجد دفترًا مُجلدًا ومُعنونًا بكلمة «حياتي»، وهو ما جذب انتباهي لكونها مذكرات لشخصية قد تكون مُهمة. قلبت وريقات المُجلد لأجد حكايات عن عمليات اغتيال وقتل ومُتفجرات ومُحاكمات فلسفية لبعض المشاهير وتوصيف لكُل مُستهدف بكلمة «خائن»، وهو ما جعلني على يقين أنّها تخُص قاتلًا سريًا مُحترفًا. ويبدو أنَّ هذا الرجل هو الذي أوحى للكاتب الراحل إحسان عبدالقدوس بكتابة روايته الشهيرة «في بيتنا رجل»، خاصة أنني وجدت طبعات مُتعددة من الرواية وصورًا مقصوصة من مجلات لعُمر الشريف، وهو يؤدي دور بطل الفيلم الذي حمل نفس اسم الرواية.

وبعد... فإنَّ ضيق وقتي وضعف معرفتي بالتاريخ دفعاني أن أبعث لك بحزمة الأوراق كاملة، لعلك



تُحصّل منها معلومة غائبة أو تُحقق حكاية غامضة تُساهم بها في تنوير الناس.

ولك مني خالص الود وعظيم التقدير..

الدكتور حاتم مُصطفى الطوخي

استشاري العظام بمستشفى عين شمس التخصصي



كلمة إلى الكاتب

تموت في هدوء، تُغادر في صمت، تخفُت رويدًا بعد أن فتلوا لك المشانق. تنسحب بعيدًا لترفرف في اتجاه آخر. تكشف حيلهم، وتنجو من فخاخهم وتؤثر لك الحياة بقدر حرصك على الموت. سنوات وراء سنوات، وأنت تطير كفراشة حول نيرانهم، تقفز كأرنب بري فوق حواجزهم، وتفلت كثعبان من ضربات بطشهم. تُقاوم كرصاص وتصبر كصحراء وتُخطط كثعلب مُغامر.

كُنت دائمًا تعلوهم بوطنيتك وتسبقهم بوله الشباب وتتفوق عليهم بإعجاب الرائين والسامعين، لكنك الآن تمضي وحيدًا مُنعزلًا، لا يعرفك الناس، ولا يستوقفك المارة ليسألوك إن كُنت فلانًا. انقلب الزمن وتبدلت الأقنعة وارتدى الخونة أردية البطولة وربح الانتهازيون والجُبناء، فصرت نسيًا منسيًا. لا أهل ولا تلاميذ ولا أنصار ولا حبيبات تنفطر قلوبهن خوفًا عليك.



حلَّ زمن الخيانات. الأبطال صاروا إرهابيين، والمُحرضون على العُنف أصبحوا أنبياء رحمة، وزعيم القتلة سموه رئيسًا مؤمنًا. أما الفدائيون، والمُضحون، والعائشون مع الأخطار فطاردتهم أوصاف دنيئة من عينة «مُتطرف»، «إرهابي»، «مهووس بالدم».

هكذا الموت أولى، وأفضل، وأشرف، فأقفز إلى الضفة الأخرى. يكفيك أنك لن تموت تحت أقدامهم، ولن يفترسوا جُثتك. يُرضيك أنك لن تمنحهم نظرات الشماتة، ولن تهدِهم طمأنينة التشفي وأنت تبدأ رحلتك الأبدية نحو المجهول.

أيها الساكن بلا حراك، مُنتظرًا موعدًا ضربه لك ملاك الهيبة الذي زارك قبل أيام: يمم فؤادك أو تريث، لا يهم، فالموعد لا يقبل التأجيل، وقُل ما تريد واكتب ما تشاء وأوصى بما تتمنى فليس هُناك ماكينة لإعادة الزمن وإيقاف الفعل.

الكلام لا يُغير أمرًا والكتابة لا تُصحح ما كان، والدموع لا تُعيد ما فات، وما جرى جرى وأنت راضٍ وحُر،

فاستسلم للحظتك الأبدية واترك شهادتك لعلَّها تكون أجمل ما فعلت في عُمر تقبحت فيه أفعال وتجملت أفعال واختلط الحق بالباطل، وصرت نفسك لا تدري أأحسنت أم أسأت.

الموتُ نهاية البشر، يولدون صاخبين وبكاؤهم يبعث الفرحة في الآذان، ويعيشون مُذبذبين بين الرضا والسخط، ويرحلون مُتذكرين ما تركوا من خير، نادمين على أفعال شر، ويخلفهم غيرهم ليكرروا ذكرياتهم الحسنة وندمهم المُتأخر، لا شيء تغير مُذ خطا آدم أولى خطواته على الأرض.

تذكر أنَّ بينك وبين الغياب ساعات قد تطول وقد تقصر، وأنّ عليك أن تُصفّي ذهنك وتُنقي بالك لتستنطق لحظاتك لحظة لحظة، تكُر فيها ما كان دون دفاع أو تبرير، وتستعرض خلالها ما فعلت دون حجب أو تورية. لا تنتظر إنصافًا ولا تُقدم ندمًا وإنما تترك ما تعرفه لكاتب الصُدفة ليصيغ ما يراه جديرًا بالحكي لأجيال قادمة تتخبط وتتشابك أمامها الرؤى والدروب. ستترك حكايتك أمانة لكاتب لا يحبك ولا

يكرهك، يدونها كعظات لتائهين يؤمنون أنَّ الخلاص في القتل، أو دروس لشباب عُميت أبصارهم وانخدعوا بأقوال كاذبة وصدقوا شعارات رنانة. رُبما صاغها أديب بشكل قصصي جذّاب ليؤثر في نفوس نقية تُجرجر رويدًا نحو فخاخ إبليس فتكون لهم دليل نجاة.

ستترك أوراقك لمَن؟ لا تعرف. ستتركها نابضة صاحية ناقلة لحيوات تابعتها، ورجال عايشتهم، وكلمات آمنت بها، وأيام عصيبة تغذت على روحك، دمك، وذرات الإنسانية داخلك. هذه الحقيقة التي عشت ساترًا لها، وتلك النهاية التي لم تتوقعها. ما أبشعها من نهاية: أن ترحل في صمت، في وحدة، وبدون مراسم احتفال، كمشردي الشوارع، وسكان الرصيف، والعائشين على الهامش. لولا بطاقتك ما عرفوا مَن أنت وأين تُدفن. لولا مرآة بسيطة مازلت قادرًا على قراءة ملامحك فيها لتصورت أنك لست أنت. غابت عيناك في ظلام الأسى وحفر الزمن أخاديد عجز وفشل في وجهك. زنت كلاب الشوارع وسفلة الناس بصورتك فصرت بقايا مسخ يحتقره البشر. لم يعد أمامك سوى الموت حلا،



القفز إلى هُناك اضطرارا، الدخول إلى كهف النسيان، والتواري عن الجميع، واعتزال الحياة، شطب النفس من الوجود، محوها محوًا، ووأد الأنفاس المتبقية التي لا تمر دون أوجاع في الرئتين والبنكرياس والضلوع، وخلع جلباب الدنيا تماما.

ينتظرك الموت كصديق قديم يتبعك مُنذ مولدك، يُتابعك أينما ذهبت. فيما مضى كان يجري خلفك فتُسرع الخُطى وتبتسم كُلما ابتعدت لكنه لا يكف عن المطاردة. يرد الابتسامة لك في ثقة، وكأنَّه على يقين بأنه سيلحقك يومًا ما. الآن لا سبيل للفرار، ستقف مُستسلمًا وستصافحه كما يليق بمبعوث الرب، ثُم ستسير إلى جواره في طاعة نحو عالم آخر وأناس آخرين.

الدار الآخرة هي الحيوان، موضع الخلود والديمومة، عالم اللانهاية، لا شرور ولا آثام، لا مظالم ولا اعتداءات، لا استغلال ولا توحش ولا جنون، لا حروب ولا غارات ولا اغتيالات، لا زعامة ولا استبداد، لا نفاق ولا مواءمات، لا رؤساء دول ولا جيوش ولا برلمانات،



لا أحزاب ولا ساسة، لا مؤامرات ولا دسائس، لا صحافة ولا إعلام، ولا شيء البتة. هُناك حاكم واحد وحَكم أحد وملك وحيد ومتصرف مُنفرد. الكُل خاضع وصامت لا يمتلك النُطق أمام رب الأكوان.

ما كان رؤى يتحول إلى حقيقة، وما كان ظنًا ينقلب يقينًا. في دار البقاء لا احتمالات ولا خيالات، لا أمور نسبية، ولا افتراضات. النظام صارم، والعدالة سائدة، والكل يمضي نحو عمله دون مُناقشة. لذا

فاصدق بشدة وبحرص كمحتضر باحث عن فعل خير وحيد في عمر من الشك والقسوة والغدر. واكتب كشاهد وبُح كمعترف وقُل ما يجب قوله.

حسين توفيق

نوفمبر 1978

الفصل الأول

القاهرة

لم يشهد ما جرى لكنه وعاه وعاشه تخيلًا كأنَّه يجري أمامه. حكايات والده، ومحاورات الكبار وقصاصات الصُحف تركت في دماغ الطفل البريء ذي العينين الزائغتين والسمت الانطوائي شعورًا عجيبًا اختلط فيه الإعجاب بالغيرة. زعيق يتردد صداه في أذنيه لشخص يصرخ «أمسكوا القاتل» أمسكوا المجرم. بعد دويّ ست رصاصات شقت طريقها نحو لحم مسئول كبير خرج للتو من مبنى نظارة الحقانية. الخائن نال ما يستحق بعد أن ترأس محكمة ظالمة اقتطفت أرواح بني وطنه لإرضاء جيش الاحتلال البريطاني. كان الطفل الصغير يتخيل مشهد ذلك الشاب النحيل إبراهيم الورداني، وهو يقترب من بطرس باشا ليُنفّذ فيه حُكم الشعب بالإعدام نظير سلسلة من الخيانات غير عابئ بضياع مُستقبل أو بطش سُلطة. سقط الرجل وسط حُراسه ومساعديه مُضرجًا في دمائه،



وهو لا يكاد يُصدق أن تثقُب صدره وأمعاءه رصاصات الثأر بتلك الطريقة السهلة. نُقلت الضحية إلى مُستشفى ملتون بباب اللوق وزاره الجناب العالي، وبذل الأطباء الأجانب جهودًا مُضنية لاستخراج الرصاص، لكن قدر الله غلبهم، وانفلتت الروح إلى بارئها لتقف أمام محكمة أبدية مُطلقة العدل. فرح الناس كما لم يفرحوا مُنذ سنوات وهنأوا القاتل على صنيعه، وتبادل كثير من الشباب صورة الصيدلاني المقبوض عليه فيما بينهم حتى أن السُلطات أصدرت قرارًا بالقبض على كُل حائز لصور الجاني. ورغم مُعاقبة الشاب ذي الأربعة وعشرين عامًا بالموت، فإنَّه كتب شهادة خلوده حتى بعد تنفيذ الحُكم الذي تم لأول مرة ضد إرادة مُفتي الديار المصرية الشيخ بكري الصدفي، الذي أبدى تشككه في قوى القاتل العقلية.

فيما بعد عرف الطفل الصغير قبل أن يخطو نحو عامه السابع أنَّ والده توفيق بك أحمد كان من بين أصدقاء الورداني المقربين، وأنَّه شاركه أفكاره وخططه من خلال خلية وطنية باسم «التضامن الأخوي» لكنّه



حصل على البراءة، لتجرفه الحياة بعد ذلك بعيدًا عن السياسة والعمل الفدائي وانخرط في السلك الوظيفي صاعدًا نحو حياة هانئة رغدة لا يُعكرها خطر، ولا يُربكها قلق.

في بيت يليق بأسرة ثرية أبصر «حسين» حوله وجوهًا باردة انفصلت رويدًا عن وجع الناس بتحكُم الأعداء والخونة في مصائر العباد، وتأقلمهم مع الاحتلال البريطاني وتسليمهم للغرباء في قيادتهم واستعبادهم. كان يشعر أن أباه، ذلك الرجل القوى المُهيب ذا الشارب المفتول والنظرات القاسية، صار متورطًا في الطاعة بعد أن نسى صديقه «الورداني» حتى أنَّه كوّن رأيًا رافضًا لعمليات الفداء التي جرت في أعقاب ثورة المصريين سنة 1919، ووصم بعض أبطالها مثل المحامي شفيق منصور بالهوس والتطرف. لم يعُد حسين خائفًا من نظرات والده التي كانت تُخيفه في الماضى، نظرًا لمعاملته الصارمة مع الخدم والمستخدمين، واقتنع أنَّه في الحقيقة شخص مسالم وخاضع يحسب ألف حساب لأي موظف أجنبي يعمل



إلى جواره في وزارة المواصلات. ورويدًا تبدلت صورته في عقله الباطن من فدائي جريء تدفعه الوطنية إلى أن يُخطط ويقتل الخونة في العقد الأول من القرن العشرين إلى موظف مُنتفع يجلس على مقعد وكيل الوزارة في العقد الرابع من نفس القرن.

وحتى أُمه الحنون، صاحبة الوجه الحليبي المُستدير، والشعر المُظلم الساحر صدته عنها بنظراتها المتعالية للخدم والناس من حولها نظرًا لانحدارها من أسرة تُركية كانت مُقربة يومًا من الباب العالي. ورغم إغداقها عليه بالشيكولاته والملبس، ورغم اهتمامها الجمّ بتعليمه الحرص على ارتداء الملابس النظيفة، والظهور بمظهر جميل فإنَّه كان يشعر دائمًا أنها من طين آخر غير ذلك الذي أنبت الوجوه الكالحة الموجوعة بالفقر والاستعباد حوله. لقد تألم كثيرًا عندما عرف أنَّها أسمته «حُسين» تيمُنا بأسماء باشاوات وبكوات من أصول تُركية حملوا الاسم وحازوا مناصب رفيعة ونجاحات عظيمة، وهو ما دفعه بعد ذلك إلى ابتكار قصة مُلفقة مفادها تسميته باسم



الثائر العظيم الحُسين صاحب المقام المشهور بوسط القاهرة، الذي يلتف حوله أصحاب الحاجات كل يوم.

في المعادي، ذلك الحي الجديد المُحتشد بفيلات وقصور الأثرياء والباشاوات كان يوقن أن هناك خارج حدود الرؤية المعتادة عوالم أخرى وأناسًا مُختلفين وأوجاعًا متنوعة، وكانت أذناه تلتقط بين الحين والحين فواصل من أحاديث أُم علي الخادمة مع عم صالح السُفرجي أو عُثمان الجنايني عن أحياء تغوص في الفقر وشوارع تفيض بالحُزن وقُرى يسكنها فلاحون حفاة لا يجدون طعام يوم. وحول بيته كان يسير عساكر إنجليز بسيقان عارية ووجوه حمراء، يضعون مسدساتهم في أحزمة تلتف حول خصورهم، ويمشون في خيلاء كأنَّهم ملكوا الكون وما حوله.

في المدرسة، تضاعف شعوره بالغُربة بدءًا من اسم المدرسة وألسنة مُدرسيه وزملائه، وحتى أفكارهم وتوجهاتهم وأحاديثهم الخاصة. كانت المدرسة تحمل اسم «الفرير» بمعنى الإخوة، وقد أسسها شقيقان فرنسيان قدما إلى مصر منتصف القرن السابق لتعليم

الطبقة المُترفة وأبناء الحاشية. كان مُعظم التلاميذ من أبناء الجاليات اليونانية والإيطالية والفرنسية والأرمينية، فضلا عن أثرياء اليهود من المصريين يبدون مُنفصلين عن قضايا البلد، ولا يهمهم كثيرًا جلاء الإنجليز عن مصر أو بقاؤهم، وتتركز اهتماماتهم في التعرّف على العلوم الحديثة، وتعلم اللغات والموسيقى، بينما يتفقون جميعًا حول حلم واحد هو العيش في أوروبا، حيث المدنية والرُقي والتقدم.

في كل صباح، كان عم عُثمان الجنايني يصطحب الطفل الصغير حتى محطة القطار ليركب من المعادي حتى الظاهر حيث تقع مدرسته العتيقة، وكان الولد ضعيف الجسم يشعر أنَّ عالمًا غريبًا مفروضًا عليه، وهو ما دفعه للانطواء وتجنب مُصادقة أولاد الأجانب، وكان يستمع في القطار لذلك الصخب الدائر بين الأفندية والموظفين حول توقيع اتفاق الصداقة المصرية البريطانية الذي كان يراه البعض بداية طريق الاستقلال، بينما اعتبره آخرون تمييعًا للقضية الوطنية.

في تلك السنوات كان كثير من المصريين الثائرين قد خفتت عزائمهم ووهنت قواهم، وأيقنوا أنَّه لا بديل عن الحوار والتفاوض مع المُحتل مُقدمين مبدأ الاستقلال المُتدرج بديلًا للكفاح المُسلح، خاصة بعد أن أدان حزب الأغلبية فكرة الاغتيالات عقب مقتل السردار البريطاني السير لي ستاك واعتبرها أعمالًا صبيانية، بل إنَّه قبل المشاركة في حكومات ائتلافية تحكم فيها القصر وانتهت إلى لا شيء.

لم يكُن «حسين» مُختلطًا بأحد سوى الطفل نجيب، ابن خالته ذي العينين الزرقاوين والشعر الأشقر الذي كان يبدو حزينًا أغلب الوقت نتيجة انفصال والديه. وكانا يُمثلان معًا مشهدًا خياليًا لصراع الثري التركي المُتجبر والفلاح المصري ابن البلد، وكان «حسين» يُصر كل مرة على القيام بدور الفلاح، وكانت شرايين ذراعيه تتصلب وعضلاته تتمدد وهو يضغط على رقبة خصمه وابن خالته الذي يلعب دور التُركي المُتجبر. في تلك الأثناء أحس حُسين ببوادر شعبيته عندما كان سعيد شقيقه الذي يصغره بخمس سنوات يُشجعه



بحرارة، في الوقت الذي كان فيه «مدحت» شقيق «نجيب» يشجعه أيضا. وقتها انتابه الشعور بأنَّه المُقاتل المحبوب الذي يُمكن أن يُعبّر عن مصر وقضايا المُضطهدين فيها.

***

في النادي مثل المدرسة لا أصدقاء أو أحباء. عبر الصبي «حسين» عامه الثاني عشر لينمو جسده فجأة وينقلب انطواؤه إلى شعور بالتفرُد والقدرة. انتفخت عضلات ساعديه واشتدت صلابته بفضل الركض كُل يوم دون توقف مُراقبًا وقت الغروب. في نادي المعادي الذي فاجأهم رب الأسرة بالاشتراك فيه كان يجري دون هدف رافعًا شعار «لا ألم. لا كلل» مُطلقًا طاقات كُبتت سنوات عدة مُذ عرف حكاية إبراهيم الورداني وبطرس باشا. كان «حسين» كلما دخل النادي مع والديه وشقيقه الأصغر رأى أناسًا مُختلفين عن سواهم من البشر. ناس غير السائرين في الشوارع المؤدية إلى مدرسة الفرير بالظاهر، أو الجالسين في القطار الذي يستقله كل يوم إليها. ناس بوجوه باردة، هادئة، ترنو



عيونهم دائمًا لأعلى ويتحدثون بصلف وغرور أحاديث سطحية غالبًا ما تكون باللغة الفرنسية أو الإنجليزية. سترات فاخرة، وفساتين ضيّقة وفاتنة، وعالم مُبهر يموج بالضجيج وحكايات المُترفين. الكلام عن مولانا الشاب المتدين وانتظاره وليًا للعهد يدور بين المُجتمعين كمسألة مصيرية للبلاد. والكلام عن التوتر المُخيم على أوروبا بسبب الخطر المُتزايد من توحش الألمان وخرقهم لمُعاهدة فرساي وتوسيع الجيش قبل التحالف مع بينيتو موسوليني للتوحد تحت اسم دول المحور يدور دون فهم لطبيعة الأمور وخصائص الأمم. والكلام عن القُطن المصري وهبوط أسعاره يتكرر، وكأنَّ جميع سكان مصر يُتاجرون فيه. وبعض الأحاديث تعرُج على الوضع السياسي المُتيبس بعد إقالة الملك للنحاس باشا، تلك الإقالة التي بدا فيها الملك الشاب فاروق مُتعجرفًا، وهو يثأر من محاولات الباشا السيطرة عليه بعد تتويجه ملكًا على مصر والسودان.



سار «حسين» وحيدًا بين أشجار السرو المغروسة على الجانبين غير مُلتفتٍ لضحكات فتيات هُنا وهُناك حول أمور ظنَّ دائمًا أنَّها لا تعنيه. كان يُفكر صامتًا كيف فرَّ والده من مُجتمعه المصري وأصوله المتوسطة لينخرط وسط هؤلاء الكُبراء المُتحذلقين، الذين يعيشون كسادة وكل مَن سواهم عبيدا! كيف طاوعه قلبه أن يهجُر العمل السياسي ويخلد للدِعة ويُسلِم تسليمًا؟

لاحظ «حسين» أنَّ «سعيد» شقيقه الأصغر يسير خلفه ببطء، فالتفت إليه ليجده مادًا يمناه الرقيقة ليمسك يده. سأله في جفاء عما يُريد، فأخبره أنَّه لا يجد أحدًا يلعب معه. ابتسم الصبي الأكبر وقال له:

لا تغضب. لا تلعب مع هؤلاء. ليسوا منا.

هزَّ شقيقه رأسه مُجيبًا، ومُسلمًا كفه لتحتضن الكف الكبرى في محبة، وقال كمن يشكو:

لا أجد مَن يلعب معي، حتى في البيت.



انزلقت فتاة عابرة كانت تركض وراء أختها فندت من «حسين» التفاتة سريعة نحو وركيها العاريتين اللتين أطلتا من جونلة قصيرة، لكنَّه واصل السير مُطمئنًا شقيقه بأنَّه سيلعب معه. شعر بنشوة الرضا، وهو ينظر إلى شقيقه كتلميذ صغير يخضع لما تنبس به شفتاه بيسر. عبرا إلى جوار حمام السباحة المُكتظ بفتيات وشباب صاخبين يلهون في مرح، ورماهم «حسين» بنظرات سخط قبل أن يقول لشقيقه:

هؤلاء ليسوا مصريين. ليسوا منا ولسنا منهم. نصفهم خواجات ويهود وخونة، والنصف الآخر أبناء كُبراء ينتفعون بالاحتلال. هؤلاء يأكلون من خير مصر دون حق وينهبونها كُل يوم. أما أولاد البلد فمطحونون وراء ما يُلقيه إليهم هؤلاء.

مصمص الصغير شفتيه مُبديًا عدم الفهم، لكن «حسين» واصل تمثيل دور الأستاذ قائلًا:

هُم أشرار يا «سعيد».



ثُم أضاف:

وخونة.

بدا الخوف على وجه الصغير كلافتات المظاهرات، فاستطرد «حسين» قائلًا:

لا تخف يا «سعيد». أنا معك.

رمت عينا الصغير نظرات حُب وافتتان نحو شقيقه الكبير، ثُم همس:

أخاف عليك يا «حسين». هُم كبار.

جاءه الرد ممتزجًا بنبرة ثقة:

قُلت لك. لا تخف. سنكون أقوى وأكبر. أهم شيء هو الإخلاص، وألا تُخبر أحدًا.

هزَّ الصغير رأسه، وسار مسرورًا راضيًا إلى جوار شقيقه، كان يشعر أن شقيقه الأكبر هو راعيه الأول، وقائده نحو ما لا يعلم. كان يظُنّ أنَّه ليس مُجرد أخ،



وإنما هو والد جديد، وقدوة ومُعلم، وفوق كُل ذلك صاحب وأنيس. صار مُغتبطًا أن وجد أخيرًا صديقًا بعد أن يئس من دفع «مدحت» ابن خالته للعب معه. كانت عيناه تبثان طاعة وخضوعًا، وكان وجهه ينضح بالرغبة في التعلم والاستعداد التام لتلقي أي شيء من «حسين»، لذا فقد تلقى «سعيد» الدرس الأول فور عودتهما إلى البيت. وكان ذلك الدرس هو: كيف تقتل الخوف داخلك؟

كان لدى «سعيد» قطة صغيرة ثلجية اللون، كثيفة الفرو، زرقاء العينين، أحضرتها والدته له في عيد ميلاده السابع. جثا «حسين» على ركبتيه وأخرجها من عُلبة خشبية كانت تنام فيها، ومسح بأنامله الرقيقة على رأسها مانحًا إياها طمأنينة السلام، ثُم قام وهو يحتضنها بيسراه، وفتح باب الشُرفة في هدوء قارئًا في وجه شقيقه نظرة اندهاش وخوف. ابتسم في برود وصاح في «سعيد»: ألقها من هُنا. ألقها يا «سعيد». هيا لا تخف.

تجمَّد «سعيد «مصدومًا ليُكرر شقيقه:

هيا يا «سعيد». اقذف بها إلى هذا السور.

هزَّ «سعيد» رأسه رافضًا، وقال مُستجديًا:

حرام.

برقت عينا «حسين»، وانتفخ وجهه بُحمرة الغضب وهو يُكرر:

ليس حرامًا. اقتل خوفك.

ستموت.

لا يهم. ليس لها فائدة. لو قتلتها سيكون لها فائدة لأنها ستُعلمك ألا تخاف.

لكن أنا خائف.

أول مرة ستكون خائفًا، في الثانية ستخاف أقل، وبعد ذلك لن تخاف أبدا، صدقنى ستُصبح الأمور عادية.



فهم الطفل الصغير أنَّ شقيقه هو مَن قتل عصفور أمه الملون الذي وجدته قبل أيام مكومًا داخل القفص الكبير. لقد استغربت أُمه أن وجدت رأس العصفور يميل إلى الزرقة، لكنَّ أحدًا لم يلتفت لاحتمال أن تكون هُناك يدٌ امتدت إلى عُنق العصفور لتعتصره في هدوء وجرأة، جرأة تليق بقاتلٍ عظيمٍ ينتظره مُستقبل دموي.

تدحرجت دمعة ساخنة من عيني الصغير، وقال لشقيقه إنَّه لا يستطيع. القطة بريئة، طيبة، رقيقة، توقظه كل يوم، وتلعب معه، ويُطعمها بيديه. قطب «حسين» حاجبيه، وأطلق تنهيدة ملل، ثُم عاد إلى داخل الغرفة ووضع القطة مرة أخرى في صندوقها، وأخبر شقيقه ألا يطلب منه أن يلعب معه بعد ذلك لأنَّه لا يلعب مع الجبناء، ولم تكد قدمه اليمنى تخطو خارج الغرفة حتى ناداه «سعيد» باكيًا وقال له:

حسين. حسين. تعال. ارمها أنت.



ابتسم «حسين» ابتسامة المنتصر، وعاد سريعًا ليُخرج القطة من صندوقها ثُم رجع إلى الخلف، وبكل ما أوتى من قوة قذف بها لتسقط فوق سور الحديقة مُصدرة صوت مواء مكتوم، قبل أن يتمدد جسمها فوق السور مُتلويًا يمينًا ويسارًا، وبدا واضحًا أنَّها تتألم بشدة جعلت «سعيد» يُغمض عينيه، لكن «حسين» نظر إليها مُستمتعًا وهو يقول:

هكذا تخرُج الروح.

وشعر بنشوةٍ غريبةٍ وفخرٍ شديدٍ لأنَّه نجح في قتل الخوف والرحمة في فؤاد أخيه مثلما قتلهما في فؤاده من قبل. وقال في حنو مُصطنع:

لا تُخبر أحدًا يا سعيد.

وأخرج من جيبه شيكولاتة كادبوري من تلك التي يعشقها «سعيد»، وقال فرحًا:

ستكون معي دائمًا.

***

برقت العيون، وساد الصمت، وخربشت فئران الإثارة بأدمغة الصبية عندما قال لهم «نجيب»:

«لاشين» أسطورة. مُتعة جميلة. حدوتة البطولة. قصة الموسم.

كان «نجيب» مُنتفخًا وهو يحكي عن ذلك الفيلم الذي شاهده للتو بالسينما. سرد «نجيب» أمام «حسين» و«سعيد» و«مدحت» وهُم سائرون أمام نادي المعادي أحداث الفيلم الذي سمحت له أمه بدخوله مع زملاء مدرسته. واستطرد وقد لاحظ اهتمام المُستمعين:

لاشين قائد شُجاع، طويل، وممشوق القوام، عيناه تشعَّان ذكاءً ودهاءً، ويتمتع بُحب الناس لشهامته ونُبله، يكتشف أنَّ الوزير فاسد ويُتاجر بأقوات الناس وينهب خيرات البلاد، ويحاول أن يشكي للسلطان لكنَّه يجده واثقًا في وزيره، وغير مُهتم بالشعب، بل إنَّ النساء هُنَّ شُغله الشاغل. يمل من واحدة فيهجرها إلى أخرى. ويحارب «لاشين» الأعداء وينتصر عليهم



ويحضر للسلطان جارية اسمها كليمة لتدخل ضمن حريمه، لكنها تنفر منه فيقوم بسجنها، ويطلب البعض من السلطان معاقبتها بإهدائها إلى «لاشين» ولا تلبث أن تحبه بشدة، ويحبها هو الآخر، وتشتعل ثورة الجوعى في البلاد، ويأمر السلطان بتوزيع الطعام على الناس لكنَّ الوزير الفاسد يسرق الطعام هو ورجاله.

وتوقف «نجيب» هُنيهة مُستطلعًا قدرته على التشويق، فلكزه «حسين» طالبًا منه أن يُكمل، فواصل قائلًا:

يُلاحظ الوزير ورجاله مقاومة «لاشين» لأفعالهم فيقررون التخلص منه، ويخبرون السلطان بحب كليمة له، ويسعى السلطان إلى اختباره فيلعب معه الشطرنج على أن يحصل الفائز على كليمة، ويفوز «لاشين»، فيغضب السلطان ويعتبر قائده خائنًا لأنَّه فاز لحبه للجارية ويأمر بحبسه، ثُم يأمر بإعدامه إلا أن الناس تضج بالفساد والفقر، وتقرر الثورة وتقتحم السجن وتنقذ «لاشين». ثُم يقوم الثوار بعد ذلك بقتل الوزير



الفاسد وسجن رجاله، وتعيين «لاشين» مكانه ليحقق العدل بين الناس.

والسُلطان؟

سأل «حسين» في حدة ظاهرة، فأجابه نجيب:

ينصلح حاله ويحكم بعد ذلك بالعدل.

ضحك «حسين» قبل أن يقول ساخرًا:

عدل؟ كيف يكون ذلك؟ هل ينقلب فرعون إلى موسى؟ هذا ضحك على الذقون.

ثُم سأل مُجددًا:

مَن هو مُخرج هذا الفيلم الأسطورة؟

توجو مزراحي.

هز «حسين» رأسه باسمًا بطريقة لا تُناسب صبيًا في الرابعة عشرة من عُمره وقال بحكمة شيخ:



أكيد. توقعت ذلك. توجو مزراحي. المُخرج اليهودي. لابد أنَّه يقصد ذلك ليقول لنا إنَّ المشكلة ليست في الملك وإنما في رئيس الوزراء، وإننا لو اكتفينا بتغييره ستنصلح الأحوال.

بدا «سعيد» و«مدحت» لا يعيان كثيرا مما يقال، لكنهما كان يشعران أنَّ «حسين» يفهم أكثر رغم أنَّه لا يقرأ الصحف ولا يشاهد الأفلام مثل «نجيب».

رد «نجيب» قائلًا:

انتظر. نسيت أن أخبرك أنني قرأت في الجورنال أنَّ نهاية الفيلم كانت مُختلفة وأنَّ الرقابة اعترضت عليها فتم تغييرها. ذكر البعض أنَّ النهاية في القصة الأولى تضمنت قتل الملك وتولي «لاشين» الحكم.

لا تنبهر بقصة خيالية صنعها يهودي.

وضع «نجيب» كفيه بجيبي بنطاله وهُم سائرون، وبدا غير مقتنع بكلام «حسين»، وقال بعد فترة صمت طويلة:



اسمع يا حسين. أنت مُتعصب ضد الفيلم لأنَّ مخرجه مزراحي اليهودي، بينما نسيت أنَّ كاتبه هو أحمد رامي وبطله حسن عزت، وبطلته نادية ناجي، ومنتجه هو أحمد سالم.

لم يُجبه حسين وإنما أخذ يُصفر هازًا رأسه يمينًا ويسارًا كأنَّه عازف كمان، مبُديًا عدم إعجابه برأي ابن خالته، وفي المقابل رأوا جمعًا من الفتيات يسير نحو بوابة النادي، كانت تتوسطهم فتاة طويلة ترتدي تنورة زرقاء فوق قميص فاتح، وتحمل فوق شفتيها ضحكة مُثيرة وحولها صديقاتها يتحدثن ويضحكن ضحكات مكتومة. رمقهن «نجيب» مُبتسمًا، وقال لابن خالته:

إحسان هلّت.

ثُم نظر إلى شقيقه مدحت وقال له:

تعال معي.

لكن «مدحت» أبى وقال بعصبية:



لا. سأبقى مع حسين وسعيد.

فأشاح برأسه، وتركهم واقترب من الفتاة ذات الضفيرتين وقال بفرنسية:

«بون سوار».

ابتسمت ومدَّت يدها الرقيقة البيضاء مُصافحة وقالت له:

«بون سوار».. أهلًا يا نجيب.

اهتزت أرنبة أنفها ليرقص قلب «نجيب» فخرًا أنها اشتمت رائحة كولونيا «اتكنسن»، التي يحرص على رشها كل صباح. عرفته بصديقاتها الثلاث سريعًا قبل أن تسأله عن أخبار المدرسة والنادي والقراءة والسينما ودروس الموسيقى، ورنت بعينين ماكرتين إلى صحبته، ثُم سألت بصوت أقرب للهمس:

أما زال ابن خالتك لا يكلم البنات.



هز نجيب رأسه آسفًا وقال:

لا عليكِ. دعكِ منه.

يُعجبها طوله، ونظرات عينيه المُقتحمتين، ويثيرها تعاليه. قربت وجهها من أذن نجيب، وهمست:

قُل له إنَّ صديقتي ميمي مُعجبة به. ستحضر معي حفل النادي يوم الخميس. أحضره لأعرفه عليها.

مصمص شفتيه في تعجب وقال:

سأفعل.

ثُم اقترب منها أكثر، وهمس في أذنها كلامًا، توردت له وجنتاها، واتسعت ابتسامتها، وردت:

بعد الحفل. يوم الخميس.

راقب «حسين» المشهد بعينين نهمتين، ورأى نفسه واقفًا فوق خشبة مسرح كبير وأمامه هؤلاء الفتيات وغيرهُن كثيرات يُصفقن له في إعجاب شديد ويهتفن



باسمه. كانت هامته مرفوعة نحو السماء رانيًا إلى النجوم كبطل من أبطال الرومان.

لحظات لم تطل كثيرًا، واستأذن نجيب عائدًا لرفقته. كان الصبية الثلاثة يمشون في سكون مُتأملين الأشجار الباسقة، مُستنشقين الهواء النقي قبل أن يعود إليهم سائرًا وعلى شفتيه الصغيرتين ابتسامة ماكرة. في طريقهم، دنا «نجيب» من «حسين» مُقاربًا له طولا، ومتفوقًا عليه عرضًا، وهمس في أُذنه بكلام لم يسمعه «سعيد» و«مدحت»، اللذان كانا دائمًا يشعران بقربهما أكثر من «حسين». كرر «نجيب» صب كلامه في أُذن «حسين»، الذي لمعت عيناه اهتمامًا، لكنهما لم تلبثا أن انطفأتا بعد قليل. كان همس «نجيب» يقول:

واضح أنَّ خالتي كثيرة الدعاء لك. أنت محظوظ جدًا. «ميمي» اختارتك. أجمل شفتين في النادي. حديث الشباب كُله. تُريد التعرف بك يوم الخميس. سأقول لك شيئا جرَّبته وعرفته. قُبلة الشفتين لهيب مُمتع. سحر لذيذ يا حسين، تطير فيه روحك، وتُحلِّق في



سماء لا حدود لها، تمتص عسلًا جميلًا وتغيب عن الكون رغم يقظتك، و...

ولم يُكمل «نجيب» حديثه حيث استوقفته كف حسين المُمتدة أمام وجهه، ورماه بكلمتين فقط. علا بهما صوته ليسمعه «سعيد» و«مدحت»:

أنتم تافهون.

***

بدا القلق على وجه «توفيق بك» عندما أخبره الطبيب أن ابنه الأكبر يُعاني من انفصال في الشبكية. كان المُهندس الكُفء ذو الوجه الصارم يُلاحظ كثيرًا شرود ابنه وانطواءه وتعامله مع مَن حوله بمزيج من العصبية والبرود، وكان يشعر باختلاف الولد عن أبناء أصدقائه المقاربين لسنه في تجاهله الاهتمام بالفتيات، وعدم التشبث بارتداء الملابس الفاخرة، وقلة الاختلاط بالناس، وآلمه كثيرًا أنَّ الولد يمنحه نظرات اتهام دائمة لا يعرف مكنونها. ظنَّ الموظف الكبير بوزارة المواصلات أنَّ فترة المُراهقة تفرض على ابنه



بعض خصائصها، لكنه لاحظ عليه بعض التصرفات الغريبة كان من بينها نزوله إلى حديقة المنزل في بعض الليالي للنوم تحت أشجارها، وضبطه أكثر من مرة يتنصت على جلساته مع أمه بغرفة نومهما، وإمساكه صواني الطعام الخارجة من الفرن ساخنة دون منشفة. فضلًا عن ذلك، فقد لاحظ الرجل أنَّ ابنه لا يخاف مُطلقًا، ولا يبكي أبدًا، حتى عندما رسب في مادة الرياضيات بالمدرسة وتم حرمانه من المصروف لأسبوع كامل فإنَّه لم يبك أو يتأثر.

ويومًا سأل الأب زوجته إن كانت تُلاحظ على ابنها سمات الحدة أو العنف، فقالت إنَّ ابنها أكثر وداعة من ابنيْ شقيقتها لكنها رأت أنَّ مشكلته الوحيدة هي كونه خجولًا جدا. وحكت الأم لزوجها أنَّ إحدى صديقاتها كانت تزورها قبل أيام، ورأت «حسين» فاحتضنته وقبّلته، لكنه غضب بشدة وجرى مُسرعًا وهو يمسح خديه أمام السيدة وكأنَّها تحرّشت به.

بعد احمرار دائم لاحظته الأسرة في عينى «حسين» كان لابد من عرضه على طبيب مُتخصص، لذا فقد



رافقه أبوه إلى مُستشفى العيون، حيث تم فحص عينيه فحصًا دقيقًا انتهى إلى ضرورة إجراء عملية جراحية له مع توقعات بتأثيرها على نظره فيما بعد، وهو ما ساهم في اتساع انطوائه، وسأل الوالد إن كان يُمكن تأجيل العملية إلى فصل الشتاء فوافق الطبيب مُقدرًا أنَّ ذلك أفضل.

كان شعور طاغٍ بالتقصير ينتاب الأب تجاه ابنه وهو ما دفعه يومًا لدعوته والحديث معه بصراحة، طالبًا منه أن يفتح له قلبه ويُخبره بأى شيء يُضايقه، لكنّه كالعادة لم يتلق سوى نفس النظرات المُريبة الحادة، وعاد إلى أمه مُبديًا قلقه وطلب منها ضرورة توسيع مُحيط الولد الاجتماعى خاصة ممن هُم في سنه، وهو ما جعلها تستضيف مع بدء الإجازة الصيفية بعض الأولاد من العائلة ليلعبوا مع «حسين» و«سعيد»، فضلًا عن ابنيْ شقيقتها نجيب ومدحت.

في ذلك الوقت وجد «حسين» في ابن خالته الآخر «محمد إبراهيم» ولدًا ذكيًا طموحًا، يحمل ذات الكراهية والنفور من لهو الصبية وسطحيتهم، ورغم أنَّ

والده «أحمد بك كامل» كان قاضيًا بمحكمة الاستئناف، فإنَّه كان يرى أنَّ العدل لا يُمكن أن يتحقق بدون دماء، وأنَّ الحق لا يسود إلا بقوة دافعة. انبهر «حسين» بابن خالته وهو يسخر من «نجيب» الذي يقرأ القصص وُيشاهد الأفلام ويشغل وقت فراغه بمُصاحبة الفتيات والعبث بأجسادهن مُعتبرًا ذلك من دلائل الرجولة. حدثه «محمد» كيف دفع حماس الشباب ألمانيا إلى أن تُعيد إنشاء جيشها بعد أن كانت ممنوعة من ذلك عقب الحرب العالمية الأولى، ووصلت الإرادة بالألمان أنهم اجتاحوا بجيوشهم أراضي النمسا ثُم التشيك ليعلنوا التحدي المباشر مع الدولة التي تتجبر على المصريين وتستغلهم وتستنزف خيراتهم. وقال له «محمد» يومًا إنَّه قرأ كتابًا عن الزعيم أدولف هتلر الذي أعاد مجد الألمان وأثار حماسهم لتكوين امبراطورية عُظمى.

شعر الفتى الحزين بوجود غايات لحياته، وآمن أنَّه يُمكنه أن يلعب دورًا حيويًا في طرد الاحتلال من مصر. تذكر الولد مُظاهرات رآها وتابعها هُنا وهُناك



تؤيد هتلر والمحور وتتمنى الموت للإنجليز بعد أن أصبح الصراع بين القوتين مُعلنًا، ودار في رأسه هُتاف أطفال المدرسة وبعض المدارس المجاورة «يا عزيز يا عزيز. كُبة تاخد الإنجليز»، وعرِف أنَّ «عزيز» هذا ضابط مصري يتعاون مع الألمان ويدعوهم لغزو مصر. وقرر «حسين» إغاظة العساكر ذوي السيقان العارية الذين يتجولون كُل يوم في شوارع المعادي كأنَّهم آلهة إغريقية، وقال لصحبته يومًا:

سأبدأ المعركة ضد الإنجليز.

كان مع أبناء خالته يتحدث بنبرة رجولية تمكنت من صوته وتزامنت مع نبت صغير لشنب أخضر رسم حدوده فوق شفتيه، لكنَّه تلقى ردًا ساخرًا من «نجيب» وهو يقول له:

هل ستحارب الإنجليز بدبابتك المُخبأة بحجرة عم عُثمان الجنايني؟

وجاء رد «حسين»:



لا يا نجيب. بعم عُثمان نفسه.

وخرج ووراءه «نجيب» و«سعيد» و«مدحت» و«محمد» ليروه يأمر عم عثمان بإحضار دلو القار الذي كان يدهن به سور الحديقة، ثُم مشى ووراءه الرجل الخمسيني الذي شعر بالسرور لإرضاء الصبي دائم العُزلة وكثير الحُزن، ومضيا في الشارع حتى وصلا أمام بيت مهجور، ووقف «حسين» يغمس الفرشاة في القار ليرسم بها على الرصيف صلبانًا معقوفة. ومن شارع لآخر تحركا ليُكرر الولد رسمه في نشوة، بينما كانت عيون رفاقه تُلاحقه بانبهار. مشى بفخر عائدًا إلى البيت بعد فراغ دلو «عم عثمان» والتف حوله أقرانه، وهنأه «محمد»، بينما سأله «سعيد» عن معنى رسمه فأخبره بأنَّ الصلبان المعقوفة هي شعار الحزب النازي، وهو ما يغيظ الإنجليز ويفزعهم، لكن «نجيب» الذي احتفظ بابتسامة باهتة مصمص شفتيه، وقال له:

وماذا يعني ذلك؟ هل سيخرج الإنجليز من مصر لأنَّك رسمت لهم شعار النازي؟



وقبل أن يرُد تلقى «نجيب» لكمة قاسية من «محمد» الذي صرخ فيه:

لا تكُن مُثبطًا.

وأمسك «نجيب» برقبة ضاربه الذي بدا ضئيلًا إلى جواره، لكنَّه تراجع فجأة عندما وجد عم «عثمان الجنايني» يهرع إلى «حسين» ليخبره أن هُناك عسكريًا بالباب يُريده. ران الصمت على الجميع، وتسرب الخوف إلى قلوبهم عدا واحد فقط هو حسين نفسه الذي ذهب في هدوء وبرود، وسأل العسكري عما يريد، فأخبره أنَّ مفتش الأمن بالمنطقة يطلبه. ابتلع «حسين» ريقه وخرج من باب المنزل ليجد سيارة جيب بدون سقف يجلس فيها ضابط وعسكري مصريان، ما إن اقترب منهما حتى صاح به الضابط:

يا ولد. أين دلو القار؟ أحضره، ستمسح ما رسمته بيديك.

انتظر والدي.

قال «حسين»، لكن الضابط كان صارمًا:

لن أفعل. ستأتي معي وستمسح ما رسمته. ليس لي علاقة بوالدك ولا يهمني مَن يكون. ولو تكررت فعلتك سأقبض عليك.

وكانت تلك الواقعة قاسية للولد الذي عرف أنَّ لكل فعل رد فعل، وأنَّ طريق التمرُّد مفروش بالأخطار، وأنَّ هُناك دائمًا عقابًا. وساءه أن يتضاعف العقاب بعد علم والده، حيث تم إرساله بالقطار إلى عمته بالإسكندرية ليقضي الإجازة في عزبتها ويُحرم قليلًا من أبناء خالتيه وشقيقه، لكن ذلك كان فرصة له للتفكير والتأمل وترتيب الذهن، ورسم الطريق لعمل أكبر وأكثر خطورة.

بينه وبين نفسه كرر «حسين» سؤال ابن خالته «نجيب»عن فائدة رسم الصليب المعقوف على الأرصفة، وأجاب: لا شيء. وقرر بحسم أن يتحول للعمل الواقعي، وأعلن لنفسه أنَّ الضربات القادمة يجب أن تكون موجعة، ومؤثرة.



***

نظر إلى صدرها غير مُصدِّق، كيف تحررَ من كُل ما عليه بتلك البساطة والسرعة وبدا فاتنًا مُبهجًا ككرتي مُشمش! لاحظت عيناه انتصاب جيدها الرُخامي الناعم، وذلك الوجه المرسوم بعناية فنان من عصر النهضة، دقيق الأنف، صغير الفم، مُبهر القسمات. دقق النظر مُستمتعًا بضفيرتين رفيعتين اعتادت أن تُدليهما على الجانبين لتبدو كفتاة بريئة مازالت تخطر في سنوات الطفولة. اقترب من جسدها اللامع متصورًا أنَّه كُتلة من اللهيب قبل أن تُمسك أصابعها الرقيقة يده اليُمنى في دلالٍ وتضعها بين نهديها. شعر «حسين» بخدر غريب يسري في شرايينه عندما لامست بشفتين رقيقتين خدَّه الأيمن، ثُم زحفت رويدًا نحو شفتيه لتمتصهما في جنون. تراجع قليلًا للخلف، وأفلت شفتيه من قُبلتها المحمومة وقال لها مُتهتهًا:

إحسان. حسبت أنك تحبين نجي...



ولم يُكمل حديثه حيث أطبقت شفتاها مرة أخرى فوق شفتيه وهي تتأوه بشبقٍ وترُد:

لم أحب غيرك. حسين.

والتفت يداها حول رقبته في اللحظة ذاتها التي احتك فيها لحم صدرها الطري بجسده العاري، مُكتشفًا لأول وهلة أنَّه منزوع الملابس تمامًا. قشعريرة ساحرة تسرَّبت عبر شرايينه ونار لاهبة أمسكت بخلاياه النشطة. عار؟ سأل نفسه كيف؟ ومتى؟ حاول «حسين» أن يتذكر، لكنه لم يتمكن، أما أُنثاه فقد امتدت يداها مُتحسسة ظهره الناعم، وجذبته بُعنف نحوها، وهي تفح كثُعبان غاضب. شعر «حسين» بالعرق يتصبب فوق جبينه، وأحسَّ لسانها يلعق عرقه بتلذذ فاضح. تسارعت دقات قلبه على وقع خُطوات تعلو رويدًا، ثُم انفتح باب الحُجرة فجأة ليطل أبوه بوجهٍ غاضبٍ وعينين حمراوين. لم ينطق الأب بكلمة، وإنما سدَّد نظرة احتقار نحو ابنه، وهزَّ رأسه أسفًا، ثُم قال كلمة واحدة:

اخص.

وكررها بصوتٍ أعلى:

اخص. اخص. اخص.

رصاصة قاسية ثقبت قلبه وامتدت. مثلك مثلهم أيها المُراهق. بِع نفسك إلى الشيطان، ولا تُفكر في البطولة. أنت تابع. خاضع. مُقلد. سيشترونك بالقليل، وسيُخضعونك لإرادتهم. لو طلبوا منك الخيانة ستفعل طلبًا لشهوة تستعر دون مُطفئ.

سمع صوتًا مكتومًا يُناديه:

اقتل جوعك إن كُنت تريد مجدًا.

امتدت يد إليه هزَّته يمينًا ويسارًا، يد رقيقة، يعرف ملمسها. فتح عينيه ليُبصر شقيقه الأصغر جاثمًا فوق سريره ومناديًا:

حسين. قُم.



رمق ضوء الشمس ناثرًا نهارًا جديدًا في فضاء الغرفة، وفاجأه شقيقه قائلًا:

ولدان غريبان بالباب يسألان عنك. يقولان إنَّهما زميلاك بالمدرسة، ويريدان أن تشارك معهما في سباق الدراجات.

دراجات؟

قام نافضًا كسله، وشعر ببلل خفيف، وتذكر أنَّ الولدين سبق أن أخبراه في المدرسة أنَّهما يقطنان إلى جواره في المعادي، لكنّه ابتعد عنهما لأنَّ أصولهما أجنبية. غسل وجهه، وسرّح شعره كما علمته أمه أن يفعل كل يوم فور استيقاظه، وخرج إليهما.

«جول أسود» شاب غريب الأطوار، حاد الطباع مولود من أم ألمانية وأب سوداني، يمتاز بضخامة الجسم وقوة العضلات، ورغم ذلك فهو أقرب للسذاجة والسطحية. أما «أنور فائق جرجس» فكان ولدًا نحيلًا مُنفلتًا إلى أبعد مدى، وله عينان زرقاوان، أحاطتهما



ظلال سوداء نتيجة التدخين بشراهة لا تتناسب مع خمس عشرة سنة قضاها في الكون. دارت برأس «حسين» فكرة استغلالهما، خاصة أنهما مفتونان بالخروج عن المألوف وإتيان الغرائب والمغامرة. تناقش معهما، وأفهمها أنَّ سباق الدراجات لعبة جيدة لكنها لا تُناسبهما، وأنَّ عليهما استغلال قدراتهما وطاقاتهما في أعمال مفيدة مثل إرهاب الإنجليز وإلحاق الأذى بهم. فوجئ «حسين» بجيشان الحماس في وجهيهما وحتى بعد انضمام «سعيد» إليهم زاد حماسهما، وهو ما دفعه للحديث عن خططه لإحراق السيارات العسكرية التابعة للإنجليز. لقد أعجبه فيلم سينمائي شاهده ابن خالته «نجيب» وحكاه له لأنَّه عرض فكرة إحراق السيارات باستخدام الكيروسين.

فى صباح تالٍ انطلق الصبية المغامرون «حسين» و«جول» و«أنور» ومعهم «سعيد» بدراجاتهم يطوفون شوارع الحي الهادئ باحثين عن صيد ثمين، مُعلنين بداية تجربة جديدة لإحراق سيارات الإنجليز العسكرية. ساروا مُتحمسين يُصفرون في تبادل كفريق



مُتجانس مُنذ سنوات. في بداية المغامرة قابلوا سيارات مُسكونة بعساكر وسائقين استبعدوها تجنبًا للصدام، ورأوا بعد ذلك سيارات أخرى في شوارع صاخبة بالحركة، فتركوها خوفًا من القبض عليهم، حتى وصلوا بعد طواف ثلاث ساعات إلى شارع مسدود، لا يسكنه إنسان وشاهدوا سيارة كبيرة بثماني عجلات تقف دون بشر، فاقترب «حسين» من بابها الأيسر فاحصًا، ثُم صعد إليه، وكسر زجاج النافذة بضربة عصا سريعة، وتناول من «جول» زجاجة الكيروسين ليصبها فوق مقعد السائق، ورمى إليه «أنور» علبة الثقاب ليُشعل واحدًا ويلقيه داخل السيارة، لكنّه انطفأ سريعًا، ليصاب حسين بخيبة الأمل. لحظات وقرر مواصلة تحديه فأشعل عود الثقاب الثاني، ومُني بذات الخيبة عندما خبتت ناره فور إلقائه داخل السيارة ثُم أشعل الثالث، والرابع دون جدوى. وأخبره أنور أنَّ عليه إشعال شعلة كبيرة وإلقاءها بدلًا من أعواد الثقاب، وعلى الفور مزق فانلته الداخلية ليحصل على خِرقة طويلة ما لبث أن أشعل فيها النار وألقاها داخل السيارة لتأكل نيرانها مقعد



القيادة بنجاح. امتقع وجه «حسين» بلون السعادة ثُم قفز فوق دراجته وانطلق وإلى جواره زُملاؤه مُغتبطًا بانتصاره وعائدًا إلى أبناء خالته بجبهة مرفوعة وشعور طاغٍ بالبطولة.

بعد يومين كرر الصبي الخجول فعلته مرة ومرات في شوارع عِدة، ثُم غيّر توقيتات عملياته بفطنة عالية، كما غيّر مُساعديه من عملية لأخرى مُستعينًا بابنيْ خالتيه «محمد» و«مدحت»، وبقي «نجيب» رافضًا المُشاركة، مُعلنًا التضامن السلبي وحفظ السر لهم.

اتسعت حالة الفزع بين عساكر الإنجليز في تكنات المعادي، وحقق البوليس في حوادث إحراق السيارات والتي بلغت خلال أقل من شهر ثمانية عشر حادثًا، واستدعى مُفتش الأمن توفيق بك وأكد له أنَّ هناك شكوكًا عديدة تحوم حول تورط ابنه في الحوادث، لكنَّ الرجل ذا المكانة المرموقة رفض أي اتهام، مؤكدا أنَّ ابنه لديه مشكلة في شبكية العين ويعاني من ضعف شديد في بصره، وهو ما يستحيل معه قيامه بأي فعل يحمل سمة عُنف. ووصل الغضب بالرجل أن

هدد بتصعيد الأمر إلى رئيس الحكومة باعتبار أنَّ التحقيق مع ابنه يستهدف النيل من أحد رجال الحكومة، فضلا عن تأثيره شديد السلبية على حالته النفسية.

وعلى مدى شهرين تاليين تابع الصبية المُغامرون الصُحف الصادرة باحثين عن أي إشارة لعملياتهم الفدائية دون أن يجدوا سطرًا واحدًا. كان لديهم شعور طاغٍ بضرورة أن يعرف الناس ما يفعلون، ووَدَّ «حسين» لو يجلس إلى والده يُحدثه بجرأة وشجاعة عن نضاله وحروبه السرية ضد المُحتلين.

لست ولدا تافهًا يا حضرة الفدائي القديم. لا سينما ولا فتيات. لا لهو ولا سهر. لا رقص ولا حفلات. لا ترف ولا استعلاء. كُلنا مصريون. أعرف أصولنا جيدًا وأعلم أننا لسنا أتراكًا ولسنا أعيانًا ولن يُشرفنا أن نكون كذلك. أسير على خُطاك أيها الوالد الصامت مُتتبعًا أقدام الخونة لأرسم لهم دروبًا إلى الجحيم. هكذا قال «حسين» لنفسه عندما تأمل صورته في المرآة يومًا بعد أن قفز طوله فجأة بأكثر من عشرة سنتيمترات

ليبدو كنخلة باسقة ترُش ظلالها يمينًا ويسارًا. فكَّر وقتها أن عليه تحويل نشاطه وصحبه من مغامرات صبيانية إلى عمليات فدائية مُنظمة، وبدأ ذهنه موجهًا نحو ضم عناصر جديدة وتوسيع نطاق أهدافه ووضع أفكار وحيل جديدة وتعريف الجماهير بنضالهم حتى يتحول إلى موجة عارمة لا تُبقي ولا تذر.

كانت حكومة علي ماهر باشا قد أعلنت فور قيام الحرب العالمية الأحكام العرفية ووضعت الرقابة على الصحف والمكاتبات والرسائل ودور السينما وما تعرضه من أفلام، كما شملت الرقابة ما تبثه الإذاعة من أخبار وبرامج، ولكنَّ «حسين» ورفاقه كان لهم رأيٌ آخر، إذ اعتبروا الفرصة سانحة لبدء الحرب السرية ضد الإنجليز والخونة.

***

كان السيجار الغليظ الذي لفته أيادٍ ناعمة في الضفة الأخرى من العالم مُختنقًا بين أصابع «توفيق بك» وهو يجلس أمام مكتبه الخشبي الضخم مُتحدثًا بصوت



خافت إلى «سميرة» زوجته وأم ابنيه «حسين» و«سعيد»، بينما كانت السيدة البيضاء ذات النظرات اللامعة تُدخن سجائر رقيقة في عصبية ظاهرة. لم يكُن الزوجان الصارمان يعرفان أنَّ ابنهما الأكبر والذي كان محور كثير من أحاديثهما الهامسة يتنصت عليهما في هدوء اعتاده.

كان الأب ذو الوجه المُستدير والصلعة الواضحة يحاول كتمان ملامح حُزن زارت روحه وانعكست على وجهه. قال توفيق بك لزوجته إن «حسين» دائم النظر إليه بعتاب، وأنَّه يلمح في وجهه زيغ دائم، ويخشى أن تكون للولد رغبات شاذة خاصة أنَّه لا يشعر باهتمامه بتاتًا بالتعرف على فتيات أو التحدث مع بنات أصدقائه في حفلاتهم ولقاءاتهم في النادي.

وقالت السيدة «سميرة» لزوجها إنَّها لا تشعر بصحة هواجسه تجاه «حسين» فيما يخص عدم سلامة سلوكه أو وجود توجهات شاذة له. إنَّها لا تأبه كثيرًا بعدم اهتمامه بمُصاحبة الفتيات مثل ابن خالته «نجيب»، لأنَّها تتصور أنَّه خجول بعض الشيء، لكنها



لا تتصور أبدًا أن يكون بلا رغبات تجاه الفتيات، ودللت على ذلك بأنه يضع في حُجرته كثيرًا من التصاوير الخاصة بفنانات شهيرات مثل «جريتا جاربو»، و«كاترين هيبورن»، و«بيتي ديفيز». وكان من رأيها أنَّ المرض الذي يُهدد عين «حسين» هو السبب في عصبيته البادية وعدم اختلاطه بالأسرة وجنوحه إلى قضاء ساعات طويلة في حديقة المنزل مع شقيقه وأبناء خالته. وقالت إنَّ أكثر ما يضايقها في سلوكه هو اختلاطه ببعض المستويات الدُنيا من الناس مثل «عثمان الجنايني» وأبنائه وقريبه الولد الشقي «سيد». وشكا رب الأسرة من امتعاضه من ضعف مستوى ابنه الدراسي واضطراره لنقله من مدرسة إلى أخرى، مُعترفًا أنَّه يشعر بغربة شديدة كلما نظر في عينيه، وشاركها تخوفه من تقليد شقيقه الأصغر له.

نجحت خططك يا ثعلب المدينة. قالها «حسين» لنفسه وهو يُتابع حديث والديه من خلف خزانة الكُتب الكبيرة التي تستند إلى الجدار بجوار المكتب. لقد سمع حديثًا مُشابهًا قبل أيام وهو ما دفعه أن يضع



صور الفنانات الشقراوات بين دفاتر كُتبه ليمحو القلق من نفس أمه، مؤكدًا لها أنَّه مثل مَن هُم في عمره يُحب النساء ويعشق أجسادهن. فكر أنَّ أمامه رحلة كفاح طويل تحتاج رضا الأهل وسكوتهم وهو ما يستلزم إقناعهم بأنه شخص طبيعي، بل وطبيعي جدًا. وتذكر اتفاقه مع ابنيْ خالتيه «محمد إبراهيم» و«مدحت»، وقريب الجنايني المُسمى «سيد» على بدء خطة تسليح عن طريق شقيق عم «عثمان الجنايني» الذي يسرق الأسلحة من معسكرات الإنجليز ويبيعها، وخطرت في رأسه فكرة استغلال مخاوف والديه من تجنبه للفتيات في الحصول على أموال كافية لشراء السلاح من السارق.

في الصباح اتصل ب«نجيب» سائلًا إن كان سيخرج في المساء، فأجابه بأنَّه سيذهب إلى نادي الطيران الملكي لمشاهدة فيلم فرنسي عن الطيران، ثُم سيلتقي فتاة يونانية تعرف عليها قبل أيام في آلامريكين بوسط المدينة. سأله إن كان يُمكن أن تُعرفه صديقته على إحدى صديقاتها فقال إنَّه سيحاول، مُستغربًا



سلوك ابن خالته غير المعتاد. دعاه أن يمُر عليه لاصطحابه معه، ثُم ارتدى بذلته الأنيقة وذهب إلى أُمه سائلًا إياها إن كان مظهره مُناسبًا، فهزت رأسها ثم سألته إلى أين يذهب، ففاجأها معترفًا ببعض الخجل بأنَّه سيلتقي فتاة يونانية تعرف عليها مؤخرا مع «نجيب»، وأنَّه مُتردد في الذهاب لأنَّه يعلم أنَّ اللياقة تُحتم عليه دعوتها للعشاء، وأن مصروفه انتهى ولا يستطيع أن يفاتح والده في ذلك. بدت «سميرة» سعيدة باعتراف ابنها، وقامت مُسرعة لتدُس في يده بضعة جنيهات ناصحة إياه أن يبدو كريمًا ولطيفًا مع صديقته. وتأكد فرحها ورقص قلبها من السعادة وهي تستقبل ابن شقيقتها «نجيب» مُتأنقًا ومُتعطرًا بعطر جذاب يخلُب الألباب. قبلته على خده في حنو خالة كبيرة، وسألته عن وجهتيهما، فقال:

سنُشاهد فيلمًا في نادي الطيران.

ابتسمت، وهزَّت رأسها المُستدير وواصلت مُبدية تفهمًا:

ثُم إلى أين يا نجيب؟

سنلتقي أصدقاء آخرين لنا.

اتسعت شفتاها مُعلنة أنَّ هواجس زوجها بشأن شذوذ ابنه في غير محلها، ثُم سألت:

أي أصدقاء بهذه الأناقة؟

ثُم هزَّت أرنبة أنفها مُتشممة وأضافت:

وهذا العطر الجميل؟

تنسكين.

مَن ستقابلان؟

سألت السيدة النابهة. فابتسم «نجيب» بمكر دون أن ينطق، فكررت:

فتيات؟ أليس كذلك؟!



هزَّ رأسه موافقًا، بينما كانت عينا حسين تتابعان المشهد برضا وسرور ليسمع أمه تقول بابتسامة واسعة:

عظيم. لا تخجلا. لقد كبرتما وأصبحتما رجلين. كونا لطيفين.

ثُم غمزت بنصف عين لابنها قائلة:

حبيبي لا تخش شيئًا. لن أخبر والدك. لكن عدني أن تُذاكر وتجتهد وتُحقق أمل والدك في أن تُكمل تعليمك بأوروبا.

هزَّ «حسين» رأسه دون أن ينبس، وشعر أنه قادر على وضع خطط خِداع وتضليل، وأنَّه شخص ذكي على خلاف ما يعتقد والده، ورمى ابن خالته بنظرة ريبة لكنّه عاد مؤكدًا أنَّه لا يُمكنه إفشاء سر رغم خلافاته المتكررة معه وباقي أفراد العائلة.

خرجا معًا سعيدين والشغف ثالثهما، بحثا عن سعادة مُرتقبة. كان «حسين» قد قرر جمع المال بأي طريق



وأي أسلوب لشراء مُسدس من حنفي شقيق «عثمان الجنايني»، بينما كان «نجيب» يشتاق للمسة يد ناعمة لفتاة أوروبية. في الطريق سأل «نجيب» ابن خالته: كم معه، فأجابه: ثلاثة جنيهات، فابتسم وقال:

عظيم.

وأضاف:

وأنا معي جنيه وسيكون بإمكاننا العشاء وشراء سجائر اكسترافين والسهر في أي كازينو صاخب ومعنا اليونانيات الجميلات. ستُسر جدا يا «حسين». قالت لي «كاليوبي» أنَّها ستُحضر صديقتها «تينا» وهي فتاة ساحرة، ستعرف معها كم كُنت مُخطئًا برفضك مُصاحبة البنات. سحر جميل يا «حسين».

تحسست أصابع «حسين» شعره المُسترسل المُلمّع بفازلين مُتميز، ثُم أخرج من جيبه المال الذي منحته له أمه، ثُم سأل رفيقه أن يُعطيه ما لديه، استجاب له



«نجيب» فرحًا، فتناولها «حسين» جميعًا ودسَّها في جيبه، ثُم سحب نفسًا عميقًا، وقال:

اسمع يا نجيب. سنشتري بما معنا مُسدسًا لنبدأ الحرب الحقيقية.

امتعض نجيب وضاقت عيناه قبل أن يقول:

مُسدس؟

نعم.

كيف؟ والفتيات؟ وأمك؟ وجنيهي؟

ربت «حسين «على كتفه وقال:

سنأكل آيس كريم وسنجلس مع فتياتك لكننا لن ندعوهما للعشاء ولن نسهر. الوطن أولى يا صاحبي.

لكن...

انتهت المناقشة يا نجيب. هيا بنا.



وسارا معًا طويلين كمئذنتين، وشعر «نجيب» أنَّه خُدع، لكنه تحلَّى بالصمت، وخيبة الأمل، وتوقع أن يكون القادم مُخيفا، لذا لم يشعر في ذلك اليوم بلمسات حانية منحتها إياه فتاته «كاليوبي» ولم تُثره رُكبتاها الخارجتان من تنورة قصيرة، وبدا مُستغربًا بشدة ضحك «حسين» وانخراطه في محاورات مثيرة مع الفتاتين وكأنَّه خبير نساء ممن يُشاهدهنَّ في أفلام السينما.

***

تحلقوا حوله ينظرون بولهٍ وامتنان. ماسورة من الصُلب الأسود الثقيل، متعامدة على مقبض خشبي بُني اللون تُميزه مسامير كبيرة بارزة.

سميث آند ويسون.

نطق «حسين» الجالس واضعًا ساقًا فوق أخرى في صباح خريفي رائق، وإلى جواره جلسوا جميعًا، ابنا خالتيه محمد ومدحت، وشقيقه سعيد، وصديقه الجديد سيد. كان «نجيب» سادسهم الذي غادرهم



مُعتزلًا بعد أن أخبرهم أنَّ الشركة التي صنعت المسدس هي شركة أمريكية أسسها شخصان هما «هوراس سميث» و«دانيال ويسون» قبل نحو مائة عام وأنَّها أكبر منتج للأسلحة في العالم.

بدا «سيد» ذو الملابس الرثة والوجه الأسمر الشاحب والعينين الزائغتين سعيدًا بصداقة أبناء الذوات الذين يرطنون بالإنجليزية والفرنسية، ولا يحملون هم طعامٍ أو ثياب، وينفجرون غِلًا وحقدا لا حدود لهما تجاه المستعمر الإنجليزي وكُل مَن يتعاون معه. كان «سيد» الذي تكلم التحق بالمدرسة بالكاد، قبل أن يأمره والده أن يلزم «عثمان الجنايني» نهارًا لعله يُصيب خيرًا أو عملًا قد وجد في «حسين أفندي» سيدًا ودودًا وصديقًا وفيًا، خاصة عندما منحه حذاءً من الجلد الأسود بدون أي ثقوب، ثُم ضمه بعد ذلك إلى شلة الأصدقاء المؤتمنين وكأنَّه قريب له. وجد «سيد» في شلة الأولاد وفاء، ودعمًا لمُجتمع مريض لم يكن يمنح أبناء الفقراء أي نظرة احترام. لذا، فقد كان مُستعدًا دائمًا أن يتلقى دروس «حسين» والاستماع لأفكاره



وخططه بمحبة طاغية وقناعة تامة بصدق وطنيته ووطنية صُحبته.

ابتسم «حسين» وهو يتأمل جسد ال«سميث آند ويسون» بإعجاب مَن يشاهد فاتنة عارية. كم أنت مُبهر ورائع! كم أنت صديق للأبطال والشجعان؟ حدَّثه «حسين» كصاحب، كفرد من أفراد شلته، كمصري غيور يغلي الدم في عروقه كُلما شاهد صلف الإنجليز أو تابع خنوع المصريين وسكونهم. كان يتخيل نفسه مُمتشقًا حزامًا جلديًا حول خصره ومُعلقًا ذلك المسدس فيه، ليُخرجه بين الحين والحين ويطلق النار على عساكر الإنجليز السائرين بغرور على كورنيش النيل، فيسقطهم واحدًا تلو الآخر.

كان «محمد إبراهيم كامل» على قناعة تامة أنَّ أي مقاومة أو مُشاغبة للإنجليز دون وجود سلاح هي ضرب من السذاجة، وأنَّ أي عملية بلا آلة قتل مُجرد لعب أطفال. إنَّه يكره لعب الأطفال ويعتبر أنَّ الموت في نظره ضرورة لازمة لاستمرار الحياة، ولا يُمكن تحقيق أي نصر بدون دماء.



قال «محمد» وقد أبصر ذلك المُسدس ينتقل من كف لأخرى:

يجب أن نتدرب جميعًا على إطلاق النار.

طبعًا وبسرعة.

صاح به «حسين».

أما «سعيد» و«مدحت» فكانا خائفين، لكنهما كتما رائحة الخوف في قلبيهما مثلما اعتادا قبل أن يستمعا ل»حسين» مُعلنا ميلاد الجمعية الوطنية لطرد الاحتلال.

بحسم وصرامة قال لهم «حسين»:

إننا سنتعاهد على الكتمان والتضحية من أجل الوطن وسنبدأ خلال أيام بقتل الإنجليز. سنُقسم جميعًا على الإخلاص والتفاني وتسخير كُل جُهد ومال وقدرات ومعارف لتحقيق هدف الجمعية الأسمى وهو طرد الإنجليز بالقوة.



ونجيب؟

سأل «مدحت »، فأجابه «حسين»:

لن يقبل بالانضمام إلينا. لكنَّه سيساعدنا رغمًا عنه.

في صحراء المُقطم وقفوا يضعون زجاجات النبيذ الفارغة التي جمعوها ليصوبوا المسدس تجاهها، بعد أن انضم لهم جول أسود. في البدء كان الرصاص يصفّر مُدويًا دون أن ينجح أحدهم في إصابة زجاجته لعدة مرات، وساعة بعد أخرى بدأت الأصابع اعتياد ملمس المُسدس. كان «حُسين» هو الأكثر تماسكًا، غير أنَّ ضعف بصره أشعره بالحُزن لعدم إتقانه إصابة أهدافه. قال لنفسه إنَّه سيئ الحظ لأنَّه صاحب فكرة الجمعية والعقل المدبر لها، لكن مرض الشبكية لديه يجعله أقل حظًّا في الرماية. فكر وقرر سريعًا أنَّ عليه أن يُخاطر ويخوض تجربة إجراء الجراحة بشكل عاجل غير عابئ باحتمال فقدانه للبصر حال الفشل.



في اليوم ذاته أسرَّ إلى والدته بضيقه الشديد لاستمرار آلام عينيه راجيًا إيَّاها ضرورة الإسراع بإجراء الجراحة مُستعينًا كعادته بحكايات مُلفقة حول اشمئزاز إحدى الفتيات من مشهد عينيه واعتقادها أنَّه مُصاب بالحول. وكما توقع فقد تنصت عليها بعد ساعات قليلة تُناشد والده سرعة إجراء الجراحة له، وهو ما أسعده، على الرغم من معرفته بالاضطرار للخضوع لطبيب إنجليزي كان يكن له كُل الكراهية وعظيم الاحتقار.

في اليوم المُحدد وبمستشفى باب اللوق تمدد على الفراش وحوله وقف أفراد الجمعية يمنحونه الثقة والتشجيع اللازمين، بينما كان والداه يدعوان اللّٰه أن يمنحه شفاءً، وسلامة، إذ كانا مُقتنعين أنَّ عصبيته ومشاغباته الجمة نتاج طبيعي لمرض بصره.

بدا «حسين» باسمًا بثقة وهو يودع وجوه مُحبيه قبل أن يسرح الخدر بأوصاله كجيوش من النمل النشط الذي انتشر سريعًا وبلا مقاومة في شرايينه وعروقه. أبصر وجه الطبيب الإنجليزي مذعورًا وهو يركُض بينما كان يسير هو بثبات وثقة وفي يمينه السميث آند



ويسون، وأمامه عسكري نحيل تنزف ساقاه دمًا أسود. وعلى جانبي الطريق رأى حشدًا من الوجوه، أفندية، فلاحين، طلبة، سيدات بملاءات سوداء، وفتيات بريئات يُشجعونه بحماس ليُكمل تصفية دماء فريسته، بينما كان «سعيد» و«مدحت» على يمينه و«محمد» و«سيد» على يساره يتابعون بشغف. كان «نجيب» يُتابع من بعيد في انبهار. سرح ببصره إلى بعيد فشاهد طرابيش وطنية تعتلي رؤوسًا عديدة متباينة الطول والقصر تركض أمام العسكري الإنجليزي في فزع مماثل، بينما كانت الشمس تتوهج ناشرة نهارها ودفئها على الجموع الحاضرة. في طريقه أبصر صورته على صفحات الصحف المرصوصة على الأرصفة وتحتها بالبنط الأحمر كلمة «بطل مصر». ومن إحدى الشُرفات أطلت «إحسان» فاتنة المعادي بوجهها الجميل وجيدها الرخامي لتُبصر مروره، بينما كانت أصابعها تتماوج يمينًا ويسارًا تحية له، لكنه لم يلتفت وواصل إطلاق رصاصه ليتدفق خيط الدماء سريعا على الطريق ممتدًا من ساقيْ طريده. سمع صوت والدته تهتف به «حبيبي»، بينما كان كف والده الغليظة



الدافئة تحتضن رأسه في حُنوٍ بالغٍ. كان يشتم رائحة تبغ والده عندما سمع صوتًا باردًا يُكرر:

مبروك يا بك. العملية نجحت. النتائج أفضل مما توقعنا كثيرًا.

وغاب مرة أخرى عن الوعي لعلّه يُدرك فريسته.

***

أبريل شهر التقلبات.عواصف تُرابية تصفع أوراق الشجر الخضراء فتُحيلها صفراء، سماء مُلبدة بغيوم صامتة دون مطر، وحرارة الطقس تزحف ببطء نحو سكان القاهرة، تلك الحرارة التي يكرهها «آدمز» مذ أهلّ على مصر مُجندًا لتأدية واجبه الوطني نحو بلاده. في معسكر بعيد عن زحام الأفندية وأصحاب الطرابيش وضجيجهم يقضي نهاره مُلتزمًا بنوبة حراسة لمساكن إيواء حامية إنجليزية جديدة عسكرت في حي المعادي بعد اشتعال الحرب العالمية، بينما ينتظر بشوق وتعجل حلول المساء، ليُسلم مُهمته لزميل آخر ويزور عوامة «كاليوبي» الشهيرة على

النيل راشفًا النبيذ الفرنسي المُعتق، ومُستمتعًا بوصلات رقص شرقي لمصريات وشاميات ملفوفات الأجساد. كان «آدمز» ذو الثلاثة والعشرين عامًا يسير كعادته وحيدًا غير مُلتفتٍ لتعليمات وتوجيهات مُتكررة للجنود الجدد بعدم زيارة البارات البعيدة فُرادى مُشعلًا سيجارة ماركة كريازي، ومُرددًا في شجن أغنية I,ll never smile again لفرانك سيناترا،عندما لاح أمامه مجموعة صبية قادمين بُخطى مُنتظمة، ووجوه عابسة يبدوعليها الاضطراب. كانوا خمسة مصريين يتوسطهم جسد فارع ذو شعر داكن وتلتمع عيناه بشرر غاضب، بينما بدا زُملاؤه كُحراس تابعين. تحسس بكفه مُسدسًا ماركة «كولت» يرقد في جراب جلدي مُعلّق بحزام حول خصره، وشعر باطمئنان مُستبعدًا نزوع الصبية السائرين لأي شر. قال لنفسه لو كانت لديه الشيكولاتة باللبن التي توزع عليهم لتقديمها للأطفال في شوارع الأحياء الفقيرة لمنحهم بعضها، مُتمتما بأنَّ هؤلاء المصريين طيبون رغم كُل شيء ويُقدّرون مَن يمنحهم السكر والحلوى.

ليسوا شرًا يا «آدمز». قالها لنفسه وهو يقترب من عصابة الصبية ذوي النظرات المُريبة. توقَّع أن يُحيوه كغيرهم بالعبارة الشهيرة «هاى جوني» لكنهم واصلوا رميه بنظرات لاهبة. لاحظ أنَّ كبيرهم يُدقق النظر إليه مُتفرسًا وشعر لأول وهلة بقسوة مُرعبة تطُل من عينيه. تذكر أن موعد الوصلة الأولى لراقصات كاليوبي اقترب وأنَّ عليه مد الخطى ليلحق الحفل الليلي من بداياته، خاصة في ظل تلك الأجواء المُزعجة بعد احتلال ألمانيا للدنمارك ثُم هولندا والنرويج في الشهر ذاته. استعرت أنفاس الكراهية واشتم رائحة الغدر قبل خطوات قليلة من محازاة الصبية الخمسة له، وشعر أنَّ عليه اتخاذ إجراءات الحذر المفترضة، فأبطأ الخطو قليلًا قبل أن يقبض بيمينه على مُسدسه ليُخرجه من جرابه، ووقف مُتجمدًا في مكانه عندما شاهد هُراوة غليظة تطيش برأسه في حركة مفاجئة أعقبها صوت صفير مُتكرر. آه. زفرة ألم فرَّت مقهورة من بين ضلوعه. سارع الصبية الخمسة بالركض نحوه مُمطرينه بضربات غاضبة من أحزمة وهراوات وقبضات على رقبته ورأسه وظهره، وفقد اتزانه، وسقط على الأرض



طلبًا للراحة، علَّ هؤلاء المجانين يتوقفون عن ضربه ويجرون بعيدًا، لكنهم واصلوا ركلاتهم في بطنه وصدره بقسوة وغلّ. سمع صوت أطولهم يقول «لم يمُت بعد» ثُم لاحظ سائلًا ساخنًا يتدفق من بطنه قبل أن يستيقن أن رصاصة قاتلة عرفت طريقها إلى أحشائه.

ما تفعلون؟ سأل «آدمز» دون أن يسمع ردًا، لكنَّه شاهد ابتسامة نصر تتراقص فوق وجه الشاب الطويل ذي النظرات اللاهبة، وشعر بيدين غليظتين تعبثان في ملابسه، ورأى مُسدسه يتقلَّب بين أكف المهاجمين، ثُم صفارته، وحقيبته الصغيرة، وزجاجة نبيذه، ومحفظته، وقبعته، وحزامه، ثُم صورة فتاته في لندن والتي ودعته قبل تسعة أشهر مُسافرًا لأداء الخدمة الوطنية في إحدى مستعمرات بلاده. ابتسم مُتألمًا ليشهد نظرة الثأر تطلُّ من عيني سالبه. ما اسمك أيها الفتى الجريء؟ سأله دون صوت، فسمع الكلمات باردة، تتمايل كأغنيته التي كان يشدو بها.

حسين.



ثُم اقتربت أنفاس لاهبة من وجهه لتضيف:

وهؤلاء أصدقائي محمد، وسيد، وجول، ومدحت. وداعًا جوني.

لست «جوني». أنا «آدمز». ودّ الجندي المحتضر أن يقولها لكن صوته لم يُغادر شفتيه، وغاب دون أن يُبصر الفتية يغادرون في خفة، مُحتفلين بنصر شعب مُضطهد، ومحُتل على أكبر قوة عسكرية في أوروبا، تلك التي زعموا أنَّ الشمس لا تغرب عنها أبدًا.

ساروا معًا فرحين بالمسدس، والمحفظة بما فيها من نقود، وبنجاح أول عملية قتل لمحتل كريه. في وكرهم بحديقة المنزل اجتمعوا فخورين بما أنجزوا، قبل أن يقصوا على «نجيب» و«سعيد» ما فعلوه. وزَّع محمد سجائر جاناكليس عليهم احتفالًا بنجاح المُهمة، بينما أقسم «سعيد» على شقيقه أن يصحبه في العملية القادمة ليتعلم أصول العمل الفدائي.

رشف «حسين» لأول مرة رشفة من زجاجة نبيذ القتيل مُستغربًا لسعة المشروب في الفم قبل أن يقول لصحبته:

أرأيتم وجه الخنزير وهو يترجرج بالخوف راجيًا الرحمة؟ أرأيتم فزعه؟ ليسوا أشداء كما يظن الناس، هُم أجبن وأضعف مما حسبت.

من قتله؟

سأل «نجيب» فابتسم «حسين» مُشيرًا بأصابعه نحو «سيد» قائلًا:

البطل. البطل هو مَن أطلق الرصاص.

زارت الغبطة وجه «سيد» الذي تمتم:

لولا ضرباتك ما سقط. رصاصة واحدة أصابته ورصاصتان طاشتا.

رفع «محمد» رأسه مُفتخرًا وردد في رضا:



الاتحاد قوة. كُلنا أبلينا حسنًا في العملية. وهانحن ربحنا مسدسًا ثانيًا.

سنحتفل.

قالها «جول»، وكرر الجميع خلفه:

نعم سنحتفل.

وقف «حسين» وهزَّ رأسه طربًا وهو يقول:

كم هو مُمتع مشهد خروج الروح قهرًا من أناس ظنوا أنَّهم سادة وغيرهم عبيد!

ونظر إلى «نجيب» وقال:

قُلت لي مرارًا أنَّ طعم القُبلات ألذ ما في الدنيا. كذبت. لقد ذقتها من قبل، وما جرى اليوم أعذب وأجمل من قبلات من شفتي كاثرين هيبورن أو حتى ليلى فوزي التي تقول إنَّها أجمل امرأة في مصر.



سكت «نجيب» عندما شاهد تأمينًا واستعذابًا من الحضور الذين بدوا كأنَّهم في جلسة ذكر صوفي، ومدّ يده إلى زجاجة النبيذ ليرشف منها طعمًا لم يعرفه من قبل.

***

شعر بالثقة البالغة وهي تلتقط أصابعه بين أصابعها الرقيقة، وهُما يسيران إلى جوار النهر الخالد. قرون من الزمان مرَّت على الماء المتدفق من الجنوب الإفريقي دون توقف، صاحيًا ومتمردًا وعابرًا لإحباطات الخوف والسلبية والسكون. قال لنفسه إنَّ هؤلاء الناس ليسوا خاضعين خانعين كما يحلو لكتبة السُلطة أن يصوروهم، فكم ينتفضون ويرفضون الواقع كلُما سنحت لهم الفرصة. كانت كفه لا تشعر بدفء اليد الناعمة البيضاء الملتصقة به لأنَّ عقله مُنشغل بتصورات واستعدادات للعمل الفدائي المُقبل الذي صار يحلُم به كل ليلة.



وافق «حسين» على إلحاح ابن خالته «نجيب» للاستجابة لدعوات «إحسان» بلقاء صديقتها «ميمي» التي طالما أبدت إعجابًا بحسين ذي الطول الفارع والعينين الحادتين. قالت «إحسان» ل«نجيب» إنها تستغرب كيف تُقبل «ميمي» مُدللة المعادي على مُصاحبة هذا الشاب الخشن ذي النظرات المُريبة. لو كان عليها ما منحته نظرة رضا واحدة، لكن تبدو أذواق النساء متباينة حتى في فرسان أحلامهن.

اقتربت بجسدها النحيل من «حسين» المُرتبك قليلًا وهي تخطو ببطء وصعوبة خوفًا من التعثر بسبب طول كعب حذائها. كانت ترتدي جونلة خضراء ومعطفًا بنفس اللون له أربعة جيوب مستطيلة، وعلى ظهرها انساب شعر بُني طويل، بينما كان «حسين» يرتدي بذلته الكُحلية الناعمة بعد أن خلع عن رأسه ملل الطربوش مُفضلًا تلميع شعره الناعم بالفازلين. سألته في تدلل عما يشغل باله، فقال بهدوء كهل في الأربعين:

حال البلد.



أوه. لا يعجبك؟

أجاب سائلًا:

هل تعرفين أنَّ خيرات مصر تُنهب كل يوم من قبل هؤلاء الخنازير؟

وأشار بإصبعه ناحية ثلاثة عساكر أجانب يسيرون على الرصيف المقابل.

قالت «ميمي»:

وما هو الجديد؟ لقد ولدنا ووجدنا هؤلاء العساكر يسيرون في شوارعنا ويعملون إلى جوار آبائنا، ويقدِّمون لنا الشيكولاتة. ألا تذكر؟

غلى الدم في وجه حسين وانتفخت عروقه وقال غاضبًا:

شيكولاتة. لا. أتذكر مَن قتلوا ومَن جلدوا. أعرف أنَّهم ينهبوننا ويحتلون بلادنا ويستغلوننا عقودًا بفضل



الخونة والكلاب.

حبيبي.

نطقت «ميمي» مُهوّنة، فهدأ قليلًا وقال لها:

هل تتصورين أنَّه من الكرامة والرجولة أن نترك هؤلاء يستكملون ما فعلوه بأجدادنا وآبائنا؟

نظرت إليه بعينين فاض منهما التيه وقالت:

بالطبع لا. لكن ماذا نفعل؟

برق السؤال في دماغه وشعر بثقة المُخلّص وهي تلتصق أكثر بجسده، وقال لها:

نُقاتلهم.

قتل؟

نطقت الحروف في خوف، فواصل في برود:



نعم.. قتل. لقد فعلتها يا ميمي. وسأقاتلهم حتى يتمنوا الهرب من بلادنا.

حكى لها في عُجالة ما فعله وأصحابه بسيارات المعسكر الإنجليزي، ثُم كيف قادهم لقتل العسكري الإنجليزي قبل أيام. شعرت أنَّها أمام فتى مختلف، وقفت قلقة، وحدقت فيه مُنبهرة ورمت بعينيها لفتة خاطفة نحو الطريق الخالي من المارة، ثُم اقتربت بشفتيها الدافئة منه لتطبع قبلة ساخنة على شفتيه. ارتعدت فرائصه وشعر بتدفق الدم في عروقه ورقص قلبه فرحًا عندما قالت في حنوٍ:

أنا معك. اقبلني خادمة للوطن.

سارا معًا، مُحتفلين بانضمام عضو جديد لجماعة المقاومة الوطنية، قبل أن تقوده في شبقٍ ظاهرٍ نحو بيت جدتها الخالي من السُكان في حي المنيل لينهل للمرة الأولى من خمر الأُنوثة. عناقها دليل على خبرة فتاة مُجرّبة وعابثة وقادرة رغم ذلك على الحفاظ على



بكارتها. أذابته في خلاياها، وعلّمته قضم التفاحة، ونسى زملاءً ينتظرونه فنام حتى العشاء.

عندما عاد قرأ الضجر على أفراد الشلّة المجتمعين بغرفة عم «عثمان الجنايني»، والذين تلقوا نبأ خروج «حسين» و«ميمي» معًا من «نجيب» بتشكك ودهشة. وجد أفراد المجموعة يتحلقون حول «محمد إبراهيم كامل» الذي أحضر خريطة لحي المعادي ليشرح عليها خطة العملية القادمة.

كيف تخطاني؟ سأل نفسه، قبل أن يجيبه «محمد» بنبرة لوم:

لن أعيد الخطة من البداية. مَن لا يلتزم بالمواعيد التي نتفق عليها لا يستحق نيل شرف العمل الفدائي. اسمع يا حسين ستكون خارج العملية.

انتفض وغضب وزعق:

أنا. كيف تجرؤ؟ ماذا جرى؟ هل تنقلب عليَّ؟



ثُم نظر إلى باقي الحضور وكرر:

هل تقبلون ذلك؟ لقد كنت في مهمة من أجل التنظيم، ونجحت في ضم عنصر جديد لجماعتنا.

استغربوا، فواصل:

لأول مرة سيكون معنا عنصر نسائي. ميمي انضمت إلينا. فاتنة المعادي يا شباب ستعمل معنا في الخفاء. سنستغلها في خطط الخداع، لن تشارك في مناقشاتنا، لكنها ستلتزم بما يُعهد إليها من مهام.

بُهت الحاضرون، بينما رسمت الدهشة تعرجاتها على وجه «نجيب» الذي بدا غير مُصدق.

سأل «نجيب»:

هل وافقت على الم...؟

ولم يُكمل فقد أجاب «حسين» بصرامة:

نعم.



وتذكر تديين رائعين تقلبت شفتاه بينهما، ودار بخلده ذلك الشعور الطاغي بالانتصار وهو يقتحمها اقتحامًا، وأخرج عُلبة سجائره ليناول «محمد» واحدة قائلا:

أكمل خطتك.

تردد «محمد» قبل أن يقول:

آسف يا «حسين» ظننت أنَّك نسيتنا فكان لابد أن أذكرك.

ثم بنبرة حماسيةٍ:

نحن في مهمة وطنية، والأمور لا تقبل العبث، وعندما رأيناك شابكًا ذراعك بذراع «ميمي» غضبنا، خاصة أن «نجيب» كان يُراهن أنَّك لن تأتي موعد لقائنا.

لا عليك. لكن لابد أن تثقوا في.

قالها «حسين» بنبرة المنتصر المسيطر قبل أن يقود الجمع لخطة إحراق المعسكر الإنجليزي راسمًا تحركات



أفراد المجموعة على الخريطة الممدودة أمامهم. واصل تحديد أدوار كل فرد: «محمد»، «جول»، «سيد»، «مدحت»، و«سعيد»، قبل أن يطرق «عم عثمان» الباب، ليفتحه قليلًا مُبصرًا الكهل الأسمر مُضطربًا وهو يقول له:

يا حسين بك. البك الكبير يريدك. أعتقد أنَّ أحدًا وشى بكم. لقد زاره قبل قليل ضابط بملابس رسمية.

سأحضر.

ببرود أغلق الباب وواصل شرح خطته مُقررًا أنَّ موعد تنفيذ العملية سيكون في الثالثة صباحًا. نظر ل»سيد» وقال:

بحيرة من البنزين ستصبها حول سيارات النقل الموجودة خارج المعسكر، وسيمد «محمد» ثلاثة حبال مشبعة بالكيروسين من الشارع المجاور، وسيشعل «جول» النار عند الساعة صفر، بينما سأطلق أنا النار



على الجنود الفارين من النار وسيقود بنا «مدحت» سيارتنا ومعه «سعيد».

وافقوا في اعتزاز وكأنَّ مناورة «محمد» لم تُغيّر ثقة أحدهم في قيادة وزعامة «حسين» لهم، وربما فإنَّ «محمد» نفسه لم يُبد أي تشكك في تلك القيادة.

غادرهم «حسين» سريعًا ليمتص غضب والده الذي اعتاد على ضغوطه ووصفه الدائم له بالفشل. رمقه بنظرة مُجابهة شاعرًا بأنَّ ذلك الرجل المُهاب ذا الملامح القاسية يشعر بالضعف تجاهه. وقف أمام مكتبه دون أن ينبس حتى لاحظ والده وجوده فأشار له ليجلس. سأله «توفيق بك» عن أحواله، فأجاب ببروده المعتاد، ثُم سأله عن دراسته، فردّ بأنَّه بدأ استيعاب كثير من الدروس التي كان يستصعب استيعابها، وسأله عن أصدقائه وحالهم فأجاب إجابات هادئة قبل أن يُفاجئه والده سائلًا:

وكيف قتلتم العسكري آدمز ميكنزي؟



صعقته الكلمات. لقد عرفوا، وحددوا اسم القتيل، وتشككوا، وبعثوا بأحد رجالهم لجس نبض البك الكبير. لو كان لديهم دليل لما انتظروا عليه. نظر إلى دخان سيجار والده المُتصاعد في خط مُستقيم نحو سقف غرفة المكتب، وسرحت عيناه بصفوف الكُتب الناعسة فوق رفوف مكتبة كبيرة على يمين المكتب، وتذكر وجه العسكري الإنجليزي وهو ينتفض هلعًا وهُم يُرسلون به إلى الجحيم، ثُم لاحت في عينيه ذكرى شفتي «ميمي» وهي تئن تحته قبل ساعات. رسم «حسين» ابتسامة باهتة على وجهه قبل أن يقول لوالده في برود:

لم يستغرق الأمر سوى دقيقتين، ضربته بعصا الحديقة فوق رأسه بينما صفعه أصحابي على قفاه وركلوه في بطنه، ولكموه في وجهه، وخنقوه انتقامًا للشهيد عبدالحكم الجراحي.

مَن؟ عبدالحكم الجراحي. لقد مات منذ سنوات.



علَّق «توفيق بك» وعيناه تستعران غضبًا وغيظًا من برود ابنه. تذكَّر شيئًا ما ثُم قال ل»حسين»:

لقد قتلتموه بالرصاص. أين المُسدس؟

ابتسم صامتا للحظات قبل أن يُجيب:

في أعماق النيل. أعرف أنهم بعثوا لك مُحققًا ليستدرجك. لكن لا تقلق. لا يوجد دليل واحد.

وقام مستئذنًا بينما كان قلب والده يغلي من القلق. لا عليه، لكن منه.

***

«محمود يحيى مراد». عضو جديد، ضمه «حسين» إلى الجماعة بعد أن قرأ في عينيه حزنًا طاغيًا.

الحياة مملة وسخيفة ولا فائدة لها لأننا نموت في النهاية. هكذا قال «محمود» ل«حسين» ابن خاله عندما ذهب الأخير يُعزيه في وفاة والده.



نحنُ لا شيء. لا شيء يا أخي، مُجرد لحم يتدحرج فوق الأرض، رُبما يكبر أو يصغر، لكنَّه يزول، يفنى. يتلاشى.

كان «محمود» يتذكر مأساة والده الذي شارك قبل ثلاثة عقود في القصاص من «بطرس باشا غالي» وقُبض عليه فيمن قبض عليهم، وحوكم لكنَّه حصل على البراءة لعدم كفاية الأدلة مثلما جرى مع «توفيق بك». فيما بعد لم يتمكن من الحصول على وظيفة مناسبة وتشعبت به الحياة ليعمل مُثمنًا للتحف والأثاث، وهي مهنة كان يعيبها تذبذب الدخل، وعدم الاستقرار.

كان «محمود» يتخيل أنَّ رجال القلم السياسي سيطرقون بابهم في إحدى الليالي ليأخذوا معهم والده الصامت كثيرًا، والخائف دومًا، ليمنعوهم من قليل العيش الذي يوفره لهم. لا معاش له ولا علاج ولا حقوق لأبنائه من بعده، هذا ما عرفه «محمود» بعد وفاة والده المفاجئة في شتاء العام الثاني من العقد الخامس بالقرن العشرين.



على الفيلسوف «نيتشة» شبّ الفتى الهادئ ذو الملامح الخشنة والشارب الكث ليتعلق بأفكار التمرد ومخالفة الواقع وكسر المعقول. آمن معه بأنَّ الفنون والآداب اخترعها الإنسان للهروب من الحقيقة. وصار يردد كثيرا مقولته «العار العار العار، ذلك هو تاريخ الإنسان». كان يرى أنَّ التاريخ المصري سلسلة من الأكاذيب التي لفقها مؤرخو العرش ليصموا تافهين وخونة بصفات العزة والكبرياء. وعلى مسامع «حسين» وصحبته ردد «محمود» عبارة «نيتشة» الموجعة «يبيعنا بعض المؤرخين وكاتبي السير الذاتية أكاذيب مشروعة وقصصا ملفقة، ويحلو لنا أن نصدقها». وأمامهم هتف للمرة الأولى لاعنًا حزب الأغلبية وزعيمه الرجل المُبتسم زائغ النظرات الذي يعتبرونه وليًا من الأولياء.

في جلسةٍ خاصةٍ في حديقة منزل توفيق بك قال لأفراد الشلّة التي انضم إليها حديثًا:

إنَّ أخطر ما يجابه مصر الآن هو ذلك الاعتقاد بأنَّ هناك وطنيين من الباشاوات والزعماء. إنَّ هؤلاء الذين



وضعوا أكفهم في كف السفير «مايلز لامبسون» جلبوا لنا العار إلى الأبد، ولا حق لهم في قيادة الأمة.

مَن تقصد؟

سأله «محمد إبراهيم» فأجاب:

«النحاس باشا». هذا المُهرج الذي يسحر الناس ويخدرهم فيصدقونه ويقدسون كل قول وفعل له.

لمعت عينا «حسين» ونطق:

معك حق. النحاس نبيهم. قديسهم المزعوم. إنَّه يقودنا كنعاج نحو التسليم. لقد سمعت والدي يحكي عنه عندما كان رئيسا كيف وضع جميع أموال مصر وإمكاناتها وقدراتها تحت تصرف الإنجليز فور توقيعه اتفاقية الصداقة.

لكنَّ الناس تريده وترى فيه خلاص مصر من استبداد القصر ومراوغة الإنجليز.



قالها «نجيب»، لكن نظرات استنكار وأدتها مبكرًا فلزم الصمت.

أشعل «محمد» سيجارة جاناكليس وفوجئ ب»حسين» يختطفها منه ليُدخنها فقال له:

خُذ واحدة ولا تختطف سيجارتي.

ابتسم «حسين» وهو يقول:

لقد صارت نادرة في زمن الحرب. أبحث عنها فلا أجدها.

دخل «جول» وفي يده لفّة سرعان ما فتحها لتبدو زجاجة ويسكي متوسطة، ثُم أخرج علبة سجاير ماركة ماسبيرو رويال وقال لهم:

معي مزاج الليلة. سنشرب نخب انتصارات الألمان.

لاحت مظاهر الدهشة على وجوه المجتمعين السبعة ثُم سأل «حسين»:



هل هناك أخبار؟

ابتسم «جول» وقال:

نعم. الجيش البريطاني تتقهقر في الصحراء الغربية بعد هزائم متلاحقة، وطلبة الجامعة يهتفون ضد بريطانيا والأحوال معقدة جدًا.

كيف عرفت؟ إنَّ الرقابة تمنع نشر أخبار الحرب في الصحف.

سأل «حسين» وهو يفتح الزجاجة، فقال «جول»:

خالي قال لي إنَّ الأوضاع ستنقلب قريبًا. أنتم تعرفون أنَّه كان يعمل في السفارة الألمانية. إنَّه يقول إنَّ هناك تعاونا بين فدائيين مصريين وضباط ألمان وطليان، والملك نفسه يحاول الاتصال بهم. وهناك أنباء حول قيام «حسين باشا رشدي» رئيس الوزراء بتقديم استقالته.

هاا. الخوف أن يأتوا بالنحاس باشا.



قالها «محمود مراد»، فشاركه «محمد» قائلًا:

سيفعلونها. لو توافق الملك والوفد فستخسر مصر فرصة حقيقية للتحرر من ديكتاتورية الزعامة وعبودية الاستعمار.

ومن قال لكم إنَّ الألمان أو الطليان سيمنحوننا الحرية؟

فاجأهم «نجيب» ساخرًا.

برقت عينا «حسين» وهو يقول:

لم تحتلنا ألمانيا الآن لنفكر في التحرر منها أو محاربتها. نحن نواجه الإنجليز، وعلينا أن نتوحد مع كل أعدائهم. والألمان عدو لهم، لذا يجب أن نساندهم، لكن كل الخوف من الخونة. الوفد والنحاس أخطر على الأمة من كلاب القصر وخدم الملك.

نفث «محمد» دخان سيجارته باحثا عن بعض الدفء في الشتاء القارس قبل أن يقول:



في يوم ما سيكون علينا التخلص من كُل هذه الوجوه المتحفية المسترخية. الذين يؤمنون بالدستور والقانون ويتخيلون أنَّ الاستقلال سيتحقق بالكلام والتفاوض. سيكون من المهم محو هؤلاء وإزاحتهم تماما من الوجود حتى لو كان الناس يُحبونهم ويقدّرونهم.

علّق «محمود» مُستشهدا بإحدى عبارات نيتشة:

من بين كُل ما كُتب، لا أحب سوى ما كتبه الإنسان بدمه.

صبّ «حسين» زجاجة الويسكي ليملأ كئوسًا صغيرة أخرجها من دولاب الغرفة، ثُم وضع كأسًا أمام كل فرد من الأفراد الستة ثُم قال ضاحكا:

عاش نيتشة.

ردَّد الجميع وهم يرفعون كئوسهم إلى السماء:

عاش نيتشة. عاش. عاش.



***

رسم القلق أخاديده في الوجه الشاب ذي القسمات الملكية، وبدا مُضطربًا وهو يُمسك بالورقة الممدودة من كف مُحدثه مُغمضًا عينًا وفاتحًا أخرى مخافة أن يقرأ ما يصدمه. كان الفتى الذي لم يمر على تسلمه حُكم أرض النيل خمس سنوات مسكونًا بهواجس إقصاء ابن عمه «عباس حلمي» من سُدة الحُكم سنة 1914 ليتيه في بلاد اللّه ممنوعًا من دخول البلاد، ومُنكرا هُنا وهُناك. اعتبر المليك أنَّ ملامح السير «مايلز لامبسون» الصارمة ونظراته الاستعلائية التي طالعته فور دخوله القصر تصفع سلطانه وكرامته كأحد أبناء العائلة العلوية، وقال لنفسه إنَّه حتى ذلك العجوز الماكر ذي العينين العميقتين والذي يُشرف على جميع سياساته بدا مُنزعجًا من حديث «لامسبون» الجاف. إنَّ «أحمد باشا حسنين» داهية القصر والكشاف المُضيء لدهاليز السياسة المصرية المُعتمة يبدو لأول مرة مُهتزًا خائفًا من عواقب وخيمة. وجهه النحيل وجبهته التي هوت المغامرات سنين طوالًا، وعيناه



المُدققتان والمُتشككتان في كُل شيء، الآن لا شيء. ما له سكن كشبح؟ قالها الملك «فاروق» لنفسه مُتذكرًا دس حسنين باشا لدى الشيخ «محمود المراغي» شيخ الأزهر لتحريض الطلبة على التظاهر تبشيرًا بانتصار قوات المحور، وخلص إلى أنَّه أخطأ بموافقته على خطة «حسنين» للتخلص من «حسين باشا سري».

قرأت عيناه المُذكرة المُقدمة من «مايلز لامبسون» ذلك الثعلب ميت القلب الذي يقترن بفاتنة تصغره بعقود، لتصدمه الكلمات غير مُصدق نبرة الوعيد والازدراء. مرّ مرورًا سريعا على المُذكرة التي شاركه قراءتها أحمد باشا حسنين، والذي حاول قبل دقائق منع دخول الجنرال ستون قائد القوات البريطانية مع السفير لكنَّه فشل تحت قصف نظراته المتوعدة.

«لقد كان واضحًا منذ زمن طويل أنَّ جلالتك قد تأثرت بمجموعة المستشارين المحيطين بك، الذين لم يكونوا مخلصين فقط بالنسبة للتحالف مع بريطانيا، بل أكثر من هذا أنهم يعملون ضد هذا التحالف، ومن ثم فإنَّهم يساعدون العدو. ولاشك أنَّ تعاون وتشجيع جلالتك



لهم يناقض المادة الخامسة من معاهدة التحالف، التي بمقتضاها تتعهد كل الأحزاب المتعاهدة بألا يتخذوا موقفًا معاديًا بالنسبة للبلاد الأجنبية، ويكون متعارضًا مع الحلف.

بالإضافة إلى ذلك فإنَّ جلالتك أحدثت أزمة خطيرة بطريقة طائشة وغير ضرورية كرد فعل للقرار الذي اتخذته الحكومة المصرية السابقة استجابة للطلب الذي تقدمت به إنجلترا والذي نصَّت عليه المادة الخامسة من المعاهدة.

وفى النهاية فإنَّ كل المحاولات التي جرت لتشكيل حكومة ائتلافية قد باءت بالفشل، إذ رفضتم أن تعهدوا بأمر تشكيل الحكومة إلى زعيم حزب الأغلبية في البلاد على الرغم من أنَّه يتمتع بمكانة خاصة تجعله قادرًا على ضمان استمرار تطبيق المعاهدة بروح الصداقة كما يجب.

ومثل هذا التهور والطيش، وعدم تقدير المسئولية يعرض أمن وأمان مصر للخطر وكذلك القوات الحليفة



الموجودة بالعاصمة، ويؤكد الجميع أنَّ جلالتك لم تعد جديرًا باستمرارك على العرش».

بلع صاحب الوجه المُضيء المُربع ريقه ومعه كلمات التوبيخ والسخرية، مُتخيلًا مجموعة من الأفندية المصريين يتوسطهم خصمه اللدود «مصطفى باشا النحاس» يدوسون فوق رأسه. لاحظ بطرف عين تنكمش أسفل حاجب رفيع نظرات وجل مُنبعثة من عيني رئيس ديوانه ومسددة نحو القائد البريطاني وأخرى نحو النافذة ليشهد دبابات بريطانيا وجنودها حول القصر. أي كرامة لملك مجبور وخائف في وطن يعشق أهله السخرية ويدمنون التنكيت حتى على أنفسهم! قالها لنفسه ذابحًا بقايا كبرياء اشتمها داخله.

تذكر الساعات الفائتة بعد أن جمع باشاوات مصر وكبراءها لمناقشة إنذار السفير البريطاني شديد اللهجة الذي قال «ما لم أسمع قبل الساعة السادسة مساء اليوم بأنَّه تم تكليف «النحاس» بتشكيل الحكومة، فإن جلالة الملك عليه أن يتحمل العواقب». كان «النحاس» باشا بوجهه الصوفي وعينيه الزائغتين



وحيدا وسط تأويلات خصومه الذين رموه بنظرات اتهام ردها بقسوة وقوة، مؤكدًا أنه لا يعرف شيئًا عن الإنذار البريطاني وأنَّه يرفضه تمامًا، وحاول «أحمد باشا ماهر» ترجيح فكرة تشكيل وزارة قومية يترأسها «النحاس»، لكن بدا السياسي المخضرم واعيًا تمامًا أنَّه يقف على أرض صلبة، فأصرَّ أنَّه لن يؤلف إلا وزارة وفدية، وتاهت المناقشات ولم يتم التوصل لحل، سوى اتفاق باشاوات مصر على رفض الإنذار البريطاني والاحتجاج عليه.

قال الملك «فاروق» بعصبية زائدة:

وماذا بعد؟

مدّ السير «مايلز لامبسون» بابتسامة باهتة ورقة أخرى كان واضحًا أنَّها الحُكم النهائي على الملك الذي حاول التصرف كما علمه مُعلمه ومستشاره «أحمد باشا حسنين» باعتباره حاكما واسع السلطات. قرأ الملك بعينين ذبيحتين وثيقة التنازل عن العرش. كانت كل



كلمة بمثابة سكين بارد يقطع لحمه ويزدرد دماءه قطرة قطرة.

«نحن فاروق ملك مصر، تقديرًا منا دومًا لمصالح دولتنا، فإني بموجب هذا أتخلى وأتنازل بالنيابة عن أنفسنا وورثتي عن عرش مملكة مصر، وعن جميع حقوق السيادة والامتيازات والصلاحيات في المملكة المذكورة وبشأن رعاياها، وأننا نعفي رعايانا من ولائهم لشخصنا». صدر في عابدين في الرابع من فبراير 1942.

أمسك القلم ولامس بسنه المُدبب وثيقة التنازل، وسأل اللّه بقدر إحسانه وعطفه على عجائز الطهاة والخدم بقصر عابدين أن يُخلصه من لامبسون وستون فتنشق بهما الأرض كقارون، وتذكر النحاس باشا فضمه للأمنية، ثُم تذكر أمين باشا عثمان ذلك الجسر الممتد بين الوفد والإنجليز فأضافه هو الآخر. ثُم استجمع كل تصوراته عن الشجاعة وقرر التوقيع، لكنَّه سمع كلمات هامسة من رئيس الديوان خمّن أنّها كلمتي «فرصة



أخرى»، فتمالك نفسه وقتل نبض قلبه المُتسارع، وقال للسفير بإنجليزية مُتقنة:

هل يمكن أن تمنحني يا سيادة السفير فرصة أخرى؟

هزَّ السفير رأسه باندهاش، وتبادل مع القائد العسكري «ستون» نظرات ذات مغزى ثُم سأل في برود:

ماذا تنتوي أن تفعل؟

منع الملك دمعتين ساخنتين كادتا تدفقان من محجريه وقال:

سأكلف النحاس باشا فورًا بتشكيل الوزارة.

دون تدخل.

قالها السفير، فردد الملك:

دون تدخل.

خرج السفير «مايلز» مبتسما وإلى جواره الجنرال «ستون»، وخلفهما جرى «أحمد باشا حسنين» وهو يُكرر رجاءه بضرورة سحب الدبابات المحاصرة بسرعة حفاظًا على ماء وجه الملك.

دقائق قليلة مسح خلالها الملك الشاب دموعه، ثُم أشعل سيجارًا، قبل أن يستقبل زعماء مصر مرة أخرى. وقفوا متوجسين بينما بدا النحاس بينهم ثابتًا رابط الجأش كأسد جسور. حملق الملك في وجوه الزعماء بحضور رئيس الديوان ثم قال لهم:

اعتبروا ما دار بيننا كأن لم يكن.

سرت همهمات بين الحاضرين، لكن الملك ركَّز نظره على «النحاس باشا» بعينين فاضتا غيظًا وقال:

وأنا أكلفك يا باشا بتشكيل الوزارة.

ثار الغضب في وجه أحمد باشا ماهر، بينما مصمص «إسماعيل باشا صدقي» شفتيه، وخبط «عبدالفتاح باشا يحيى» كفًا بأخرى، وران الامتعاض على وجه



«محمد باشا هيكل»، ونظر «أحمد باشا زيور» بضيق إلى «النحاس»، الذي وقف فجأة، وقال بثبات موجهًا حديثه للملك:

وأنا أرفض يا جلالة الملك.

ترفض يا باشا؟

قالها الملك غاضبًا فرد النحاس:

أعتذر عن قبول التكليف.

حطّت غربان الخوف بين عيني الملك مرة أخرى وتذكّر وثيقة التنازل ورأى ابن عمه الخديو عباس متنقلًا بين العواصم بلا وطن، فصاح:

لا يا دولة الباشا إنني أصر على تكليفك بالوزارة.

وقف أحمد ماهر وقال بصوت جهوري:

كنت أظن أنَّ النحاس باشا وهو كما يقول عن نفسه زعيم البلاد وصاحب معاهدة الشرف والاستقلال

يرفض تشكيل الوزارة، أما وقد قبلها فإني أعلن في حضرة مليك البلاد أنَّ النحاس باشا يتولى الحكم الليلة مستندًا إلى أسنَّة رماح الإنجليز.

لم يأبه «النحاس باشا» لوجود الملك وردَّ بصوت أعلى:

لست أنا الذي يستند إلى أسنَّة رماح الإنجليز.

كان يود أن يقول ل»أحمد ماهر» أنَّه سبق أن أنقذ رقبته من حبل المشنقة الذي فتله الإنجليز بعد ثورة 1919 للمسئولين عن الجهاز السري عندما ترافع دفاعًا عنه وعن صديقه محمود فهمي النقراشي، لكن صخب الاجتماع منعه. فعاد يقول:

أنتم الذين وصلتم بحال البلد إلى ما جرى.

ورمى نظراته نحو «أحمد ماهر» و«إسماعيل صدقي» و«أحمد حسنين»، لكن الملك قاطعه غاضبًا:

أنا آمرك يا باشا بتشكيل الوزارة.

آسف جلالتك لا يمكن.

هذا أمر ملكي.

وخرج الملك يجر خوفه وقلة حيلته وانفض الباشاوات واحدًا تلو الآخر، ومضى «أحمد باشا ماهر» ليُشهّر ب«النحاس باشا» ويتهمه بالتواطؤ والاتفاق مع الإنجليز للعودة لحكم مصر، وحكى ما دار، وما تصور، وما ظنَّ لكثيرين من أصدقائه. وكان «توفيق بك أحمد» واحدًا من هؤلاء، لذا لم يكن غريبًا أن يسمعه عارفوه يقول إنَّ «النحاس باشا» عاد إلى الحكم بدبابات الإنجليز.

يا لها من خيانة.

هتف «حسين توفيق» مُعلقًا على ما سمعه وحجبته الصحف عن الناس تنفيذًا لقرارات الرقابة.

***

دون طرق أو استئذان فتحت السيدة «سميرة» باب حجرة ابنيها لينتفض «حسين» من رقدته صائحًا:

ماما. أما كان أفضل أن تطرقي الباب؟

منحته نظرة عتاب صامتة، بينما غرّد عصفور صغير داخل قفصها الصدري، مُرددًا أنَّ الصغير كبُر وصار رجلًا. ابتسمت مُعتذرة وقالت:

آسفة يا حسين. لكنني أريدك لأمر مُهم.

ألقت نظرة على «سعيد» الجالس إلى مكتبه يقرأ كتابًا لم تعرف إن كان دراسيًا أم رواية مُترجمة استعارها من ابن خالته «نجيب» كما تعود، وأشارت ل»حسين» بعينها اليُمنى ليتبعها إلى غرفتها.

سار «حسين» مُتثاقلًا خلف الجسد العريض المائل للسمنة متوقعًا رسائل غير مُباشرة تنقلها له أمه عن والده. إنَّه يشعر بالصلابة والقوة عندما يقف أمام والده مُتناقشًا أو مُتهمًا، بينما ينكمش ضعفًا أمام



السيدة التركية ذات الحنان المُتكبر، تلك التي مازالت نظراتها إليه تُردد في سعادة كلمة «صغيري».

على سريرها المُستطيل ذي الأعمدة النحاسية جلس أمامها مُستعدًا بعقل منفتح وإجابات مُعدة سلفًا على أسئلة تتكرر. فكّر أنَّ والده ربما حكى لها ما نُقل له حول حوادث التعرض للعساكر الإنجليز أو إحراق سياراتهم، كما توقع أن تعيد السيدة الحنون فتح ملف الدراسة والمُذاكرة. ومن المؤكد أنَّها لن تُحدثه عن الفتيات بعد اطمئنانها أنَّه يلتقي بعضهن ويراقصهن كما أخبرها «نجيب». نظر لسيجارة رويال احتضنتها أصابعها قبل أن تنغرس بين شفتيها مُبديًا برودًا مبالغًا فيه تناسب مع ابتسامة مُصطنعة ارتسمت على وجهه.

سألته السيدة ذات الوجه المُشرب بالحُمرة في تحفز:

قُل لي يا حسين. ماذا تنتوي أن تكون؟

ذات الأسطوانة. ستعرُج على الدروس والمذاكرة والمستقبل. قالها سرًا قبل أن يُجيب:

قولي لي أنت. ماذا تُريدينني أن أكون؟

برقت عيناها فواصل:

طيار مثل أونكل سليم يطير فوق السحاب وينظر للجميع من علٍ؟ أم قائد عسكري مثل جدي إسماعيل باشا يخدم في الجيش العثماني ويُقدم حياته فداء لأمير المؤمنين؟ أم وكيل وزارة مثل بابا نال البكوية ويقترب من إنعام مولانا عليه بلقب الباشاوية؟

اغتمت وبان الوجل على وجهها، ثُم قالت:

كفى سُخرية من أهلك.

ردَّ مقاطعًا:

لست أسخر لكني أعرف أنك تريدينني أن أكررهم.

ليس شرطًا. من الممكن أن تكون طبيبًا ناجحًا يُداوي الناس وينظر إليه الجميع باحترام وتقدير، ومن الممكن أن تُصبح مُهندسًا يُنشئ الأبنية ويصمم



العمارات، أو مُحاسبًا كبيرًا تُدير أملاك والدك وتُنمي تجارة تمنعه الوظيفة من تنميتها، أو ربما تُريد أن تستكمل تعليمك في أوروبا لتصبح مؤهلًا لأي منصب مرموق.

غزا الغضب وجهه رويدًا فقال:

أين يا أمي. في لندن؟

وما لها لندن؟

بلد العدو، عاصمة القتلة، وأرض المُستعمرين.

إذن ادرس في فرنسا.

ابتسم ساخرًا قبل أن يقول:

البلد الذي يدك إخواننا في سوريا بالطيران دون رادع. فرنسا التي تذبح الأطفال في الجزائر وتغتصب النساء، فرنسا التي...

رفعت كفها احتجاجًا وقالت:



كفى يا حسين. لا عليك. ادرس في بلدك. لكن لابد أن تجتهد وتُخطط لمستقبلك. اترك الشغب ولهو الأطفال الذ...

لم تُكمل الكلام، حيث وقف حسين غاضبًا وقاطعها بصوتٍ عالٍ:

لعب أطفال؟ لهو؟ أنت لا تعرفين ما أفعل.

قالت بحسم:

أعرف.

ثُم أضافت:

لكن إشعال النار في معسكرات العساكر الإنجليز لا يخدم أحدًا. إنّها أفعال متهوّرة بلا مقابل. إنَّ والدك يحترق حسرةً كلما عرف بأفعالك أنت وأصحابك. يحترق صامتًا حتى لا ينكشف أمرك وتخسر مستقبلك.



وضع «حسين» يده في جيبه وسار في الغرفة ذهابًا وإيابًا وقال في توتر:

يصمت حتى لا ينكشف أمري ويخسر منصبه. أليس كذلك؟

ردَّت بعصبية مماثلة:

لا يا حسين. ضربك للعساكر في الشوارع المُظلمة لا يمكن أن يمر بسلام. الإنجليز لا يتركون ثأرًا وأبوك يُحبك ويخشى أن يقسو عليك فيمنعك عن أصحابك أو يوقف مصروفك. أنت لا تعرف كم يُحبك.

مضت ساردة ما عرفه أبوه من صديق يعمل بالأمن العام بأنَّ هُناك جماعة من الأولاد صغار السن يخربون سيارات الإنجليز ويحرقونها ويعتدون على بعض العساكر في المعادي، وأنَّ مُخبرًا راقبهم ورآهم يدخلون إلى حديقة منزله، فقدم إليه ليُحذره.

اقتربت منه لتضع يدها على خدِّه وقالت:



أرجوك يا حسين. لا تحرق قلبي وقلب أبيك عليك. أنت رجُلي وسندي بعد والدك. أرجوك اشغل نفسك بالموسيقى. ادخل السينما وصادق الفتيات، العب كرة، واهتم بدروسك.

سكنت خلاياه قليلًا وشعر بضعفه أمام أمه فقال:

حاضر يا أمي. لن أرتكب أي أفعال خطر مرة أخرى.

تعدني.

هزَّ رأسه في تسليم وقال:

أعدك.

برقت عيناها وقالت له وهي تمسح على شعره:

إذن. أعطني المُسدس.

أي مُسدس؟

ابتسمت قليلًا وكررت:



أعطنى المُسدس يا حسين. نحن نعلم أن معك مسدسًا.

هزَّ رأسه في برود، وقال لها:

حاضر.

في المساء جلس في محل جروبي بوسط القاهرة يحتسي البيرة الباردة مع فتاته المُنبهرة دائمًا ببطولاته عندما سألته بعد أن قصَّ عليها حديثه مع أمه:

هل أعطيتها المُسدس؟

ابتسم وقال:

طبعا يا ميمي.

وأضاف مُفصلًا:

أعطيتها مُسدسًا خربًا احتال أحد البوابين وباعه ل»محمد« الشهر الماضي.

ضحكت «ميمي» وقرصته في خده الذي اتخذ ملمسًا خشنًا قبل أن تقول بنبرة رضا:

أنت داهية.

ودلق كوبًا مُمتلئًا بالبيرة في جوفه، وقال:

في صحتك.

***

في مكتبه بوزارة الداخلية جلس اليوزباشي «محمد إبراهيم إمام» يُراجع تقريرًا وصله من وكيل الوزارة عن حوادث مُقلقة وغامضة في أماكن متفرقة من أنحاء البلاد، التي صارت غاصة بالمشاغبين والناقمين بعد حصار الدبابات لقصر عابدين.

كان وجهه رائقًا وعيناه ناعستين من كثرة القراءة وبدا وجهه النحيل ممصوصًا من طول السهر، وهو يُقلب بأصابع طويلة أوراق التقرير المُقلق الذي يستثير فئران الرغبة في البحث والاستقصاء لمعرفة قتلة



سريين أو مُجرمين غير مُسجلين. ورغم سمته الهادئ وابتسامته المُضيئة كان يعتبر أنَّ مسألة حفظ الأمن وحماية الأرواح مُهمة مُقدسة غير مُلتفتٍ لمبررات غضب وطني نتيجة قهر سلطوي يُمارسه الاحتلال البريطاني في مصر. ناقش الرجل نفسه من قبل مرارًا وخلُص إلى أنَّه خادم للأمن أيا كان المستفيد به، ومُطارد للعُنف أيًا كان مصدره أو اتجاهه. وعلى مدى سنوات تنقل فيها اليوزباشي الشاب بين قطاعات عديدة بالبوليس وجد نفسه مُنفصلًا عن جميع الأحزاب السياسية القائمة، ومُتصلًا في الوقت ذاته بجميع الزعماء وأصحاب التوجهات بصلات تعاون بما يُحقق الشأن العام.

كان التقرير المعروض عليه قد استعرض أنشطة لجماعات وأفراد معادين للأمن العام بما يُشكل خطرًا لا يجب اتساعه. وذكر التقرير أنَّ حوادث موت مُريب شهدتها منطقة الزيتون لعساكر إنجليز كانوا يسيرون في الشوارع ثُم يسقطون صرعى دون سبب، وبعد تشريح جثامينهم اتضح قيام أشخاص ما بشكهم



بدبابيس صغيرة مغموسة في السم وهُم يمرون إلى جوارهم، ثُم يعتذرون في أدب حتى تسري السموم في شرايين الضحايا. ورجح التقرير أن يكون مدبرو الحوادث ضُباطًا بالجيش من أولئك الذين يحملون مشاعر كراهية وعداء شديد تجاه الإنجليز، وبعضهم تم فصله من الخدمة في الشهور الأخيرة بسبب شبهات حول اتصالهم بقوات المحور. وذكر التقرير كذلك أنَّ تكنات الجيش البريطاني بالإسكندرية تعرَّضت لسلسلة حرائق في ظل اشتعال معارك الصحراء في العلمين ويعتقد أن وراءها تنظيمًا سريًا متطرفًا مواليًا لحزب مصر الفتاة.

وثمة حوادث قتل مُريبة في أسيوط لبعض الموظفين الإنجليز في مديرية الأشغال، إذ لقي مهندس ري بريطاني مصرعه بعد أن أطلق عليه مجهول ثلاث رصاصات في جنح الليل، وبعدها بأسبوع واحد وُجدت جُثة طافية لمهندس أيرلندي في نهر النيل مات طعنًا بسكين حاد، وأغلب الظن أنَّ مجموعة من



الشباب المتطرف تحاول استغلال الغضب الشعبي للفت الأنظار.

ووقفت عينا اليوزباشي «إبراهيم إمام» عند حكاية اعتداءات المعادي، حيث تم العثورعلى جثة أومباشي بريطاني مصابة بطلق ناري وعدة ضربات في الرأس والظهر، وبعدها عُثر على جُثة الأومباشي «يونج» مصابة بضربات وكسور في الرأس وطعنات بآلة حادة في العُنق والبطن. ثُم تعرّض الأومباشي «ميللر» لإطلاق نار من سيارة مُسرعة في جنح الظلام لتُصيبه طلقتان في الكتف اليمنى دون أن يتعرف على مُطلق النيران. ويُعتقد أنَّ تلك الحوادث مُتصلة بحوادث أخرى شهدها الحي الهادئ خلال السنوات الثلاث الماضية تمثلت في إحراق سيارات نقل تابعة لمعسكر القوات البريطانية، فضلا عن إشعال النار في نادي الضباط بالمعادي. وتفيد المصادر أنَّ وراء تلك الاعتداءات مجموعة من الشباب المرتبطين بحركة مصر الفتاة.



وتابع اليوزباشي في التقرير نفسه توصية بنقل الضابطين «أحمد فؤاد صادق» و«محمد كامل الرحماني» لميولهما مع دول المحور إلى الصعيد، فضلًا عن التوصية بإبعاد الضابط «محمد أنور السادات» تماما عن الجيش لتكرار اتصاله بالجواسيس الألمان.

قطع حبل أفكاره دخول العسكري المناوب سائلًا في لُطفٍ شديدٍ إن كان يأمر بشيء ما. نظر بهدوء إلى سجائره والتقط واحدة أشعلها بولاعته الروبنسون التي أهداها له حكمدار العاصمة لتميزه في العمل وقال له:

نعم. قهوة سادة.

تمام يا أفندم.

ردَّ العسكري، ليعود اليوزباشي لأفكاره حول تطورات الأوضاع الأمنية في مصر عقب حادث الرابع من فبراير في العام الفائت.



كانت مصر قد تابعت باهتمام بالغ على مدى عام كامل كيف انقلب تقهقر القوات البريطانية أمام قوات المحور في العلمين إلى انتصارات مُتتالية بفضل حنكة ودهاء القائد البريطاني المارشال مونتجمري، وزاغت قلوب عديدة حسرة على انفلات حُلم التحرر من الاحتلال البريطاني حال هزيمة بريطانيا في الحرب، وفاض الغيظ أنهارًا في نفوس الوطنيين المحسوبين على بعض الأحزاب مثل حزب مصر الفتاة، بينما كان حزب الأغلبية واضحًا ومعتدلًا في موقفه بأن مصلحة مصر تكمن في وفائها بالتزامات معاهدة الصداقة الموقعة سنة 1936. أما جماعة الإخوان المسلمين فلم يكن لها موقف واضح.

قال اليوزباشي «إبراهيم إمام» لنفسه إنَّه على يقين من وجود تنظيم سري خاص مُسلح لجماعة الإخوان المسلمين، لكنَّه على ثقة من أنَّ هذا التنظيم لا يستهدف بأي حال جيش الاحتلال البريطاني، وإنَّه سيظهر يومًا ما لحسم مواقف واستغلال فرص.

وفكر الرجل ذو الجبهة العريضة والأنف الطويل والقسمات الهادئة أنَّ الأيام القادمة ستحمل كثيرًا من الأحداث الخطيرة، التي ستكتبها كُتب وأقلام وصحف ويرويها جيل بعد آخر.

***

اتسع التنظيم بأسرع مما توقعوا. كان من الواضح أنَّ الشاب الصامت الخجول «محمود يحيى مراد» يُفكر بذهن مُتقد في الغد. ويبدو أنَّ غرامه بالرياضيات وبالهندسة دفعه لوضع حسابات دقيقة حول مستقبل التنظيم، ما خطواته القادمة؟ وما آليات اتخاذ القرارات فيه؟ وكيف يؤمن ذاته من ضربات أمنية منتظرة في حال سقوط أحد أفراد التنظيم؟ وقبل كُل ذلك ما توجهات التنظيم فكريًا؟ لقد كان في حيرة من التباين الواسع في أفكار ورؤى أفراد الشلة حول الدين والعلم والحياة. لقد كان البعض صوفيًا زاهدًا، بينما كان آخرون مسرفين وعبثيين، وبين أفراد المجموعة كان هناك المنفتح، اللاهي، وهناك أيضًا الخجول،



المُنغلق. كان هُناك من هو مُثقف ومُطلع، وكان هُناك مَن هو لا يقرأ كلمة.

بعد شهور قليلة من انخراط «محمود يحيى مراد» مع «حسين» وأصحابه في عمليات الاعتداء على الإنجليز ومنشآتهم وسياراتهم شعر بضرورة السيطرة على دفة التوجيه لتلك المجموعة، خاصة أنها قد تنفلت في بعض الأحيان بسبب تهور رأسها. ولاشك أن ابن عائلة مُراد كان يعلم يقينًا أنَّ كفة القيادة تميل دائمًا ل«حسين توفيق» بسبب جرأته وقدرته على التأثير في «جول» و«سعيد» و«مدحت»، فضلًا عن رضا ابن خالته «محمد إبراهيم» عنه وموافقته له في معظم الآراء. ولم يكُن هناك بديل سوى ضم أعضاء جدد بهدف انتزاع القيادة من الشاب الطائش الذي كاد على ظن «محمود» أن يوقع بهم أكثر من مرة بسبب خططه الساذجة واندفاعاته غير المدروسة.

فى جلسة احتضنتها غرفة «محمود مراد» بمنزله وضمت أفراد التنظيم، طرح طالب كلية الهندسة بذكاء ضرورة توسيع الجماعة، وضم أعضاء جُدد لديهم قدرة

على التخطيط باحترافية والتحلي بالذكاء والبرود لتنمية أعمال التنظيم وصولًا لفكرة الثورة الشاملة كهدف نهائي. كان حسين يومها يسعل بشدة نتيجة إصابته بدور برد شديد، وهو ما جعله على الرغم من تناوله قرص بولمونكس الفعَّال ضد نزلات البرد أقل احتمالًا لمناقشات طويلة مع أفراد الجماعة، لكن طرح ابن عمته أثار لديه شكوكا بمحاولة الإقصاء أو السيطرة، لذا فقد سأل بدهاء عن الحقل الآمن لاستقطاب أعضاء جدد، ليفاجأ بإجابة محمود القاطعة:

كلية الهندسة.

استشعر «حسين» بجدية وثبة للسيطرة من جانب ابن عمته المنضم حديثًا، فسأل في برود:

ولِمَ كلية الهندسة تحديدًا؟

فأجاب المسئول قائلًا:

أولًا لأنَّها تضم أناسًا أذكياء بالضرورة، فلا يدخل الكلية شخص غبي أو تافه. ثانيًا لأنني هُناك وأعرف



مجموعة من الشباب الوطني الباحث عن قاعدة انطلاق لخدمة الوطن، وثالثًا لأنَّه من اليسير ضم مجموعة متآلفة معًا بدلًا من ضم عناصر متفرقة من الشرق والغرب.

لم يُبد المجتمعون اعتراضًا، لذا فقد فاجأهم «محمود» في اجتماع تال، شهده منزله أيضا بضم ولد أسمر من أصل صعيدي يُدعى «كريم القناوي»، وآخر سمين وضاحك على الدوام يُدعى «عباس مُرشدي»، وثالث جسور إلى أبعد مدى ولا يكترث لخطر اسمه «محمد خليفة»، ورابع قوي البُنيان، ثابت الخطوات هو «محمد الشافعي». وردّ «سيد» بعد ذلك ربما بتحريض من «حسين» بضم أحد أصدقائه من ذوي الأصول البدوية المُتحمسين للعمل الفدائي تميز بضخامة الجثة والشجاعة الفائقة يُدعى «محجوب»، وآخر مُدرسًا يرتدي طربوشًا ويتحدث بلغة عربية فُصحى ويتقدم في السن قليلًا عن باقي أفراد المجموعة هو «عبدالهادي أفندي مسعود». كذلك فقد ضم «حسين» نفسه مُدرسًا آخر هو «عمر أبو يعلى».



وكان لابد مع اتساع التنظيم من اختيار قيادة واضحة ومعلنة، لذا فقد اجتمع الشباب في منزل «عبدالهادي مسعود» بمنطقة الظاهر، واتفقوا على وضع اسم للجماعة هو «أبناء النيل»، ثُم اتفقوا بعد ذلك على اعتبار قتل الإنجليز والإضرار بممتلكاتهم الهدف الأسمى للجماعة، ثُم بدأوا مُناقشاتهم لاختيار رئيس لهم، فقال «حسين» مُقترحًا:

أرى أن يكون الاقتراع سريا ويكتب كل واحد اسم مَن يريده رئيسًا في ورقة ثُم نفتح الورق كُله.

رانت حالة من الصمت على الحضور، قطعها «محمد إبراهيم كامل» عندما أخرج علبة سجائر وزَّع منها على المشاركين كافة في الاجتماع عدا «عمر أبو يعلى» و«سعيد توفيق»، اللذين لا يدخنان، وقال في حزم:

ولِمَ نُجري اقتراعًا سريًا؟ هل نخاف أو نُحرج من بعضنا بعضا؟ علينا أن نُحدد الآن مَن يُريد الترشح ثُم نُصوِّت عليه.



قال «عبدالهادي أفندي» بعد أن خلع طربوشه ومسح بمنديل أبيض ناصية رأسه:

أنا أعتقد بخبرتي السابقة في حزب مصر الفتاة أن نختار أولًا مجلسا استشاريا للمجموعة يتكون من خمسة أفراد تكون مهمتهم اتخاذ القرارات المصيرية على أن يختار الخمسة فيما بينهم واحدًا يترأس المجموعة، وأن نتفق على عدم تنفيذ أي قرار لا يحظى بموافقة أعضاء المجلس الاستشاري كافة.

فكرة سديدة وعملية.

علّق «محمود مراد»، ناظرًا إلى «عبدالهادي أفندي» بنظرة ذات مغزى قبل أن يقرر:

أنا شخصيًا أترشح للمجلس الاستشاري.

وأنا أيضًا.

قالها «محمد إبراهيم» فكرر «حسين» في حزم:

وأنا أيضًا.

ابتسم «نجيب» الذي لاحظ عصبية بادية على وجه «حسين»، فقال:

إذًا حُلَّت القضية. لدينا محمود ومحمد إبراهيم وحسين، وأرى أن نضم إليهم عبدالهادي أفندي باعتباره أكبر الأعضاء سنًا، وأن نضم لهم محجوب باعتباره ممثلًا للبدو، وقادرًا على جلب السلاح بسهولة للجماعة.

موافق.

قالها «حسين»، فردد باقي الحضور كلمات الموافقة، قبل أن يستطرد «نجيب»:

وأرى وقد انتهينا من تشكيل المجلس الاستشاري أن يتم اختيار «عبدالهادي أفندي» بحكم عمله السياسي السابق وبحكم أنَّه الأكبر سنًا رئيسًا للجماعة.

أشكرك على ثقتك.



قالها «عبدالهادي أفندي»، فبارك بعض الحاضرين ليشعر «حسين» بحجر صلت أسقطه ابن خالته «نجيب» فوق رأسه من علٍ. طعنة لم يتوقعها، وتطور لم ينتظره، ونظرات شماتة لم يقرأها من قبل في عيني ابن خالته.

حاول «حسين» أن يبدو مُتماسكًا وموافقًا لرأي الأغلبية الذي أقصاه واختار عضوًا جديدًا في محل القيادة، أمّن على الاختيار بهزّ رأسه تسليمًا ثُم قال للقائد الجديد:

قُل لي يا عبدالهادي أفندي باعتبارك عضوًا عاملًا في حزب مصر الفتاة. هل يختلف أحمد حسين كثيرًا عن مصطفى النحاس ومحمود فهمي النقراشي؟

هزَّ المسئول رأسه يمينًا ويسارًا وقال في صراحة:

إطلاقًا. أحمد حسين مُخادع وتاجر كلمات فقط. والنحاس لا يريد من الحياة سوى لقب الزعيم الجليل.

وحسن البنا؟



سأله «عمر أبو يعلى» فأجاب مبْتسمًا:

راسبوتين الشرق. نصاب يحفظ كتاب اللّٰه.

ثُم قال كمن يوجه تلاميذه:

أفضل شيء لنا أن نكون مُستقلين عن كُل هؤلاء المُخادعين. لو نظرتم إلى الوفد ستجدونه لا يبحث عن شيء سوى السُلطة حتى لو كانت عبر جسور دولة الاحتلال، ولو تابعتم الإخوان ستجدونهم يعبدون قادتهم ويقدِّسونهم أكثر مما يقدِّسون نبي الإسلام، أما الشيوعيون فهُم مجموعة من السُذج الذين يتخيلون أنهم قادرون على إشعال الثورة من خلال المنشورات التافهة التي يوزعونها. أعتقد أنه لا خلاص دون سلاح، ولا تقدم دون تضحية، واستعداد حقيقي لخوض غمار الخطر.

خطيب بارع. علَّق «حسين» دون صوت، بينما ابتسم محمود يحيى مُعتقدًا أنَّ التنظيم الذي كان يطمح



لقيادته اختطف من شخص خارج دائرة التوقعات.
ابتسم مُتحفزًا، وسأل الرئيس في اهتمام ظاهر:

والآن. ما المُهمة القادمة؟

برقت عينا «عبدالهادي أفندي» اهتمامًا وقال بنبرة تحدٍ:

سنسرق نُزل خُبراء وزارة الأشغال الإنجليز في مصر الجديدة.

نسرق؟

سأل «حسين»، فأجاب «عبدالهادي»:

نعم وبسرعة. نحن نحتاج أسلحة وما تدَّخرونه من مصروفكم لا يفي بشراء الأسلحة.

ثُم أضاف بحزم:

مفهوم؟



مفهوم.

قالها أكثر من واحد، قبل أن يستمعوا لخطة السطو على استراحة مُهندسي المياه الإنجليز، التي زارها «عبدالهادي» عدة مرات بصحبة أحد أقربائه العاملين في الري.

***

لم يكُن «عبدالهادي أفندي» يدري وهو يدلُف إلى بار بيلي بباب الشعرية أنَّ هُناك خُطى تتبعه. سار مُنتشيًا بالنجاح، وهو يُردد في سرّه بيت شعر طالما أحبه يقول «دعيني للغنى أسعى فإني.. رأيتُ الناسَ شرُهم الفقيرُ». جلس مكومًا جسدًا مُترهلًا بانت عليه السمنة على كرسي خشبي بسيط يختبئ تحت ترابيزة رخامية مُستطيلة، عندما ألقى عليه النادل تحية المساء واضعًا طبقين أحدهما من الترمس المُملح والآخر من الخيار المخلل أمامه. سأله النادل بعد أن منحه ابتسامة ترحيب مُعتادة إن كان يطلب مثل كل مرة كونياك، فجاءه الرد بالنفي مُرددًا:



ويسكي يا خواجة. ويسكي.

فُرجت، هكذا قال «عبدالهادي أفندي» في سره، وهو يتأمل نوافذ البار الزجاجية ذات الطراز الأوروبي مُشرعة من الداخل. ستتبدد أيام الشقاء وسترحل ليالي الحرمان، وستهنأ بما لم تنل رغم قدراتك ومهاراتك. أنت تستحق الصدارة والثراء. لقد خلقت للقيادة.

نظر «عبدالهادي أفندي» حوله للجالسين يمينًا ويسارًا يُدخنون في قرف ويشربون بيرة وكونياك ونبيذًا رديئًا يتناسب مع ثيابهم الرثة ووجوههم العابسة، مُقررًا أنَّ مثل هذا المكان لم يعُد يليق به بعد أن صار زعيمًا لأكبر مُنظمة سرية. قبلها وعلى مدى عشر سنوات تنقل بين حزب وآخر والتقى صنوفًا متناقضة من ذوي الأفكار السياسية، واختلط بُخطباء مفوهين، وعرف دُهاة وساسة وشعراء وصعاليك وظرفاء ومحتالين.

وضع النادل زجاجة ويسكي بلا لون أمامه وكوبًا مُلمعًا، صبّ فيه حتى آخره، قبل أن يقول:



أفضل ويسكي لعبدالهادي أفندي. سكوتش أيرلندي مُعتق.

شكرًا.

هزَّ رأسه، وهو يفكر كيف كانت سنوات الحرب صعبة، وكيف بقي بلا وظيفة لأكثر من عامين قبل أن يلتحق بمدرسة المُعلمين بالعياط راضيًا براتب هزيل لا يتجاوز ثلاثة جنيهات والنصف في الشهر، مرَّ بخاطره كيف عرف من جاره محجوب بأمر الجمعية التي تستهدف مقاومة الاحتلال والتي ينفق عليها شباب ثري يفيض بالحماس والجرأة. دلق كوبًا من الويسكي في جوفه فشعر بلسعة الشراب الساحر الذي حرمه الفقر منه سنين، وتذكر كيف نفذّ الأولاد عملية سرقة نُزل خبراء الري الإنجليز بمصر الجديدة دون ذرة خطر. لقد تحركوا كما رسم لهم تمامًا في الصباح الباكر، حيث قاموا بإلهاء الحارس من خلال دعوته للمشاركة في تغيير عجل سيارة يقودها محمد إبراهيم، وإلى جواره مدحت، عندما تسلل حسين ومحجوب ومحمود مراد وسعيد وسيد وكريم إلى



الداخل ليسرقوا دواليب المهندسين في خمس عشرة دقيقة فقط ويعودوا دون اشتباك. كانت حصيلة العملية خمسين جنيهًا وثلاثين قرشًا وثلاث زجاجات نبيذ، وساعة يد ماركة جيني وثلاثة أقلام حبر ماركة كروكسلي، وقلم حبر مونيمور، ودبوسًا ذهبيًا على هيئة علم بريطانيا وشفرات حلاقة جيليت وعلب أقراص اسبرو، واسبيول.

استطاع «عبدالهادي» إقناع أفراد التنظيم بضرورة منحه الغنائم حتى يتمكن من بيعها وشراء قنابل يدوية عن طريق أحد أقارب «محجوب» الذين يعملون في الإسماعيلية في خدمة الجيش البريطاني. قال لهم إن القنابل ضرورية لتنفيذ سلسلة من العمليات الفدائية خلال المرحلة القادمة. وقرر الرجل ذو الوجه العريض، والطربوش المُنتفخ أن يستمتع ولو لأيام قليلة بحياة عبث ولهو كان يحلُم بها لسنوات طويلة دون تحقيق تحت وطأة الفقر والعوز.

فكّر المُدرس العابث في زيارة ضرورية لعوامة ثُريا بإمبابة، حيث الراقصات البدينات اللائي عاش عمره

عاشقًا لهنَّ. كان يرى اهتزاز الخصر مُنشطًا للقلب وطاردًا لرائحة الحُزن منه. حدَّث نفسه بأنَّ الفاتنة تحية ذات العُنق الطويل والجسد الخمري الممشوق والعينين الوقحتين تستحق زجاجة كولونيا الشبراويشي هدية لها حتى يهنأ بأحضان دافئة وفراش مُشبع. شرب كوبًا آخر وردد مُترنمًا بأغنية «محلاها عيشة الفلاح» للمطربة المُبهرة أسمهان، بينما كانت هناك في ركن البار عينان صاحيتان تُتابعانه بترقب وغضب. قال صاحب العينين لنفسه «الويل للخونة يا عبدالهادي. ستموت». رددها بينما كان صوت «عبدالهادي» الغليظ يُردد في نشوة: «محلاها عيشة الفلاح.. متطمن قلبه مرتاح.. يتمرّغ على أرض براح.. والخيمة الزرقا ساتراه..».

شعر صاحب العينين الصاحيتين بالاستياء وتذكر نصيحة «محمد إبراهيم » و«حسين » و«مدحت» له بأن يسيطر على أعصابه، وتذكر أيضا مقولة معلمه الأول نيتشة القائلة «لا تمشِ في طريق من طرق



الحياة إلا ومعك سوط عزيمتك وإرادتك لتلهب به كل عقبة تعترض طريقك».

«خائن. خائن. خائن» رددها وهو يكبت مشاعر مُنفلتة تكاد تذبحه مُتذكرًا كيف بدأ سوس الشك ينخر قلوبهم بعد العملية مباشرة. أخبرهم «حسين» بأنَّ «عبدالهادي» سرقنا، وتأكدوا من محجوب عندما قال لهم بأنَّ الرئيس المختار لم يدفع نظير ثلاث قنابل سوى عشرة جنيهات، وأنَّه ماطله في دفع ثمن مسدسين جديدين جلبهما قبل يومين. وقتها قال حسين مُستعيدًا دور القائد المُحنّك:

ستُراقبه حتى يسقُط. لكن بهدوء.

قام المُكلف بالرقابة بكسل مُدعيًا السُكر وهو على يقين أنَّ «عبدالهادي أفندي مسعود» لن يشعر أن كُل تحركاته وأفعاله تحت رقابة تعلب صغير اسمه «محمود يحيى مراد». ثعلب يعلم أنَّ العُمر يستحق المُغامرة، وأنّ الكون بلا أخلاق. دفع الحساب مُعطيًا ظهره للأفندي، ومضى مُلتقطًا بأذنه بقايا الأغنية التي



غنتها أسمهان: «دي القعدة ويّا الخلان.. والقلب مزقطط فرحان.. تتاقلها بجنة رضوان.. يا هناه اللى الخل معاه».

وخرج «محمود» راميًا الرئيس المختار للتنظيم بنظرة وعيد.

***

في حجرة «عم عثمان الجنايني» جلسوا يتشاورون فيما سيفعلون مع «عبدالهادي أفندي مسعود». شرح «حسين» للحضور خطورة الوضع، وحكى «محمود مراد» كيف تابع الرجل، وهو يقوم بتبذير غنائم سرقة الإنجليز على الخمر والعاهرات، وشهد «محجوب» بمماطلة الأفندي في دفع ثمن المُسدسين الجديدين حتى اضطر للاستدانة من شقيقه الأكبر لسداد القيمة للبائع.

كانت العصبية بادية في حديث المُجتمعين العشرة والذين اتفقوا جميعًا في التدخين بشراهة، عندما قام «مدحت» مُشهرًا مُسدسه وهو يقول في جرأة:



سأقتله.

وكرر:

لا جزاء للخائن سوى القتل.

قتل؟

غمغم البعض، فأكد مرة أخرى:

نعم، ليس أمامنا حل سوى قتله.

ران صمت غريب تخللته نظرات مُتبادلة بين وجوه الحاضرين، وسرحت خيوط الدُخان في فضاء الحجرة راسمة قلقًا ظاهرًا، لم يلبث أن قطعه «حسين توفيق» قائلًا بثبات:

لا يا مدحت. لن نقتله.

استغربوا رأيه. كان ينبغي أن يكون أكثر حسمًا خاصة أنَّه انتزع منه القيادة. فكر «محمود مراد». ليس هذا مُعلم العُنف والمُبشر بالكراهية. ردَّد «سعيد» في سرّه،



وهو يتذكر كيف علمه قتل الخوف عندما خنق قطته. ماذا يريد بنا؟ سأل «محمد إبراهيم» نفسه ليجيبهم «حسين» وكأنَّه يسمعهم:

نحنُ لن نقتله لأنَّه لا يستحق القتل، بل هو يستحق بالطبع لأنه خائن. سرق أموال الوطن لحسابه وألقى بها تحت أفخاذ الراقصات والعاهرات. نحن لن نقتله لأن قتله قد يُسبب لنا مشكلات عديدة، أولاّ لأنَّ كثيرين رأوا بعضًا منا عندما كُنا نزوره في بيته، وثانيًا لأنَّه جار محجوب في السكن وقد تحوم الشكوك حول محجوب. وثالثًا لأنَّه شخص عبيط يسهل التخلص منه دون دماء.

أشرق وجه «محجوب »بطمأنينة الرضا، قبل أن يسأل مدحت:

وكيف سنتخلص منه دون قتل؟ لقد صرنا بالنسبة له كنزًا ثمينًا، بقرة حلوب تدر لبنًا. نحن ننفذ أوامره ثم يسطو على ما نأخذ، لذا لا أعتقد أنَّه سيفرّط فينا بسهولة.



فكر «محمد إبراهيم» قليلًا وقال:

معك حق. لابد أنَّه يرانا وقد تجاوز الثلاثين من عمره مُجرد مجموعة من الأولاد الأشقياء المُدللين الباحثين عن أي مغامرة. وربما يتصور أنه قادر على استغلالنا والتربح من حماسنا للوطن.

ردَّ «سيد» قائلًا:

أنا على استعداد لأخلصكم منه، خاصة أننى كنت وراء ضمه للتنظيم.

نفثّ «حسين» دُخان سيجارته بعصبية، ما لبث أن سيطر عليها مرة أخرى، وردَّ وهو ينطق كلماته كلمة كلمة:

قُلت لكم إننا لن نقتله.

وعلا صوته قليلًا، وهو يردد بنبرة لوم:



حاولوا أن تسمعوا ما أقوله لمرة واحدة. سنتخلص منه ببساطة شديدة، وللأبد، واليوم إن أردتم.

نقرت عصافير الدهشة فوق رؤوسهم، وانتظروا بشوق خطة «حسين».

كيف ذلك؟

سأل «محمود مراد» وأمامه ورقة وقلم يُشخبط به، فأجابه «حسين» الذي رانت على وجهه مرة أخرى سمات القيادة:

الموضوع ببساطة أننَّا سنعقد اليوم اجتماعًا للتنظيم في بيت عبدالهادي أفندي، وسيكون غرض الاجتماع مناقشة العملية القادمة والتي سيقترح أحدنا أن تكون سرقة مصرف الخواجة موصيري بوسط البلد. سأقدم أنا الخطة ومعها التفاصيل كاملة وسيرفضها محمد إبراهيم، ويعتبرها ساذجة، ثُم سيشتمه محمود مراد ويتهمه بالخيانة، وهُنا سيشهر مدحت مسدسه مُتوعدا محمود بالقتل إن كرر كلمة خيانة مرة أخرى، وسيقوم



سيد بتهديد الجميع بإبلاغ البوليس، في الوقت الذي سيطلب فيه محجوب حقه في العملية السابقة، وسيغادر كريم ومحمد خليفة والشافعي غاضبين، وسأعلن أنا وقتها حل التنظيم تمامًا، وسننفض وكأنَّ كُل شيء انتهى.

ابتسم «محجوب»، وصفَّق «محمد إبراهيم»، بينما قبّل «مدحت» رأس ابن خالته في امتنان ظاهر وهو يقول:

برافو.

دخل نجيب في الحديث رغم عدم اهتمامه في السابق قائلًا:

أهنئك يا حسين. لأول مرة تُفكر بوعي وتُخطط بحنكة. أنت تصلُح للقيادة. لقد أخطأنا جميعًا.

نعم.

كرر الحضور تأمينهم، وانفضوا سريعًا على موعد باللقاء ليلًا، بعد أن طلب «حسين» من «محجوب» أن يُخبر «عبدالهادي» أنَّهم سيمرون عليه في العاشرة مساء.

غادروا سُعداء، بينما جلس «حسين» يُفكر بجدية في مستقبل التنظيم. سينمو وسيكبر ويتولى قيادة الأمة بعد خلع الملك الطفل. رأى حُلمه مُتخيلًا مشانق منصوبة في ميدان الإسماعيلية يتدلى منها «إسماعيل صدقي»، «النقراشي»، و«أحمد ماهر»، و«أحمد حسين»، و«حسن البنا»، ثُم أضاف لهم «النحاس باشا».

صعدا غرفتهما، ليقول «سعيد « ل»حسين»:

سمعت ماما تقول لبابا إنَّها ستشتري لك كلبًا بوليسيًا هدية عيد ميلادك القادم. آمل ألا تقتله.

فرح «حسين» وظهر ذلك على وجهه، وقال لشقيقه:

لا تخف. سنستخدمه في نضالنا.



فكر سعيد قليلا، ثُم سأل:

هل تعتقد أنَّ والدنا يعرف ما نفعل؟

طبعًا.

كيف يسكت على ذلك؟

لأنَّه يعلم أننا على صواب، وأننا نكرر ما عجز هو عن تحقيقه. لقد كان مثلنا عندما كان في السن نفسها.

هزَّ «سعيد» رأسه قائلًا:

معقول. معقول.

في اللقاء المسائي جرت الخطة كما أراد «حسين»، وسرت الرعشة واضحة في جسد «عبدالهادي أفندي» عندما شهر «مدحت» مسدسه مُهددًا «محمود مراد» بأنه سيضربه بالرصاص إن كرر وصفه ل»محمد إبراهيم» بالخائن، وصاح في الشباب:

استهدوا بالله. يا شباب. كُلنا إخوة.



هبّ «سيد» واقفًا وهو يُردد بصوتٍ عالٍ:

أنا أرفض هذه الأعمال، سأبلغ البوليس عنكم.

وردَّ «حسين» بنظرات كُلها شرر قائلًا:

أنت تحفر قبرك بيديك.

وعلا صوته قائلًا:

سنقتلك إن خرجت كلمة مما نفعل أو نقول لأحد.

حاول «عبدالهادي» السيطرة على الوضع صارخًا:

كفى طيشًا. كفى هُراءً. كفى لعب عيال.

وقام «محمد إبراهيم» مُمسكًا بياقة قميصه صارخًا:

لسنا عيال يا هذا.

احترم رئاستي ل...

اخرس.



وفوجئ صاحب البيت ب«محجوب» يصرخ فيهم:

سأفارقكم. أعطوني حقي في العملية الأخيرة. لن أشارككم بعد الآن.

نظروا إلى «عبدالهادي»، فوجدوه مُضطربًا وهو يُكرر:

ستخسرون التنظيم، وستشمتون فيكم الإنجليز وأعوانهم من الخونة.

وقام كريم وخليفة والشافعي ومعهم مدحت وفتحوا الباب بُعنف مُتظاهرين بالغضب بعد أن ركلوا في طريقهم كُرسيًا ومنضدة صغيرة، وتبعهم حسين صائحًا:

اسمعوا كلكم. لن أقبل لعب الأطفال مرة أخرى. اعتبروا التنظيم حلَّ نفسه بنفسه. انتهى كُل ما بيننا كأن لم يكن.

انتظر.



هتف به «عبدالهادي» لكنَّه كان حاسمًا وحادًا، وخلفه غادر «محمد إبراهيم»، و«محمود مراد»، و«سيد»، و«سعيد» وهُم لا يُعيرون صاحب البيت أي اهتمام وهو يصرخ فيهم طالبًا الانتظار.

في الطريق وعلى بعد خطوات من المعبد اليهودي، قال «حسين» في هدوء يليق بسياسي مُنتصر:

انتهينا منه. شربها المُغفل.

نعم.

قالها محمد إبراهيم مُثنيًا، فكرر حسين:

دون أي دماء.

ومشوا فرحين ليحتفلوا بعيد ميلاد حسين التاسع عشر في جروبي.

***



أمطرت شوارع المعادي رصاصًا. غضبًا، غِلًا ضد كُل قلب أجنبي ينبُض على أرض الوطن، ذلك المسلوب والمصلوب ردحًا من الزمن، مُشتتًا بين صراعات الساسة والباشاوات، ومُدنسًا تحت ظل طفولة وعبث ملك ساذج لا يملك من أمره شيئًا. كان شباب المعادي كُلّه ناقمًا على تجول العساكر الإنجليز في الشوارع سُكارى كُل ليلة فرحًا بانقشاع خطر روميل ومن معه، وبين الشباب كان «حسين» ومن معه يصلون قتيلًا بآخر، ويتبعون ضحية بضحية باحترافية شديدة اكتسبوها نتيجة حُسن تدبيرهم وتماسكهم وتغيير سيناريوهاتهم باستمرار. وفي أوج النشاط ومع انخراط «كريم» و«خليفة» و«الشافعي» و«عمر» و«سيد» و«محجوب» في عمليات القنص عن بُعد شعر «حسين» برغبة شديدة في تطوير مجال العمليات ونقلها إلى مناطق متفرقة من العاصمة، خاصة بعد أن أبلغهم «عُمر أبو يعلى» مُدرس اللغة الفرنسية أنَّه علم من شقيقه ضابط البوليس أنَّ الإنجليز رصدوا ألف جنيه مكافأة لمن يُدلي عن معلومات حول القتلة السريين لعساكرها في المعادي.



كان «حسين» يرى أنَّ أبرز رد عملي على ذلك هو أن يتم تنفيذ سلسلة من عمليات القتل العشوائي بمناطق أخرى لتشتيت انتباه البوليس، لذا اختار هو بار ماتوسيان بباب اللوق لاصطياد ضحية جديدة، بينما قرر «محمود يحيى مراد» قتل أحد العساكر الإنجليز الخارجين من ملهى ليل القاهرة بشبرا، وذهب «محمد إبراهيم» إلى حُلوان للبحث عن فريسة، في حين تم تكليف «سيد» و«محجوب» و«مدحت» بإشعال النار في سيارات الجيش البريطاني في قليوب.

في باب اللوق وقف «حسين» لأكثر من ساعتين دخّن خلالها ثماني سجائر رويال مُنتظرًا ضحية مُناسبة حتى لمح ضابطًا أربعينيًا يميل إلى السمنة يخرُج من البار مُتثاقلًا، فتبعه في خفة، تاركًا مسافة عشر خطوات فاصلة. كان «حسين» قد تمرّس على إطلاق الرصاص على البطن مُباشرة باعتباره المكان الأسهل في الإصابة خلال حركة الجسم، خاصة بعد أن أثبتت له التجارب العملية أن التصويب على الرأس كثيرًا ما يخيب. نظر «حسين» في ساعته فلمحها تقترب من



الواحدة صباحًا ودارت عيناه في الشارع لتجده خاليًا إلا من شحاذ عجوز يجلس تحت أحد أعمدة الإنارة. قدر أنَّ الناصية القادمة هي الأنسب لإطلاق الرصاص نظرًا للعتمة الطاغية على المكان المحيط بالتقاطع. سعل الضابط الإنجليزي سعلتين مكتومتين وبدا مُطمئنًا تمامًا وهو يُدندن في خدر يُليق بيوم عُطلته الأسبوعية، عندما انسحبت كف «حسين» سريعًا من جاكتته مُمسكة بمُسدس أوتوماتيكي متطور، ثُم مدَّ خطواته بسرعة مُتجاوزًا الضابط ببضعة أمتار ليتوقف بعدها ويستدير مواجهًا ضحيته ليقرأ في عينيه هلعًا نادرًا قبل أن تضغط سبابته على زناد المسدس مُطلقًا على بطن فريسته رصاصتين مُتتاليتين ثم مانحًا بعدها ساقيه عنان الركض دون توقف.

من شارع لآخر توارى قبل أن يستقل تاكسيًا نحو منزل عُمر بالجيزة ليلتقي هناك مع زملائه، حيث أخبره «محمود» أنه نجح في إطلاق الرصاص على جنديين في شبرا لكنه يشك في موتهما، بينما قصّ «محمد إبراهيم» تجربته حيث تجوَّل عدة ساعات في شوارع



حلوان دون العثور على ضحية مُناسبة. أما المجموعة المُكلفة بإحراق سيارات قليوب فلم تعُد حتى الصباح مما أثار القلق بين أفراد التنظيم، وقرروا العودة إلى منازلهم مُنتظرين ما تُسفر عنه الساعات التالية.

فور عودته إلى البيت فوجئ «حسين» ب«عم عثمان الجنايني» مُخبره السري يقول له إن عسكريا من قسم البوليس جاء صباحًا وسأل عنه وطلب إبلاغه ضرورة الذهاب لمأمور القسم في الثانية عشرة. لم تمض دقائق على الخبر حتى دخل عليه «نجيب» ليخبره أن «مدحت» و«سيد» و«محجوب» قُبض عليهم ليلًا بقليوب وبحوزتهم مواد سريعة الاشتعال، وأنَّ والدته لا تعلم أي شيء حتى اللحظة.

امتص «حسين» ببرود قلق ابن خالته، وربت على كتفه قائلًا:

اذهب إلى عُمر الآن وأخبره. سيتصرف.

وأنت؟



سأله «نجيب» بغضب، فأجاب مُبتسمًا:

أنا مطلوب في قسم البوليس.

أطلَّ الخوف من عيني «نجيب» وسأل محاولًا تمالك أعصابه:

وأنت. ماذا ستفعل؟

لا تقلق.

وغادر «حسين» بعد أن سكب نصف زجاجة كولونيا فوق بذلته السوداء ومعه «عثمان الجنايني»، الذي سأله عن «سيد» فكرر كلمتي «لا تقلق». استقلا تاكسيًا إلى القسم وسخر قلبه من إيمان «عُثمان الجنايني» وهو يردد طيلة الطريق الدعاء بحق السيدة زينب أن تأتي العواقب سليمة. وصلا فسأل حسين عن المأمور، ثُم بُخطى واثقة دخل إلى مكتبه بعد إشارة من الشاويش ذي الجسد الضخم الذي استقبله فور دخوله. وجد أمامه شاربًا طويلًا مُتدليًا على فم غليظ

الشفتين مزروعًا في وجه مُربع غامق البشرة يُدخن بشراهة كمدخنة مصنع فحم. لمحه واقفًا فسأله:

من أنت؟

حسين توفيق.

رماه بنظرة مُتفحصة من أسفل لأعلى والعكس، ثُم سأل:

ماذا تُريد؟

ابتسم «حسين»، وجلس مُستفزًا مأمور القسم قبل أن يجيب:

أنا لا أريد شيئًا، لكن هُناك استدعاء لي.

تفرّس المأمور ذو الوجه المُتجهم في الولد الجالس أمامه وصاح فيه:

قُم. مَن سمح لك بالجلوس؟ أنت ابن توفيق بك محمد، أليس كذلك؟ لكن من الواضح أنك ولد مُشاغب.



وقف «حسين» صامتًا ليدفع السائل للتورط في سكب كُل ما لديه من أفكار ومعلومات.

أين كُنت في الواحدة صباح الأمس؟

سأله المأمور، فأجاب:

في فراشي.

في بيتكم؟ ممم. هل لديك شهود على ذلك؟

ابتسم «حسين» وقال بثقة:

طبعًا.

مَن؟

عم عثمان الجنايني وشقيقي سعيد.

ونظر للواقف على باب حجرة المأمور وقال:

ادخل يا عم عثمان.



دخل ذو الجلباب الأبيض، ليُقر بأنَّ «حسين بك» وصل البيت الثانية عشرة مساء وصعد إلى غرفته في البيت ولم يهبط منها إلا في السادسة صباحًا موعد تريُضه.

نظر المأمور بتشكك إلى «حسين» المُصمت من التعبيرات كلوح ثلج، وسأله:

أين والدك؟

في أسوان. في مهمة عمل.

واصل المأمور تدخينه الشره ثُم قال:

أبلغه سلامي وتحياتي. ولا تعبث في الشوارع ليلًا حتى لا تُثير الشبهات.

ثُم بحزم:

انصرف.

بعد عودتهما،عرف «حسين» من «سعيد» أنَّه لا توجد أي تُهم واضحة تم توجيهها إلى مدحت وسيد



ومحجوب، وأنَّه تم الإفراج عنهم عندما ذهب عُمر أبو يعلى لهم بعد أن اتصل بشقيقه الضابط ليتدخل مؤكدًا أنهم طلبة مجتهدون، وينتمون لعائلات محترمة، وسأل سعيد عن أخبار ضحايا الأمس، فأجاب:

الضابط الإنجليزي الذي ضربته أنت اسمه هتش ونقلوه إلى قصر العيني وحالته خطيرة جدًا، أما الجنديان اللذان ضربهما محمود مراد في شُبرا فلا توجد بشأنهما أي معلومات ولا توجد أنباء عن تعرض أحد لاعتداءات.

هل تعتقد أنه يخدعنا؟

سأل «حسين»، فأجابه شقيقه وكأنه ينتظر السؤال:

لا يا حسين. أعتقد أنَّه أطلق الرصاص في الهواء كما يفعل كُل مرة ثُم جرى.

وقف «سعيد» فجأة كمن تذكر شيئًا ثُم قال:



الغريب يا أخي أن هناك جنديين إنجليزيين قُتلا في صحراء العباسية قبل يومين.

وما الغريب في ذلك؟

سأل «حسين»، فأجاب «سعيد» بسؤال:

مَن قتلهما؟

ابتسم «حسين» وأراح ظهره على المقعد مُسترخيًا، وقال:

هُناك جمعيات عديدة مثلنا، وهُناك شباب وطني آخر يعمل بجد وفدائية في مقاومة الإنجليز.

ثُم قام مُتمشيًا في الغرفة قبل أن يسأل:

هل سمعت عن الحاج محمد؟

هزَّ «سعيد» رأسه بالنفي، فأخرج شقيقه سيجارة أشعلها بسرعة، وقال:



واحد من الأبطال السريين، اسمه محمد أنور السادات وكان ضابطًا بالجيش وعمل مع عزيز المصري قبل أن يطرده النحاس باشا، وسأقابله بعد غد.

عقدت الدهشة حاجبي سعيد، فسأل:

كيف عرفته؟ وأين ستقابله؟

حكى لي عنه عمر أبو يعلى، لأنَّه صديق شقيقه ضابط البوليس. وطلبت منه مقابلته، وأخبره، فحدد لي موعدا في محل آلامريكين بعماد الدين.

وسحب نفسًا طويلًا من سيجارته وزفره قائلًا:

هو شخص خطير جدًا، ومُهم لنا. سنستغله في الحصول على أسلحة ومعلومات تفصيلية عن العدو.

***

ساعة كاملة انتظر نصفها قبل الموعد المُحدد والنصف الآخر بعده ولا أحد بان. الْتهمه الملل وافترسته علبة سجائر كاملة وهو مُتطلع للقاء شخصية أسطورية

سمع عنها حكايات مُثيرة كم تمنى أن يكون هو بطلها. وحده والصمت وسط مقاعد وطاولات خالية إلا من سيدتين تتناولان إفطارًا خفيفًا بأحد الأركان. تخيّل «حسين» جليسه المُرتقب رجلًا بلا ملامح واضحة، تفيض عيناه فزعًا وهيبة، ولا يطرف له هُدب، ولا يعرف يأسًا أو انهزامًا.

طلب قهوة ثانية، وهو يتطلع إلى شارع عماد الدين حيث تسير عربات وشباب وأفندية لهم ألوان وملابس شتى. قلوب مُبعثرة، وعيون مُتعبة تمُر في صخب نهار ربيعي صعب رغم زوال خطر الحرب عن القاهرة. تذكر أنَّ «ميمي» هاتفته صباحًا لتلومه على غيابه عنها أيامًا طويلة، مما اضطره أن يعدها اللقاء مساءً رغم ضيق الوقت. قال لنفسه إنَّ النساء لا يشغلهن في الغالب سوى العناق والقبلات والفساتين وأدوات الزينة، وإن ذكروا غير ذلك. كم ذكرت له «ميمي» أنَّها غاضبة من تجبر الاحتلال وخيانات الكبار، وأنَّها تود مثله لو تُسوي بالإنجليز وأعوانهم أرض المحروسة، لكن كان باديًا أنَّ كلامها لا يتجاوز حلقها وأنَّها تقوله



لتُرضيه. لا حُب ولا رومانسية في هذا العالم الوحشي ومَن لا يعيش كقابيل سيحيى مُرغمًا كهابيل.

رشف مرار قهوته مُستعذبًا وهو يُكتب في ذهنه مفاتيح كُل شخص من أفراد تنظيمه. كان يُراجع وهو جالس استعدادات وسمات رفاقه ليُعيد استخدامهم في خططه المُستقبلية. فكر أنَّ «محمد إبراهيم كامل» مُخلص لكنه مُتأنق ومُعتدّ بنفسه، أما «محمود مراد» فهو نيتشوي وعنيف ومُتهور كثيرًا، و«سيد» طيب ومُخلص وتابع، أما «محجوب» فقوي وشجاع و...

وانقطعت أفكاره عندما اقترب منه النادل سائلًا:

أستاذ حسين؟

هزَّ رأسه بالإيجاب، فأشار سائله إلى التليفون قائلًا:

تليفون لحضرتك.

قام مُندهشًا ليسمع صوتًا دافئًا وهادئًا يقول له:



حسين. أنت مُراقب. خُذ الترام إلى غمرة ثُم اهبط ستجد على اليمين قهوة بلدي اشرب فيها شايًا ثُم خُذ تاكسيًا إلى ميدان العتبة، وسر في شارع محمد علي حتى مسجد قاسيون، ولاقني هُناك بعد صلاة الظهر.

نظر حوله، وبحث عن مُراقبه دون جدوى، فدفع الحساب وسار كما أراد له مُحدّثه مُتحيرًا أي نوع من الرجال سيقابله، ذلك المُحتاط كما لم يتعلم، والماكر كما لم يتصور. صلى في المسجد خلف الإمام رغم أنَّه قليلًا ما فعلها في ظل عدم مبالاة والده بسؤاله عن الصلاة بعد أن نبت شاربه. جلس صامتًا يُفكر مَن يكون ذلك الضابط الغريب المطرود من الجيش بسبب اتصالاته مع الألمان؟ واصل الانتظار دون جدوى حتى وجد المسجد يخلو رويدًا إلا من خادمه الذي كان مُهتمًا بالنظر إليه بتركيز شديد. همَّ بالخروج بعد أن فقد الأمل في لقاء الداهية المطلوب من البوليس، وما أن وضع حذاءه خارج المسجد حتى وجد كفًا سمراء تُصافحه قائلًا:

حرمًا.



سرت رعدة في جسده الفارع على غير اعتياده،عندما وجد وجهًا أسمر شاحبًا تُنيره عينان ضيقتان، وابتسامة ماكرة. تمالك اتزانه وأخمد شرر الخوف وهو يضغط على كف مُحدثه قائلًا بفرح شديد:

جمعًا يا حاج محمد.

سارا معًا عبر أحد الأزقَّة المتفرعة من الشارع ليصعدا درجًا في بيت قديم فتحه «الحاج محمد»، ثُم جلسا في صالة ضيّقة خالية إلا من ثلاثة كراسي خشبية وطاولة قديمة يعلوها التراب. سأله «حسين»:

هل هذا بيتك؟

ابتسم «الحاج محمد» وهزَّ رأسه قائلًا:

كلها بيوت ربنا.

وابتسم قبل أن يقول:



أنا أبيت كُل يوم في مكان. والأحباب كثيرون مثلك هكذا.

أخرج «حسين» علبة سجائره، فالتقط «الحاج محمد» واحدة وقال له:

تستطيع أن تُناديني باسمي، أنور.

ثُم بتبسُط مقصود:

أنور السادات.

بطل كما تصوره، رائق الضحكة، حكاء العينين، قوي التأثير. سأله «حسين» في اهتمام عمَن كان يُراقبه فأجاب:

رجل طيب من أصحابنا.

أصحابنا؟ مَن؟

من البوليس السياسي. يوزباشي مُجتهد اسمه محمد إبراهيم إمام.



استغرب «حسين»، وقال باستهجان مُقطعًا حروفه:

مُ ج ت ه د؟!

هزَّ «أنور السادات» رأسه قائلا:

نعم. ألم تسمع عنه؟ هو الذي ذهب للقبض على المُخرج أحمد سالم ليمنعه من قتل زوجته المُطربة أسمهان ونجح في إنقاذها لكنه تلقى رصاصة في صدره، وأصاب المُخرج برصاصة وعولجا معًا في نفس المُستشفى وكانا حديث الوسط الفني. ألا تقرأ الصُحف؟

هز «حسين» رأسه نافيًا ثُم قال:

لا أهتم. لكن قل لي.. ما علاقة ضابط البوليس السياسي بمُخرج ومطربة؟

سحب «أنور» نفسًا طويلًا من سيجارته وقال وهو ينفثه رويدًا:



المُطربة أسمهان لها اتصالات عُليا، بالمُخابرات الألمانية والإنجليزية والسراي، وهي كنز أسرار ومعلومات. وهذا الضابط ذكي ومُخلص في عمله و...

مُخلص؟ إنَّه خائن.

لا ليس خائنًا. قبل عامين كُنت مطلوبًا وقابلته وكُنت أرتدي الجلباب وأعمل بالمقاولات بعد أن طردتني حكومة الوفد من الجيش، وقُلت له هيا بنا إلى السجن، لكنَّه سألني: لماذا السجن؟ فقلت: لأنني مطلوب، فهزَّ رأسه قائلًا: ومَن وجدك؟ لا أحد يعرف أنني وجدتك. انطلق ولكن ابتعد عن طريقي فقد أضطر إلى اعتقالك.

ياه. غريب هذا الضابط. إذن لمَ يُراقبني؟

هزَّ «أنور» رأسه وهو يقول:

هذا مطلوب، لكن وقت الحسم هو لا يميل إلى الإنجليز ورجال الحُكم، وهو بالمناسبة لا يُعذّب مستجوبيه. لقد بعثت له وردًا عندما أصابته رصاصة أحمد سالم. تصور جرأته، لقد ذهب للرجل في بيته، وقال إنَّه

موفد لمنع جريمة قتل المطربة، فأخرج المُخرج مسدسه وأقسم أن يقتلها أمامه فقفز ليتلقى الرصاصة في صدره، ثُم أطلق رصاصة على «أحمد سالم» أفقدته الوعي ودخل معه نفس المُستشفى فأصرَّ أن يعالج الأطباء المُخرج قبله.

مثال غريب.

ابتسم «أنور» وقام ليُعد شايا، لم يلبثا أن رشفاه معًا وهُما يتحدثان عن مصر وحالها في ظل الحرب وحكومات العار القابضة على الحُكم خدمة للاحتلال. وحكى «حسين» ل»أنور» عن مغامراته وعملياته الفدائية طيلة السنوات الخمس الماضية، لكنَّه شعر بالضآلة عندما قال له «أنور» إنَّ هناك مجموعات كثيرة تقوم بنفس العمل.



ما العمل إذن؟

سأل «حسين» كتلميذ، فأجيب:

أعتقد أنك ومَن معك تقومون بعمل عظيم، لكنَّه غير مجدٍ. ما الفائدة من قتل عسكري إنجليزي؟ ما الفائدة من قتل ضابط؟ اثنين؟ ثلاثة؟ لا شيء. لن تُخرج هذه الأعمال الاحتلال. المُصيبة في أعوان الإنجليز، خدمهم من المصريين، هُم الأخطر على البلد.

خونة.

بالطبع. هُم كذلك. لا تهمهم سوى مصالحهم الشخصية. لذا فإنَّ قتل واحد منهم يساوي قتل ألف جندي إنجليزي.

يااا ألف. لكن مثل مَن.. صدقي والنقراشي وماهر؟

هؤلاء أضعفهم. انظر للرأس الكبير. النحاس باشا. ذلك الساحر العجوز. درويش الناس وأفيونهم، بحزبه وأنصاره ومُحبيه هو الأخطر وهو الأولى بالقتل.



فكّر «حسين» قليلًا قبل أن يقول:

هو ساحر فعلًا. معك حق. لقد سمعته يخطب مرة وكدت أصدقه وأهتف له حتى عرفت من والدي كيف تحالف مع الإنجليز ليأتوا به حاكمًا في ظل دباباتهم.

ابتسم «أنور» وهو يقول:

لو فكرتم في عمل وطني كبير عليكم أن تبدأوا به. انتظروا حتى يقيله الملك وأعتقد أنَّ ذلك سيكون قريبًا، ووقتها يُمكن التخلُص منه وإنقاذ البلد من ديكتاتورية الوفد.

ديكتاتورية؟

نعم. ديكتاتورية الزعامة التي تدّعي امتلاكها للقيم والمبادئ والأخلاق.

مصمص «حسين» شفتيه وقال له:

هل تعرف عزيز المصري؟



بالطبع إنَّه مُعلمي وأستاذي وأستاذ جميع الثائرين. أنا أعرف كُل مَن يُناضل، لذا فقد وافقت على التعرف بك. أنا أشم رائحة البطولة. اسمع، سأساعدكم بالمعلومات والسلاح الذي تحتاجونه، لكن توقفوا عن اصطياد الإنجليز. لو خرج الإنجليز من مصر لأكلها الباشاوات وبلغاء الخُطب في كروشهم.

وقام «السادات»، وهو يقول:

والآن انزل. وسأتبعك بعد عشر دقائق. سأدلك على مخبئين للأسلحة في المُقطم. وعندما تسنح الفرصة، ستتوجه إلى هُناك لتأخذ ما تحتاج.

انبهر «حسين» بذلك التخطيط وشعر بالغبطة وهو يُعانق أنور الذي بدا مسرورًا وهو يودع تلميذًا جديدًا.

على أول الزقاق كان أفيش فيلم «تحيا الستات» لأنور وجدى ومديحة يسري وميمي شكيب يحتل عمود الإنارة العمومي، وأمامه كُتب بطبشور صغير على الحائط المقابل «الموت للاحتلال».



***

استطاع «حسين» اكتساب ثقة واحترام جميع زُملائه بعد تسويته لأزمة عاصفة كادت أن تودي بالتنظيم كُله. في يوم ما دخل محمود يحيى مُراد اجتماع التنظيم وبيده مُسدس ليُقسم أمام الجميع بأنه سيقتل نجيب، ران التوتر والقلق على وجوه الحاضرين خاصة «مدحت» الذي توقع أي تصرُف من شقيقه الأكبر، إلا ارتكاب ما يستحق معه الموت. كان «حسين» هادئًا كعادته وبدأ في امتصاص غضب «محمود» ببُطء، مُقررًا أنه يُقدّر غضبه ووطنيته وإخلاصه ويعرف جيدًا أنَّه أكثر نفعًا للتنظيم الفدائي من ابن خالته نجيب، الذي لا يشاركهم سوى في الكلام وتقديم المشورة، ثُم أكد له على أنَّه على استعداد لمعاقبة «نجيب» حال ارتكابه أي خطأ يُعرّض المجموعة للخطر، لكن من الضروري توضيح الأمر برمته لجميع الزملاء. وتعهد حسين بحل المشكلة تماما بعد أن أخذ المُسدس من «محمود»، فطلب من عم «عثمان الجنايني» الاتصال ب»نجيب» ودعوته للقدوم بسرعة شديدة. وبعد



دقائق من التدخين والنقاش الساخر خمدت همة «محمود» للقتل وتحوّل غضبه لبوح حزين كشف فيه أنَّ «نجيب» على علاقة عاطفية بشقيقته وأنَّه علم بذهابهما معًا إلى السينما قبل يومين.

دخل «نجيب» ليتلقى توبيخًا مُستحقا من ابن خالته وليُقرر بعفوية أنَّه يُحب شقيقة «محمود» بصدق ويريد الزواج منها، لكنَّه تراجع أمام شتائم وتهديدات مُتكررة من«محمود»، قبل أن يتدخل حسين مُهدئًا وطالبًا من الجميع ترك جميع الصغائر والتركيز على تطوير أعمال التنظيم ونقلها إلى مُحيط الساسة المصريين المُرتبطين بالإنجليز.

كرر «حسين» ما قاله «أنور السادات» له من أنَّ قتل سياسي مصري مُتعاون مع الإنجليز يُعادل قتل ألف جندي إنجليزي. وفاجأ القائد غير المُنتخب للتنظيم الأعضاء بضرورة البدء بالنحاس باشا، وهو ما أثار علامات الدهشة عند معظم الأفراد.

قال «نجيب» بتحفز:



تقتل زعيمًا يُحبه الناس ويشهدون له بالنزاهة والوطنية؟

وردّ «محمود» بغضب:

بل خائن ومُدعٍ يخدع الناس بمعسول الكلام. ويكفي أنَّه تحالف مع العدو ضد الملك ليُصبح رئيسًا للحكومة.

فقال «نجيب»:

لكن الناس تحبُه و...

ورد «محمود» مُقاطعًا:

تبًا للناس. لن تولد هذه الجماعة ويُصبح لها تأثير حقيقي بغير دماء.

وقال «محمد إبراهيم كامل» بعد أن رمق المُسدس الذي يحمله «حسين» بوله:

مُتفق تمامًا مع حسين ومحمود. قتل النحاس باشا ضرورة. هو السبب في خلود الناس إلى الدِعة



مُنتظرين نتائج مفاوضات لا تتم أبدًا. إنَّه مُخادع كبير. ثُم مَن قال إن حُب الناس شفيع له. ألم تروا ما جرى للنادي الأهلى على يد المُختلط.

ضحكوا على المثال، فقال «مدحت»:

لقد انهزم 6 / صفر. زُقلط أحرز وحده ثلاثة أهداف، ومحسن حلمي هدفين.

بدوا غير مُهتمين كعادتهم بأحاديث الكُرة، عندما وقف حسين مُلقيًا نظرة استفسار عن آراء سيد، ومدحت، وسعيد، ومحجوب، والشافعي، وعُمر، وخليفة، فتكررت إجابات الموافقة على اغتيال النحاس بهز الرأس إلى أن قال محجوب:

إنني مثلكم أعتقد أن قتل النحاس ضرورة، لكن ينبغي أيضًا قتل النقراشي وماهر وصدقي وهيكل.

قال «محمود»:



معك حق. علينا أن نُقرر أنَّ النحاس هو ضحيتنا الأولى، ثُم سنقتل بعده ماهر. ذلك المتلون الذي خان تاريخه كمناضل ومقاتل ضد الإنجليز ليتحالف معهم.

رمقه «محمد إبراهيم» بنظرة استهجان قائلًا:

هل صدقت ما رددوه بأنَّه كان مُشرفًا على الجهاز السري لثورة 1919؟ كُلها دعايات كاذبة. إنَّهم يتاجرون بكل شيء. الأبطال الحقيقيون هُم شفيق منصور وآل عنايت ومَن أعدموا معهم سنة 25.

مشى «حسين» بهدوء واضعًا يديه في وسطه، ليدور حول أفراد المجموعة الجالسين ثُم قال:

إذن علينا أولًا أن نُنشئ جهازًا للمعلومات لجمع المعلومات عن الخونة واحدًا واحدًا. نريد كُل شيء. عناوينهم، جداولهم اليومية، عاداتهم، خطوط سيرهم، رجالهم، وأنظمة الحراسة التي يستخدمونها. أقترح تكليف محمد إبراهيم كامل بإنشاء جهاز المعلومات،



وأقترح إنشاء جهاز معاونة آخر يضم تنظيمًا من الشباب الصغير يترأسه مدحت.

لماذا؟

سأل «محمود»، فأجاب «حسين»:

سيكون هذا التنظيم مسئولًا عن استكمال أعمالنا حال سقوط تنظيمنا. سنُطلق عليه تنظيم الكتاكيت.

ضحكوا، عندما أطلق مدحت شخرة احتجاج على الاسم.

في المساء حدَّث حسين صاحبته عن تطور نظام جماعته، ووعدها أن تسمع عنها قريبًا بعد أن تُقدم على أفعال لا يتوقعها أحد. كانت مُتوترة قليلًا عندما أخبرته أنها خُطبت. هبط عليه النبأ كصاعقة، ولاحظ دموعًا تترقرق في عينيها وهي تُكرر:

أنا أحبك. أحبك.



سألها بعد أن رشف كوبًا من البيرة الباردة:

مَن يا ميمي؟

مسحت دمعة مُنحدرة على خدّها وقالت:

يوزباشي في البوليس.

البوليس؟

نعم البوليس السياسي.

اللعنة.

قالها مُغتمًا، لا على فراق رفيقته الحسناء، ولكن على اقترانها بضابط بوليس، بل وبوليس سياسي. كان يعتقد أنَّ كُل رجال الأمن خصومٌ له، وجميع المُخبرين خدمٌ لأهل السُلطة والنفوذ. قال إنَّ ملعب المُباراة لا يسمح بتواجدهما معًا، ولو قُدر له اقتلاع أرواحهم سيفعل دون تردد.



ودعها غير مكترثٍ بدموعها ليسمع وهو عائد إلى البيت بائع الصُحف يُنادي على جريدة الأهرام قائلًا:

اقرأ الحادثة. اقرأ الحادثة. مصرع أسمهان.

ناول البائع قرشًا وقرأ بالبنط الأحمر «مصرع المطربة أسمهان بعد سقوط سيارتها في النيل. السائق قفز من السيارة قبل غرقها».

وتذكر ما قاله «السادات» له بأن «أسمهان» ليست مُجرد مُطربة. وقال لنفسه: لابد أن المخابرات البريطانية قتلتها أو رُبما الألمانية، أو آخرون. القتل هو نهاية المُنخرطين في الأعمال الخطرة. سيكون مصيرك يومًا. لكن لا شيء يهم. إنَّه موتٌ جميل.

***

«الفرصة سانحة». قالها «أنور السادات» لحسين توفيق في لقاء سريع جمعهما في شقة عمر أبو يعلى. كان الملك فاروق قد أقال حكومة الوفد مُستغلًا سفر السفير «مايلز لامبسون» إلى الخارج، بعد أن سعى

القصر عبر رجاله إلى تشويه «النحاس باشا» اعتمادا على اتهامات بالفساد أعدَّها «مكرم باشا عبيد» سكرتير الوفد السابق ونشرها في كتاب قُدم إلى السراي بعنوان «الكتاب الأسود». كان رأي «السادات» أن أطقم الحراسة المفروضة حول الرجل زالت ولم يبق سوى حارس شخصي واحد يُسهل التعامل معه.

قال «السادات» وقتها:

الأسد العجوز بلا مخالب.

وردّ «حسين» بأنَّه ومجموعته جاهزون للتنفيذ، خاصة بعد تلميحات باح بها السادات بأنَّ هناك مجموعات وطنية أخرى على استعداد للقيام بتلك البطولة حال تقاعس رجاله. كان «حسين» يتصور أنَّ المجموعة التي ستحقق السبق في صيد روح الرجل ستكون مؤهلة للعب دور قيادي في النظام الجديد الذي سيحكم بعد خروج الاحتلال، واعتبر «السادات» هو حلقة الوصل بين تنظيمه وبين قيادات الثورة القادمة.



في بضعة أيام جمع التنظيم بيانات تفصيلية حول الجدول اليومي للضحية، عاداته، زواره، وموقع سكنه، وتحركاته، واكتشفوا صعوبة الوصول له إلا يوم الجمعة، والذي يزور فيه ضريح الحُسين للصلاة، وقرروا قتله خلال ذلك اليوم رغم تحذير «نجيب» لهم بأن تنفيذ الاغتيال خلال الصلاة سيُزيد من شعبية الرجل ويحوّله إلى شهيد أمام الناس.

في أحد صباحات الجُمعة تطوّع «محمد إبراهيم كامل» و«عُمر أبو يعلى» و«محجوب» بالاختباء وسط المُصلين تمهيدا لانتهاز فرصة خروجه مع الناس عقب الصلاة وإطلاق الرصاص عليه، لكنَّهم فشلوا بسبب الزحام الشديد حول الرجل واحتضان البعض له مما جعله هدفًا صعبًا، مُتذكرين الواقعة الشهيرة لمحاولة قتله في المنصورة قبل أكثر من عشر سنوات والتي فشلت بعد تلقي سينوت حنا طعنة أحد القتلة بدلًا منه.

في مرة أخرى كمن «حسين» فى أحد أركان المسجد مُنتظرًا قدوم النحاس ومعه مسدس أتوماتيكي سريع

الطلقات منحه إيَّاه «السادات»، لكنَّه اكتشف فجأة خلو المسدس من الرصاص، وتذكر أنَّه نسي ملء خزانته قبل التحرك. وفي مرة ثالثة انتظره هو و«محمد خليفة» و«كريم القناوي» ومعهم عدة مُسدسات وقنابل يدوية، لكنَّه لم يأت في ذلك اليوم، لتنشر الصحف بعد ذلك أنَّ الرجل مصاب بنزلة برد حادة.

واعتبر «محمود مُراد» إخفاقهم في قتل الرجل بمثابة لعنة لا يُمكن الخلاص منها، واقترح تحويل المسار بشكل مؤقت إلى أحمد باشا ماهر الذي صار رئيسًا للوزراء وحليفًا شرعيًا للإنجليز، لكن «حسين» اعترض مُكررًا أنَّ إخفاقهم في قتل شخص ما لا يجب أن يدفعهم إلى تركه واختيار بديل له، وقال لهم إن عليهم المحاولة مرة واثنتين وثلاثًا.

وعاد «حسين» ل«السادات» ليُخبره بصعوبة قتل النحاس لأنَّه في الغالب مُحاط بعشرات الأشخاص، وأنَّه محدود الحركة ولا يكاد يُغادر بيته لأيام طويلة. وسأله إن كان من الممكن قتل أحمد ماهر باشا بدلًا منه، فأشاح عنه السادات بوجهه وقال:



إن الرصاصة الواحدة فيه حرام. ماهر؟ مَن يُمثل؟ لا شيء. دعك من أحزاب الأقلية جميعا، وفكر في المُتحكمين في الشعب.

كان الامتعاض باديًا على وجه «السادات» كُلما ذكر اسم «النحاس» أمامه ويبدو أنَّه لم يكن قادرًا أن ينسى للرجل أنَّه طرده من الجيش وحوَّله إلى شريد بلا عمل. وفكر «السادات» قليلًا قبل أن يخبر «حسين» أنَّه من الممكن قتل رجال حول «النحاس باشا»، ثُم يجرى بعد ذلك تفجير الجنازة خلال مشاركته فيها. وأعجبت الفكرة «حسين»، فنقلها إلى زملائه الذين بدأوا التفكير بشكل جدي في المُقربين من «النحاس باشا»، فاختاروا في البداية «فؤاد سراج الدين»، ثُم استبعدوه لأنَّه يستعين بُحراسة قوية، ثُم فكروا في أحد أشقاء حرم «النحاس»، لكنَّهم عادوا واعتبروا ذلك بعيدًا عن المروءة والنبل خاصة أنَّهم جميعًا ليس لهم أي توجهات سياسية، وأخيرًا أخبرهم «السادات» أنَّ «أمين باشا عُثمان» هو الأنسب لهذه العملية خاصة أنَّه لعب دورًا معروفًا في الوساطة بين

«النحاس» والإنجليز، وهو من خدم التاج البريطاني حيث تعلم هُناك، وتزوج إنجليزية، واعتبر الاحتلال البريطاني رفعة وتقدما، وأنَّه يجاهر بخيانته دون حياء.

وجلس ثلاثة عشر شابًا في حديقة منزل توفيق بك بالمعادي يصوتون على قتل «أمين عثمان» كمقدمة لقتل «النحاس»، لكنَّهم اختلفوا مرة أخرى بسبب إصرار «محمود مراد» على رأيه في أنَّ قتل «أحمد ماهر باشا»هو الأولى في الوقت الحالي باعتباره رئيس الوزراء الموجود في الحكم، وأنَّ «النحاس» بعد خروجه من الوزارة صار مُثيرًا للشفقة. وتمثّل لهم «محمود» بمقولة للفيلسوف نيتشه تقول: «من كان يحيا بمحاربة عدو ما، تصبح له مصلحة في الإبقاء على هذا العدو حيًا».

وشعر «حسين» بالتبرُّم من اعتراضات «محمود» المتكررة، وانتظر ذهابه إلى الحمام ليقول لزملائه في حزم:



لا عليكم باندفاعات محمود، هو يتحامق كثيرًا. سنقتل النحاس باشا لا محالة، وسنقتل أمين عثمان. لا تغيير بدون دماء. استعدوا. يجب أن تكون لدينا معلومات تفصيلية عن أمين عُثمان.

فهزوا رؤوسهم موافقين.

***

راجعت يمناه رابطة عُنقه التي كادت تخنُقه، وهو يستعد للخروج من قاعة البهو الفرعوني لمبنى البرلمان مُتذكرًا أنَّه حقق نصف ما يريد بانتصاره على خصمه اللدود. بدا ثقيلًا وهو يُصافح بعض النواب في طريقه نحو سيارته بالخارج لتقلّه إلى بيته بعد أن أعلن رسميًا أنَّ مصلحة مصر ستتحقق بدخولها الحرب العالمية الثانية إلى جانب بريطانيا. بوجه عريض مُنفرج الشفتين، وشارب كث يتناسب مع سمنته المفرطة قابل «أحمد باشا ماهر» زملاءه وهُم يُهنئونه على قراره النابه بعد تأكد انتصار الحلفاء في الحرب لتصبح مُشاركة مصر مُجرد تحصيل حاصل ومقاسمة



في الغنائم. قال لنفسه إنَّه استطاع النيل من غريمه «مصطفى النحاس» الذي سبق أن أضاع فرصته في تولى الحكومة قبل ثلاث سنوات عندما تدخلت دبابات الإنجليز لتأتي به رئيسًا رغم أنف الملك.

«السياسي هو مَن يتحول من اليمين إلى اليسار بفطنة ثعلب وسرعة أرنب، السياسي هو الباحث عن إجابات متعددة لأسئلة صعبة، وهو القابل للحلول الوسطى، والراضي بالأمر وعكسه، واللامُحب واللاكاره لأحد أو أمر». ردَّدها داخله وهو يستعيد لقاءه الأول قبل ثلاثة عقود مع سعد باشا زغلول عقب عودته من دراسة القانون في باريس وإحساسه بأن الأيام تُخبئ لهذا الرجل أدوارًا تاريخية عظيمة، واتفاقه مع صديقه المُقرّب «محمود فهمي النقراشي» على الانخراط في العمل المسلح لدعم «سعد زغلول».

طافت برأسه مشاهد نقل الأسلحة للفدائيين، وتجهيز القنابل للجهاز السري، وتوفير السلاح للقائمين بالاغتيالات، ثُم القبض عليهما من قبل الإنجليز واتهامهما بالإرهاب، ومحاولة لف حبل المشنقة حول



رقبة كُلٍ منهما. يومها تفرغ المُحامى الكُفء «مصطفى النحاس» للدفاع عنهما وحشد كُل الأدلة لتبرئتهما في قضية شغلت الرأى العام. تساءل «ماهر باشا» عن مصيره لو لم يحصل له «النحاس» على البراءة، وشعر أنه مدين للرجل رغم خلافتهما بالكثير. ضبط «أحمد ماهر» طربوشه وهو يخطو في ثقة مُتذكرًا يوم اجتماع الهيئة الوفدية لاختيار خليفة ل«سعد باشا» وكيف وقف هو و«النقراشي» إلى جوار «النحاس» في منافسة «فتح اللّه بركات»، لكنَّه شعر بجفاء شديد مع تقريب «النحاس» ل «مكرم باشا»، ثُم جعله الرجل الثاني في الوفد. حدّث نفسه بأنَّ النحاس هو الذي دفعه دفعًا للخروج من بيت الأمة ليؤسس مع «النقراشي» حزب السعديين. الوفد هو الوفد. ردَّدها وهو يواجه هواء الساحة مُتنفسًا بصعوبة معتادة نتيجة سمنته المُفرطة، واسترجع سنوات الفدائية والعمل السري، وتغيير ملابسه عدة مرات في اليوم للإفلات من عيون المُخبرين، والسفر لبنها بتذاكر القاهرة الإسكندرية لخداع مطارديه، وإطلاق الرصاص في البارات على جنود الاحتلال. كيف تغيّر بكُل هذه



الحدة؟ سأل نفسه، وأجاب بأنَّ الزمن تغيّر والأعداء انقلبوا حلفاء، وصار الرفاق خصومًا، وأثبتت الأيام أن حلول السياسة أنجع من الرصاص.

دقّ قلبه بتسارع وهو يستعيد لقاءه الأخير مع السفير «مايلز لامبسون» عندما أخبره بأنَّه أنفع للإنجليز من الوفد، وأنَّه لا يهمه في الوقت الآني سوى مصلحة مصر، وهزيمة «النحاس» والثأر منه. لمح سيارته وحرسه أمام الباب، وفكر كيف كان يضع خطط إرهاب الوزراء في زمن الثورة، مُتغلبًا على نُظم التأمين ومُتحديًا كُل مَن وقفوا خارج الوفد. لقد قال يومها أن مَن يخرُج على الوفد يخرج على الأمة، ومَن يخرج على الأمة يُعد خائنًا، وها هي الأقدار تدفع به خارج الوفد، لكنَّه ليس خائنًا.

تذكر أنَّه تلقى قبل مجيئه البرلمان رسالة من مجهول تُهدده بالقتل إن قدم اقتراحه بإعلان دخول مصر الحرب، لكنَّه قدم الرسالة ل»النقراشي باشا» المسئول عن وزارة الداخلية ليُقدمها للبوليس السياسي بهدف



البحث عن ذلك المخبول الذي واتته الجرأة أن يُهدد دولة رئيس الوزراء.

لاحظ شابًا طويلًا مُهندمًا يقترب مُسرعًا من الباب، لتلتقي عيناه بعينين عسليتين مُتعبتين قرأ فيهما حُكم الإعدام. تذكر وجه عسكري إنجليزي طعنه في زحام القاهرة سنة 1922 وهو يطلب العفو منه بملامح مُنكسرة، ودموع مُترجية. قال إنَّه يُفضل الموت صلبًا، شامخًا كالرجال. ودَّ لو قال للشاب المواجه بعد أن تبين مُسدسًا بين يديه أنه ليس خائنًا، وأنَّه مثله يريد مصلحة مصر لكنَّه لم يكد ينطق حتى أخرسه أزيز رصاصات لم يتبين عددها قبل أن تُصيبه لسعات مُتفرقة، سمع على إثرها صياحًا، وشعر بحركة مُتسارعة حوله، ثُم غاب تمامًا عن الوعى.

مات؟

سأل «توفيق بك» مُحدِّثه في التليفون، ثُم هز رأسه حُزنًا وهو يقول:



لا حول ولا قوة إلا بالله.

كان «حسين» جالسًا أمامه في غرفة المكتب عندما سأل والده في فضول عما جرى، فأجابه:

قتلوا ماهر باشا.

هزَّ «حسين» رأسه قلقًا وقال في سره «محمود الوغد. سيقضي علينا جميعًا»، واستأذن والده بدعوى أن لديه موعدًا مع أصدقائه، وخرج مُسرعًا لتنفيذ خطة مواجهة الخطر. الاختفاء ضرورة حتى يستبين موقف «محمود». قالها لنفسه في الطريق إلى بيت عُمر، قبل أن يسمع صوته مناديًا في الشارع. أدار وجهه وفوجئ بـ«محمد إبراهيم كامل» معه، فبادراه بالخبر وقالا إنَّ القاتل ليس «محمود يحيى مراد»، وإنما هو شاب وطني آخر اسمه «محمود العيسوي» يعمل مُحاميًا بمكتب عبدالرحمن الرافعي.

انحسر القلق تدريجيًا من وجه حسين، واستعاد هدوءه رويدًا، وفكر كثيرًا ثُم قال:



يبدو أنَّ ما قاله لي أنور السادات صحيح مائة في المائة، هناك جماعات عديدة تفعل ما نفعل، وتُجاهد مثلنا وتُفجر، وتطارد الخونة، وإن لم نتحرك وندخل أرض المعركة، فإننا سنكون خارج أي حسابات فيما بعد.

***

كقالب سكر ذاب، واختفى عن الأنظار. لم يذهب «محمود يحيى مُراد» اللقاء الأسبوعي للتنظيم في حديقة منزل «توفيق بك». اتصل به «حسين» عدة مرات ووجد التليفون مُعطلًا، وسأل «عُمر» عنه في الكلية فلم يجد جوابًا، وشعر «حسين» بالقلق، فسحبته قدماه نحو منزل «محمود» في حدائق القُبة، وطرق الباب، لينفتح على وجه بشوش مُنير لفتاة غرست فيه البراءة أعلامًا وشارات. تذكر أنَّه لم يرها مُذ كانت طفلة، ثُم دار بخاطره غضب «محمود» من اكتشافه علاقتها ب«نجيب» ابن خالته. سأل نفسه كيف يُمكن أن يفلت هذا الجمال من بين يديه ويذهب إلى المناضل المُتفرج الذي لم يطلق يومًا رصاصة، ولم



يخاطر بنفسه، ولو للحظة. لو كانت على علاقة بأي من أفراد المجموعة لما استكثر، ولا اندهش، لكن أن يفوز بها «نجيب» مذوق الكلام، ومُدّعي الثقافة، فلابد أن يغضب. عيناها صافيتان كبحيرتي سُكر، وأنفها يُشابه أنف محمود، لكنَّه أقل بروزًا، وابتسامتها تُنبئ عن رقة مُتناهية وأنوثة طاغية، وذلك الشعر الساحر المُنسكب خلف جيدها يؤكد أن الجمال اختار موطنًا له في شقة بسيطة بحدائق القبة.

رحلت «ميمي»، تركته، لا يهم، إلى الزواج، إلى العريس الجاهز، ضابط البوليس السياسي، الخادم للخونة، إلى الجحيم، ولا أسف، فقد اختارت، وصار من اللازم اختيار امرأة أجمل وأنضج وأكثر قدرة على استيعاب أعماله الوطنية، وليس أنسب من هذا القمر المُتلألئ الفتان، ويكفي أنَّها ابنة عمته الراحلة مُنذ سنوات، وشقيقة «محمود» زميله في الكفاح والنضال ضد الإنجليز والخونة. لاحظت صمته فبدرت منها ابتسامة نقية أطلت على استحياء من خلف باب موارب، وسألت في فراسة:



أنت حسين؟ أليس كذلك؟ ابن خالي توفيق؟

هزَّ رأسه كمَن يُحيي الجماهير، مُقررًا في سره أنها أجمل من «ميمي» مائة مرة. قالت:

لم أرك مُنذ سنوات طويلة، لكن لم تتغير كثيرًا.

هزَّ رأسه مرة أخرى، وهو يفكر إن كان كلامها إعجابًا أم نفورًا، ثُم سأل وعيناه تلتهمان جمالها:

سناء؟

نعم. عظيم أنك تعرف اسم بنت عمتك التي لم تزرها.

حدّق في وجهها أسفًا قبل أن يسأل:

محمود هُنا؟

هزَّت رأسها نافية، فواصل:

أين أجده؟



كررت هز الرأس وران على وجهها بعض الضيق، وشعر «حسين» بأنَّها تكذب عندما اشتم رائحة دُخان سجائر مخنوق يتسرب عبر الباب. ركز نظره على عينيها مُخترقًا ومُسيطرًا قبل أن يكرر سؤاله:

هل أنتِ متأكدة أنَّ محمود غير موجود؟

قرأ ارتباكها، فكرر:

سناء. أرجوكِ. أخبريه أننى أريده لأمر مهم. سأنتظر هُنا.

انسحبت للداخل بجذبة ذراع مُستترة، بينما أطل وجه «محمود» مُكفهرًا، ليبدو بلحيته النابتة مُنزرعًا في البيت لعدة أيام. دعاه للدخول، بينما غابت شقيقته في إحدى الغرف، وتبعه نحو غرفته المُختنقة بدخان السجائر.

مالك؟

سأله «حسين» في برود، فأجاب:



قتلوا أحمد ماهر.

مصمص «حسين» شفتيه، وضرب كفًا بأخرى وسأله:

ألم تكن تتمنى ذلك؟

ثُم بنبرة تهكم:

هل أنت حزين على الباشا؟

أشعل «محمود» سيجارة جديدة، وقال بحزن حقيقي:

كُنت أتمنى أن أكون قاتله بدلًا من العيسوي. كُنت أكرهه بصدق، أشعر أنَّه النموذج الأمثل للخيانة، والانصياع للسلطة. إنني أحسد المحامي القاتل على ما ناله من شرف، مُنذ عرفت بالحادث وأنا أشعر بالتقصير والبطء في اتخاذ القرار. إننا كثيرو الكلام قليلو الفعل، نُفكر، ونُخطط، ونُدبر، ولا نتحرك. لذا يصدق فينا قول نيتشه «في صدورهم ثورة البغضاء، وعلى شفاههم بسمة الثلج».



هات سيجارة.

ابتسم «حسين» ثم مدَّ يده مُلتقطًا سيجارة وأشعلها بقداحته وقال:

الفرص لا تنتهي. والخونة أكثر مما تتخيل. قُتل أحدهم خير، ولكن أمامنا غيره.

لكني أتحسر كُلما رأيت صور محمود العيسوي مُبتسمًا على صفحات الجرائد، ومُصرحًا للصحف بأنَّ التاريخ سيتكلم عنه وسينصفه. سبقنا للمجد.

ابتسم حسين مُستعذبًا حماس محمود وإخلاصه وتذكر عيني شقيقته، مُقررًا أنَّه سيتزوجها يومًا ما، وقال:

استعد يا بطل. يجب أن نتحرك. الهدف مُتاح، والتوقيت مثالي، ولابد أن نستغل حالة الغضب العام، واضطراب البوليس بحثًا عن شركاء العيسوي في تنفيذ عملية مباغتة تُربك البلد وتُهيئه لثورة عارمة.



فيم تُفكر؟!

سأل «محمود»، فرد «حسين» بسؤال يؤكد حنكته واستحقاقه مقعد القيادة:

فيم تُفكر أنت؟

فكر «محمود» قليلًا ثم قال:

في النحاس باشا.

أمين عُثمان أولًا. لقد اتفقنا على ذلك.

احمرت عينا «محمود» وزفر دُخان سيجارته قائلًا:

اقتلوا أنتم أمين عثمان وسأقتل أنا النحاس.

سكت «حسين» لحظات كمَن يبحث عن رد منطقي، وهو يُدخن بعصبية، وقال:

يا محمود. مصر تريدنا أن نعمل معًا. لقد حاولنا قتل النحاس عدة مرات من قبل، وكان ذلك صعبًا للغاية،

فقررنا اختيار أمين عثمان لأنه هدف أسهل. أما لو كان لديك خطة جديدة لقطف روح النحاس، فقُل ونحن معك.

وأضاف:

نحنُ جماعة يا محمود.

ثُم قام وهو يربُت على كتف صاحبه، مُتمنيًا أن يرى وجه الجميلة التي فتحت له الباب، لكن أمله خاب، فغادر راضيًا.

***

كان قلق «توفيق بك أحمد» على ابنه يتعاظم يومًا بعد يوم، خاصة بعد أن تأكد من عنفه وضلوعه في أعمال خطرة ضد عساكر إنجليز وأجانب ومصريين. جال بخاطره أنَّ أمر ذلك الولد الذكي المُشاغب لابد أن ينكشف، خاصة مع تطور طموحاته، واستمرارية عملياته التي يقوم بها مع أصحابه الغاضبين دائمًا.



علم الرجل المُخضرم ذو الخبرات المُتراكمة في السياسة أنَّ هؤلاء الشباب لا يُثنيهم نصح ولا يوقفهم إرشاد، كما أن مجابهتهم بالعنف والتهديد قد تؤدي إلى نتائج صعبة. إنهم حزمة من العناد يصعب تفريقها. قال الرجل لزوجته إنه على يقين أن أبناء الخالة «نجيب» و«مدحت» و«محمد» مُنخرطون مثل «حسين» في ذات الأعمال العدوانية، كما أنَّه تناقش ذات مرة مع ابن شقيقته «محمود مراد» وعلِم أنَّه يحمل أفكارًا مُشابهة. وبدا الرجل في داخله مُتعاطفًا مع توجهات الشباب الحماسية عندما قال لزوجته في إحدى جلساتهما المسائية:

إنَّهم لا يعجبهم سياسي ولا يُرضيهم حزب. حتى مصر الفتاة والإخوان المسلمين اللذين اجتذبا كثيرا من الشباب في هذه الأيام لا يلقون لهما بالًا. هُم يُبصرون الجميع على حقيقتهم، يعرفون المُمثل، والخائن، والمُهرج.

ثُم ببسمة رضا:

هل تعرفين يا سميرة؟ إننى أرى فيهم شبابي. هُم أنقياء ووطنيون ومخلصون. لكن لابد من تأمينهم. أعتقد أنَّ إبعاد الشبهات عن حسين يستلزم انتقالنا لبيت جديد، بعيد عن معسكرات الإنجليز.

وبيتنا؟

سألت «سميرة»، فأجابها بأنَّه سيكون مفتوحًا لاستقبال الضيوف وإقامة الحفلات فقط، لكن السكن سيكون في مصر الجديدة. ثُم قال لها بشكل واضح:

لقد أجرَّت بيتًا مناسبًا في شارع حسن الأكبر في مصر الجديدة.

مصمصت شفتيها امتعاضًا، لكنَّها رأت أنَّ السبب الذي ساقه زوجها مُقنع، خاصة أنَّها على يقين أنَّ بكريها مُنفلت وحاد المزاج. تذكرت سخريته من أقربائها الباشاوات ونظرته المتهكمة لهم.

كان خبر الانتقال إلى مصر الجديدة صادمًا ل»حسين» وزملائه، والذين فقدوا مقرًا جيدًا لاجتماعاتهم في



غرفة «عثمان الجنايني»، لكنَّهم اعتبروا الأمر خطوة مُهمة للاعتياد على عقد اجتماعاتهم المصغرة على المقهى أو في جروبي، والموسعة في بيت «عمر أبو يعلى» الذي تمكَّن مؤخرًا من ضم ثلاثة أعضاء جدد هم «سعد كامل»، و«محمود الجوهري»، و«عبدالعزيز خميس». في ذات الأمر فقد وجد «حسين» خزانة خلفية في البيت الجديد تصلح لتخبئة الأسلحة، خاصة القنابل التي وفرها لهم «عمر» عن طريق شقيقه المتصل ب«أنور السادات».

فى يوم ما فاجأهم «محمود مُراد» بأن متابعته للرجل العجوز وصلت به لإمكانية قتله خلال الاجتماع القادم للهيئة الوفدية بالنادي السعدي. كان «مُحمود» مُصرًا على قتل «النحاس» رغم ترجيح جميع الأعضاء اغتيال «أمين عثمان» أولًا، لذا فقد انشغل على مدى أسابيع عديدة برصد كُل حركة وكلمة لزعيم الوفد. وضع طالب الهندسة على طاولة الاجتماع خريطة مرسومة بالقلم الرصاص لمقر النادي السعدي والطرق المؤدية له، مُتوقعًا مرور الهدف من شارع رستم



المتفرع من قصر العيني قبل نُصف ساعة من موعد الاجتماع. قال «محمود» إنَّ واحدًا منهم سيقف على ناصية الشارع ومعه قنبلة، وسيقف آخر أمام النادي ومعه مسدس، وستلقى القنبلة على السيارة لتقف ويصبح مَن فيها هدفًا سهلًا لحامل المُسدس، بينما ستنتظر سيارة أخرى في شارع قصر العيني وسيارة ثالثة في ميدان لاظوغلي لتقل منفذي العملية بعيدًا.

فكر «حسين» بروية في خطة «محمود» واعتبرها صعبة التنفيذ، خاصة أنَّ سيارة «النحاس» قد تأتي من شارع آخر، لكنه اعتمدها وأيدها عندما تذكر ضرورة تقربه من ابن عمته، ليوافق على اقترانه بـ«سناء» التي مازالت عيناها تسكنان خياله.

قال «حسين» على غير اعتياد:

الخطة مُمتازة. سألقي أنا القنبلة على السيارة، وستطلق الرصاص يا محمود، وسيكون لدينا سيارتان، واحدة سيقودها سعيد ومدحت وتقف في قصر



العيني، والأخرى سيقودها محجوب وستقف في ميدان لاظوغلي.

ضرب «محمد إبراهيم كامل» بقبضته فوق الطاولة صائحًا بأنَّه يجب أن يشارك في العملية، وهو ما فتح الباب لتدخلات غضب مشابهة من «كريم القناوي» و«سعد كامل» و«محمود الجوهري» مطالبين بالمشاركة أيضا، ولم يجد «حسين» بُدًا من تشكيل فرقة أخرى وإسناد قيادتها إلى «محمد إبراهيم كامل» تكون مهمتها تعطيل أي مطارد لمنفذي العملية. كان الجميع يرون اغتيال «النحاس باشا» بمثابة شرف عظيم يجب نيله حتى أنَّهم احتفلوا في الليلة السابقة على التنفيذ كُلٌّ على طريقته حيث شرب «حسين» كأسًا من النبيذ، ودخّن «محمود» و«سعد» و«سيد» الحشيش، بينما صلى «محجوب» بتبتل شديد، وقرأ «سعيد» عدة قصائد من ديوان المُتنبي مُكررًا في انتشاء بيتين يقولان «إذا غامرت في شرفٍ مرومِ.. فلا تقنع بما دون النجومِ. فطعم الموتِ في أمرٍ حقيرٍ.. كطعم الموت في أمرٍ عظيم».



في ساعة الصفر وقف «حسين» مُرتديًا بذلته الجديدة التي منحتها له أمه هدية عيد ميلاده العشرين، واطمأنت يُمناه على القُنبلة الناعسة في جيب الجاكت الداخلي، بينما لمح وجه «محمود مُراد» شاحبًا وهو يقف على بعد أمتار مُنتظرًا إلقاء القُنبلة. اقترب موعد الاجتماع وبدت برودة الطقس تبُث رجفاتها في الجسد النحيل، مُتصورًا أن سيارة «النحاس» قد لا تأتي من الناحية المتوقعة، وفي تلك اللحظة لن يكون في مقدور «محمود» إطلاق الرصاص. تذكر «أنور السادات»، وقال إنَّه سيسعد جدًا بخبر قتل «النحاس»، باعتباره الأخطر على مصر ومستقبلها، مسترجعًا توصيفه له بأنه «أفيون الناس ومخدرهم». حقًا. إنه كذلك. هتف في أعماقه وهو يُتابع بنظره سيارة صغيرة تمر إلى جواره ببطء شديد. نظر إليها ففوجئ بـ«فؤاد سراج الدين» إلى جوار «النحاس باشا» جالسين معا على المقعد الخلفي، بينما جلس على المقعد الأمامي رجل بسيط ضئيل الجسم ولا يبدو كحارس أو رجل أمن. أين رجال الأمن المفترضون؟ سأل نفسه، وأجاب بأن ذلك الجالس إلى



جوار «النحاس» رجل مخادع وداهية. إنَّه قادر دائمًا على إدهاشه. اضطرب قلبه عندما رمقه الباشا بنظرة مُخترقة، واضطر إلى رفع يده لأعلى مُتظاهرًا بتحية مُحب، حتى مرت السيارة قليلًا، فقذف بقنبلته بأقصى قوة لتسقط أمام السيارة دون انفجار. شعر «حسين» بوجع في بطنه ومر الهدف أمام عينيه مرور الكرام، وبعد بضع ثوان انفجرت القُنبلة مُحدثة رجة هائلة، اضطرب لها المارة فجرى بعيدًا، وهو يتابع خيبة الأمل تكسو وجه «محمود مراد» بعد أن غابت سيارة النحاس بعيدًا كأنَّ شيئًا لم يقع.

«محظوظ. دائما» قالها غاضبًا، مُغتاظًا أن الهدف أفلت منه دون سبب منطقي بعد أن كان على بُعد خمسة أمتار منه.

سيكون علينا أن نُعجّل بقتل أمين عثمان في أقرب وقت. ولو خرج النحاس إلى الجنازة ستكون نهايته.

قالها «حسين» بحزم في الاجتماع الطارئ الذي دعا إليه عقب فشل العملية في الليلة نفسها، ووافقوا



جميعًا مُستسلمين.

***

عقدوا المُحاكمة فعليًا بحضور «نجيب» الذي اختاروه مُحاميًا عن المُتهم. في صحراء المُقطم وقف «محمود يحيى مُراد» يتلو قرارات الاتهام ضد «أمين باشا عثمان» وزير المالية الأسبق ورئيس نادي رابطة النهضة. نظر «محمود» في ورقة أمامه، وقرأ منها بصوتٍ عالٍ:

«أتى أمين عثمان أفعالًا تمثل أقصى درجات الخيانة، وتستوجب الموت جزاءً، حيث قام المذكور في سنة 1937 بالاتصال المباشر مع السفير البريطاني لوضع جميع طاقات مصر وإمكاناتها في خدمة الجيش البريطاني، وحصل مقابل ذلك على لقب الباشاوية. ثُم واصل دور الوساطة القذر في فبراير 1942 ليدفع بحزب الوفد إلى الحُكم رغم أنف الملك بعد محاصرة دبابات الإنجليز لقصر عابدين، ونال نظير ذلك وزارة المالية التي مكّنته من استغلال نفوذه وتأسيس



شركات تجارية بمشاركة الخواجة شارل كاسترو ومنحها تراخيص عمل واستيراد وتصدير مخالفة للقانون. وبعد إقالة الحكومة دعا المتهم إلى الاندماج في الثقافة الإنجليزية وتوطيد العلاقات مع بريطانيا وأسس لذلك رابطة أسماها رابطة النهضة. وواصل المتهم تحديه للإرادة الوطنية وقام باتصالات مباشرة بين السراي والإنجليز بهدف تحسين العلاقات، ووصل به الأمر إلى التصريح بزواج مصر وبريطانيا زواجًا كاثوليكيًا. ولم يكتف المتهم بالكلام وإنما قام بجمع تبرعات مالية من أموال المصريين بلغت نحو مائة ألف جنيه وقدّمها إلى الحكومة البريطانية لإنشاء قرية في بريطانيا لتخليد ذكرى معركة العلمين».

كان شباب التنظيم يجلسون على صخرة يُدخّنون في تحفز وهُم يستمعون لقائمة الاتهامات ناظرين نحو «نجيب» بنظرات تحذير بعد أن قام لتمثيل دور الدفاع بناء على إشارة من «حسين» الذي وقف إلى يمين «محمود مراد».

قال «محجوب» وهو يقف مُنفعلًا:



أعتقد أنَّ الدِفاع سينسحب من المحاكمة ، لأنَّه لا يمكنه الدفاع عن الخيانة.

ونظر «محمد إبراهيم» نظرة ذات مغزى إلى «نجيب» الذي أشعل سيجارة انتظارًا لمنحه الكلمة، قبل أن يقول:

لا إنَّنا نريد أن نسمع دفاعه.

وعلّق «عُمر» قائلًا:

إنَّ صديقنا نجيب طيب القلب، لكن مهما كان فهو إنسان وطني.

رد «نجيب» بإشارة اعتراض من يده صائحًا:

أرجو من هيئة المحكمة منحي الفرصة للدفاع عن المتهم.

سرت همهمات وارتفعت أكف مُشوحة في وجه نجيب، لكن حسين الذي أسعده تمثيل دور القاضي قال



بحنكة:

سنمنح الدفاع خمس دقائق للرد على الاتهامات.

كثير.. كثير.

ردد الحاضرون، لكن «نجيب» وقف وقال بصوتٍ عال:

إنّنى مع كُل ثقافتي واعتراضي على العُنف أقر أنه لا يمكن التعامل مع أفعال المتهم بتحضر، خاصة أنه فُرض عليّ الدفاع عنه دون رغبة مني. وأنا لا أجد عُذرًا مقبولًا لمن يدفع بمصر لتُصبح عروسًا لبريطانيا، مع التبجح والدعوة أن يكون ذلك الزواج كاثوليكيًا أي أبديًا، وهُنا فإنني أشعر بمزيج من الخجل والانهزامية وأنا أقف بينكم طالبًا الصفح عن مُجرم، خائن لبلاده. إنني أعرف جيدًا أن جميع الاتهامات الموجهة إلى المُتهم صحيحة، وأنه ضالع في خدمة العدو المُحتل، مُحققًا مكاسب مالية حرامًا، ويكفي أنه تزوج من سيدة بريطانية تدعى الليدي كاترين جريجوري، وأن شريكه الأول انجليزي الجنسية.



ثُم ابتسم «نجيب» ابتسامة خافتة، ثُم رمى بنظرة رضا نحو ابن خالته القاضي قائلًا:

إنني للمرة الأولى في تاريخ القضاء أضم صوتي إلى صوت ممثل الادعاء مطالبًا بتوقيع أقصى العقوبة على المتهم. وباعتباري محاميًا ودارسًا للقانون فإنني لا أجد لجرمه عقابًا سوى الموت.

هلّل الحاضرون، وصفقوا، قبل أن يرفعوا «نجيب» عاليًا، وهُم يرقصون في مرح ويصيحون: يحيا العدل. يحيا العدل، بينما وقف «حسين» رافعًا قبضته في الهواء وهو يُردد في صوتٍ عالٍ:

هدوء من فضلكم. النطق بالحكم.

صمتوا، والغبطة تُظللهم عندما قال «حسين» في رزانة:

حكمت المحكمة الوطنية على المتهم أمين عثمان بالإعدام، وحددت مساء الغد موعدًا لتنفيذ الحُكم. الله.. الوطن.. الشعب. رفعت الجلسة.



***

ودعت عيناه العسليتان ضوء الشمس وهو يسحب أستاره مُبشرًا بغروب شتوي عاصف. لم يكُن الرجل متوسط القامة ذو الملامح المنبسطة دائمًا يشعر بوحشة الغروب الشتوية التي يعتادها سُكان القاهرة لأنَّه كان دائمًا لا يكترث بما حوله. لقد تعلّم مُذ كان طفلًا في مدرسة فيكتوريا بالإسكندرية كيف ينعزل تمامًا عن أي مؤثرات قد تنال من حالته المزاجية، لذا فإنَّه لم يلتفت لقول زوجته «كاترين» وهو يُغادر في ذلك الصباح:

أمين. أشعر أن الجو مُقبض اليوم.

منحها قُبلة رقيقة اعتاد طبعها فوق خدها الأيمن مُكررًا أنَّه كرجل نشأ في الإسكندرية، وهي كسيدة ولدت بانجلترا وتربّت هُناك لا ينبغي أن تُعكر صفوهما حالة الطقس.

عزيزتي.. سيكون كُل شيء على ما يرام.



كان «أمين عُثمان» رجُلا عمليًا إلى أقصى درجة، يفهم السياسة كصفقة تجارية، فيها طرفان كلاهما رابح. عرف الرجل الخمسيني دروب السياسة وحنكة الإنجليز ودهاء المحامين مُذ استثمر علمه في القانون والمتوج بدكتوراه حصل عليها من باريس، وخاض غمار المفاوضات بحثًا عن مصالح بلاده. كان يؤمن أنَّه يمكن خدمة الوطن دون دماء، وأنَّ المعارك والمواجهات المباشرة بين المصريين والإنجليز لا يُمكن أن تؤدي إلى استقلال، أو تُحقق نهضة. في مرات عديدة اختلف مع ساسة وزعماء مُحنكين حول كيفية تطويع ظروف الخصم لتحويله إلى صديق والاستفادة منه، وكثيرًا ما كان يُردد أنَّ مصالح مصر ستتحقق بالطُرق السلمية.

ركب «أمين» سيارته، وابتسم ابتسامة رضا وهو يقول لسائقه:

إلى الجمعية.



النهضة. هكذا أطلق عليها مُنذ أسسها قبل سنوات قليلة بهدف الاستفادة من الثقافة الإنجليزية والتقدم المُتحقق في انجلترا ونقله إلى مصر. وقتها قرر إنشاء جمعية لخدمة هذا البلد الذي يستحق أحوالًا أفضل وينبغي انتشال بنيه من الجهل والتخلف والفقر. وكان ذلك الخاطر يدور برأسه عندما قال في خطاب سياسي قبل أيام «إنَّ مصر وإنجلترا يجب أن يتزوجا زواجًا كاثوليكيًا». لم يقصد ما ذهب إليه الفاشيون من خضوع أو خنوع، وإنما كان هدفه التأثير في المُتلقي الإنجليزي الذي يفهم معنى العبارة كرباط مصالح دائم، لا تبعية. فكَّر أن يوضح للمُنتقدين في الصُحف المصرية مغزاه من العبارة، لكنَّه عاد وتجاهل الرد على أولئك الذين يعرف جيدًا إلى أي مدى هُم متربصون به، وقال لنفسه إنَّهم سيخونونه سواء فهموا ما أراد أو لم يفهموا. قرأ جريدة «الكُتلة» المرصوصة وسط الصُحف بالسيارة واغتمَّ من تلميحات وإشارات «مكرم عبيد» ضده باعتباره جناحًا سريًا لدعم حزب الوفد. سأل دون أن ينطق: ألم تكُن تنام وتقوم في خدمة الوفد يا مكرم باشا؟ لمَ كان الوفد بيتًا للأمة عندما



كُنت رجله الثاني وكيف فسد الآن؟ ثُم ما هي المُشكلة أن أعمل لصالح الوفد؟ أليس هو حزب الشارع والناس؟ وأليس ذلك أطهر وأنبل من العمل لصالح السراي؟

تذكر كيف ساقته الأقدار أن يعمل يومًا سكرتيرًا في مكتب مكرم عبيد قبل خمسة عشر عامًا مضت قبل أن يصبح بعد ذلك مفتشًا بوزارة المالية، ثُم يتوّج طموحاته بنيل مقعد وزير المالية نفسه. وفكّر في المنشور مُقررًا كعادته اعتزاله السياسة وتفرغه للتجارة وتعليم جيل من الشباب العلوم الإنجليزية الحديثة ليقودوا مصر يومًا في دروب التقدم. كان هذا هو الدافع الذي من أجله أنشأ جمعية النهضة واختار لها مقرًا مميزًا بشارع عدلي ليجذب أصحاب الألباب الناضجة من الشباب والفتيات. «لقد تركت لكم حلبة السياسة كُلها. اشبعوا بها». قالها في سره عندما وصلت السيارة إلى مُبتغاه.

شعر الرجل بتحرره وهو يهبط من سيارته أمام بناية فخمة على الطراز المعماري الأوروبي، مُقدرًا قرار



اعتزال العمل العام والتفرغ للتجارة، الذي اتخذه بعد مناقشات مُستفيضة مع رفيقة حياته «كاترين»، تلك التي أحبته بجنون، فمنحها قلبه وحياته وأعصابه وتشاركا معًا في الطموحات والآمال. لأجلها وصمه البعض بالخائن أو «زوج الست»، لكنه لم يأبه كعادته، مُعلنًا أنَّ الأسد لا ينبغي أن يلتفت لخربشة الفئران في جحورها.

عبر بُخطى ثابتة داخلًا إلى العمارة المقصودة وعلى وجهه ابتسامة مُعتادة صارت لصيقة بوجهه. نظر إلى المصعد وتوقَّع أن يكون مُعطلًا كالعادة، ثُم تذكَّر نصائح زوجته بضرورة الصعود عبر السلالم لتنشيط الدورة الدموية كُلما أمكن ذلك. سمع خطوات مُسرعة خلفه، لكنَّه كعادته لم يكترث وواصل صعوده حاملًا في يمينه حقيبته السوداء، ونظر في الساعة فوجدها السادسة والنصف، لكن أذنيه أنكرت اسمه منطوقًا بصوتٍ عالٍ. مَن هذا الذي يُناديه باسمه مُجردًا من لقب باشا؟ الصوت لشاب في مُقتبل العمر، ربما أحد



أعضاء الجمعية من الشباب، فكَّر، لكنَّه لام جيلًا بأكمله على الجليطة وعدم احترام الأكبر سنًا.

يا أمين يا عُثمان.

للمرة الثانية سمع اسمه عاليًا، بصوت كريه، كنعيق الغربان. ثُقب في السماء ينزف دمًا أسود. فكر للحظات شاعرًا بدبيب الخطر يزحف مُحاصرا. لن يكترث كالعادة، لكن الفضول دفع رأسه للالتفات، ليشهد عينين ذئبيتين تُطلقان نارًا. ثلاث رصاصات كفيلة برسم نهاية مأساوية لطالب خير اجتهد من أجل بلاده فأساءوا فهمه، ثلاث رصاصات كافية لإنهاء قصة حُب بين اثنين من بلدين شاء القدر أن يتقاتلا ويحتل أحدهما الآخر، ثلاث رصاصات تصلُح لإسعاد آلاف الخصوم والساسة وغوغاء الأرض. الأولى في الكتف اليسرى، والثانية في اليمنى، والثالثة حفرت طريقًا ضيقًا بين أمعائه.

جلس مُرغمًا، وشلال الدم يغسل سلالم العمارة، ولمح ابتسامة انتصار على وجه القاتل، الذي ببرود شديد



وضع يده بالمسدس في جيبه وخرج ماشيًا بهدوء.

لم يعرف «أمين عثمان» بعد ساعات من نقله إلى مُستشفى مورو أنَّه ميت إلا بعد أن سمع نحيب «كاترين» وهي تصرخ فيمن حولها:

افعلوا شيئا. أتوَسل إليكم.

لا توسلات ولا شفاعة. النهاية هي دائمًا ما لا تتمناها أو تنتظرها.

***

سريعًا أتوا. كان «حسين» يتوقع قدومهم، خاصة بعد أن علم أنَّ ضحيته قضى نحبه سريعًا في مُستشفى مورو. لم يكد يجلس على مكتبه مُدخنًا سيجارة قبل النوم حتى سمع أصوات الخُطى تدب بقوة داخل المنزل، وصوت أمه تصرخ فيهم مطالبة باحترام غياب توفيق باشا عن المنزل. هل حصل الوالد الفاضل على الباشاوية؟ سأل «حسين» نفسه ولم يُجب، عندما بادره أحد الرجال ضخام الجسم مُطالبًا إياه بالثبات



دون حراك. اعتدل «سعيد» من فراشه راميًا من يديه مجلة «الاثنين» ومُنتبها لقول أحد المُقتحمين:

معنا أمر بضبط حسين توفيق وشقيقه سعيد توفيق.

علا صوت السيدة «سميرة»، لكن أحد الرجال قال في هدوء:

هل تنتظرين خارج الغرفة حتى ينتهي التفتيش؟

انصاعت بعد أن قرأت في عيني حسين نظرة غامضة تعرفها جيدًا. كان يقول لها إنَّهم على حق. أنا القاتل، الفاعل، مَن ضغط على الزناد، مَن حاكم الخائن، ومَن نفذَّ الحُكم. أنا يد العدالة أيها الخدم، قتلت عدوكم وعدو الناس، مثلما قتلت قبله عساكر وموظفين إنجليز. تذكرت حديثها له قبل أيام عندما أخبرته بضرورة الاهتمام بدروسه لطمأنة والده الذي يلازمه قلق دائم تجاهه وتجاه مستقبله، حينها قال لها إنَّه يعرف مُستقبله، وأنَّه حريص عليه. لم تكن تتصور أن



ذلك المستقبل هو توجيه السلاح نحو أي شخص حتى لو كان عدوًا.

وجدت هذا.

قال أحد الرجال موجهًا حديثه لشخص آخر، وهو يشير لمُسدس، فقال:

يُحرّز.

استمر التفتيش نصف ساعة بينما وقف حسين في مكانه مُدخنًا سيجارة خلف أخرى وبدا وجهه أشبه بصخرة مُصمتة مُنتظرًا السير معهم إلى حيث الجحيم المُنتظر. توقع أن يرى «محمد إبراهيم إمام» رجل البوليس الذي حدثه عنه السادات، لكنه لم يكُن يعرفه. جمعوا عددًا من الرصاصات المتفرقة، ومسدسين، وجريدة الإجيبشيان جازيت، وجريدة المصري، وورقة يانصيب، وعدة ولاعات، ومفكرة بها رسوم لميادين العتبة والجيزة وباب الحديد.



اقتيد المُتهمان إلى مبنى سجن الأجانب حيث وُضعا معًا في غُرفة نصف مُظلمة وضيقة. بدا الوهن والاضطراب على وجه سعيد، لكن وجه شقيقه الأكثر تماسكًا دنا منه قليلًا وهمس:

اصمت تمامًا. لا تُجب عن شيء.

ظلوا دقائق لم تطل حتى تم استدعاؤهما إلى مكتب وكيل النيابة، والذي قدَّر «حسين» عمره بأربعين عامًا، قبل أن يقرأ اسمه على لافتة خشبية صغيرة «كامل القاويش». قال في نفسه: لو قدر لي أن أقتلك سأفعل.

حسين توفيق أحمد وسعيد توفيق أحمد. أنتما متهمان بقتل أمين باشا عثمان مساء أمس بشارع عدلي.

نطق وكيل النيابة في تريُث محاولًا قراءة وجهي المتهمين بعد سماع الاتهام، لكنَّه لم يلحظ أي تغير ولا حتى طرفة عين. نظر إلى «سعيد» الواقف أمامه محنيًا رأسه إلى الأرض، وقال بصوتٍ عالٍ:

أنت يا ولد متهم بجريمة عقوبتها الإعدام شنقًا. ما قولك؟

هزَّ رأسه باكيًا وقال:

لم أفعل شيئًا.

وعلى مدى دقيقتين تكررت النظرات وتكرر الرد نفسه عدة مرات قبل أن ينتقل وكيل النيابة ناظرًا بعينيْ ثعلب نحو حسين قبل أن يقول:

يا حسين أنت في موقف صعب. لقد شاهدك أفندي حاملًا المُسدس وأنت تخرج من عمارة المجني عليه، ثُم هتف: أمسكوا القاتل فجريت.

لم يحدُث.

قالها «حسين» بثبات غريب استفز وكيل النيابة فواصل:



لو قُلنا إنَّ الأفندي كاذب، فهناك كونستابل في ميدان الأوبرا رآك وأنت تجري وخلفك المارة وألقيت عليهم قُنبلة.

لم يحدُث. يخلق من الشبه أربعين.

نفس الثبات، استفز وكيل النيابة، لكنَّه حاول تمالك أعصابه ثُم دعا «حسين» للجلوس، بعد أن طلب من العسكري الواقف بغرفته أن يعيد «سعيد» إلى زنزانته، ثُم مدّ يديه بسيجارة رويال إلى «حسين» سائلًا إن كان يود التدخين، فوافقه.

ابتسم «كامل القاويش» قبل أن يرُد على اتصال هاتفي قال فيه:

نعم إمام بك. إنَّه أمامي. هو سيساعدنا.

وعاد مُحدثًا «حسين»:

نحن نعرف يا حسين مقدار وطنيتك. أنت ولد طيب وابن ناس طيبين. ونعرف أنَّ البعض استغل حماسك

لدفعك لإطلاق الرصاص على أمين باشا. إنَّك لم تكن تقصد أن تقتله، لكنها إرادة اللّه.

ابتسم «حسين» نافثًا دُخانه بعصبية في الهواء قبل أن يقاطع الرجل قائلًا:

أنا لم أقتل أمين عثمان.

حاول وكيل النيابة استرجاع ما تعلمه في مادة علم الإجرام ليُحدد على وجه الدقة قدرات الولد الصغير الجالس أمامه، وفكر صامتًا للحظات قبل أن يسأل:

إذن قُل لي: ما هو رأيك في أمين عثمان؟

خادم.

هزَّ وكيل النيابة رأسه مُستبشرًا وقال:

عظيم. خادم وخائن.

هزَّ «حسين» رأسه موافقًا، فأكمل الآخر:

ويستحق الموت؟

نعم.

إذن فقد قتلته؟

بثبات غريب أجاب:

هو يستحق الموت وأنا أراه خائنًا، لكنَّني لم أقتله.

ثُم أضاف ببعض البرود:

لا أعتقد أنَّه يمكن أن يحاكم إنسان لأنَّه تمنى قتل إنسان.

ران بعض التوتر على وجه «كامل القاويش» فعاد للسؤال:

أين كُنت أمس في الساعة السادسة والنصف مساء؟

عند خالتي.

ماذا كنت تفعل عند خالتك؟



كُنت أجلس مع ابن خالتي محمد إبراهيم كامل.

هل هو زميلك في الدراسة؟

لا، طالب في مدرسة الحقوق، لكنَّنا أصدقاء.

علا صوت وكيل النيابة مرة أخرى وهو يسأل:

ماذا كنتما تفعلان؟

ابتسم «حسين» ابتسامة هادئة وقال:

كُنا نُدخن ونتحدث.

سأل وكيل النيابة مرة أخرى:

ومتى عُدت إلى المنزل؟

السابعة مساءً.

هدأت ملامح وكيل النيابة وبدا أنَّه تذكر أمرًا ما، ففتح درج المكتب وأخرج كيسًا يُغلف مُسدسين وقال:



لماذا تحتفظ بهذين المُسدسين في مكتبك؟

قتل حسين سيجارته في منفضة زجاجية أمام وكيل النيابة، ثُم قال بعد أن رمى الرجل بنظرات وعيد:

نلعب بهما.

كيف وصلا إليك؟

قُمنا بشرائهما من أحد حرس المعسكرات الإنجليزية.

مَن هو البائع؟

لا أتذكره.

ثُم قال بنظرة غضب:

أنا مُتعب، وأريد أن أنام.

تذكر لحظة إطلاق الرصاص على الخائن، كان تنفيذًا مُحكمًا، فبعد إشارة من بطارية «محمود الجوهري» عرف بوصول سيارة الهدف، ودخل خلفه العمارة، وفي



الشارع الخلفي كان يقف «محمود مراد» و«محجوب» و«سيد» و«عمر» مؤمنين ومعاونين. خرج واضعًا يديه في جيبي بنطاله، لكن أحد المارة صاح بالناس: امسكوا القاتل. امسكوا المجرم، فجرى وخلفه جمع من السُذج يحاولون الفتك به، أطلق عدة رصاصات في الهواء، لكنَّهم ظلوا يطاردونه حتى فاض به وقرر استخدام قنبلته، فرمى بها على الأرض لتنفجر ويتفرق على إثرها المطاردون.

نظر «حسين» نظرات ذات مغزى إلى «كامل القاويش» وقال له:

أنا من حقي ألا يتم استجوابي وقت النوم.

خبّط وكيل النيابة بيد غليظة على المكتب وهو يصيح:

هل عرفت حقك أيها القاتل؟

حتى الآن. ليس من حقك يا رجل القانون أن تصفني بالقاتل.



هزَّ رأسه موافقًا وقال:

معك حق.

ثُم نادى حارسه، وقال له:

أرجع الأستاذ حسين إلى غرفته. وأردف بعد هنيهة:

الرجل يحتاج الراحة، فغدا أمامه يوم عصيب.

ثُم قال لكاتبه:

يُستدعى محمد إبراهيم كامل ابن خالة حسين توفيق، ويستدعى توفيق بك أحمد.

ونظر إلى المُسدسين مُندهشًا كيف تمكن هذا الشاب الصغير من الإمساك بآلة القتل! ثُم كيف واتته الجرأة أن يضغط على الزناد!

***



في الصباح استيقظ «حسين» على صوت فتح باب زنزانته، تلك الحجرة المستطيلة التي تضم ثلاثة أسرة ودلوًا صغيرًا في أحد الأركان، فوجئ بالحارس يضع صينية بها ثلاثة صحون في أحدها فول، وفي الآخر جبن أبيض، وفي الثالث عسل أسود بالطحين. فوجئ أيضا بصُحف الأهرام والمصري والسياسة. شعر بغبطة النصر وهو يلمح مانشيت الكتلة يقول «مصرع أمين باشا عثمان برصاص مجهول» وسرت الطمأنينة في جسده، وهو لا يجد الجحيم المنتظر الذي حدثه عنه أنور السادات يومًا. فكر كيف تلقى «السادات» النبأ؟ هل هو سعيد بنجاح مجموعة الشباب الذين كان يعتبرهم صغارًا بقتل الخائن؟ وابتسم وهو يوقظ شقيقه النائم، ثُم أمسك صحيفة الأهرام ليقرأ تفاصيل الخبر.

قال لنفسه إنَّ توصيل رسالة للناس بخيانة أمين عثمان هو أفضل ما في الأمر. وجد علبة سجائر بين الصُحف، فتحها وأشعل واحدة، وهو يستمتع بقراءة الحادث. علا صوته محاولًا ايقاظ شقيقه الغائص في



نوم ثقيل: «.. وقد لفظ المرحوم أنفاسه الأخيرة بعد ثلاث ساعات من وصوله إلى المُستشفى، وقد زاره فور وصوله دولة الرئيس «مصطفى باشا النحاس»، ومعه «فؤاد سراج الدين»، والسيد السفير «مايلز لامبسون»، وحاول الأطباء إنقاذ حياته، لكن محاولاتهم باءت بالفشل. وصرح السيد «محمد كامل القاويش» وكيل النيابة بأنَّه تم القبض على أحد المُشتبه فيهم، وأن التحقيقات الابتدائية كشفت أن وراء الحادث منافسة على علاقة بإحدى سيدات المجتمع و...».

ولم يستطع «حسين» أن يُكمل فصرخ بأعلى صوته:

لا. هذا كذب. هذا كذب. كذب.

ثُم بصوت مبحوح:

نساء؟ سيدة؟ افتراء. افتراء.

واستيقظ شقيقه مذعورًا ليجده يرن بقوة بصينية الإفطار على باب الحبس مناديًا:



يا وكيل النيابة. يا وكيل النيابة: أنا قتلت الخائن. قتلت أمين عثمان. قتلته لأنَّه تحالف مع الإنجليز.

ثُم صاح في الحارس البادي من قُضبان الحجرة قائلًا:

افتح لي. أريد النائب العام. أنا قاتل الخائن.

كرر الصراخ بصوتٍ عال، حتى فُتحت الزنزانة وأطل منها وجهان لرجلين أحدهما لوكيل النيابة، بينما كان الآخر هادئا وصارمًا ومُطابقًا لوصف «أنور السادات» عن اليوزباشي «إبراهيم إمام». كان يبدو بارد الملامح وهو يُحدّق بعين متفرسة في وجه حسين الذي شعر أنَّه أمام ثعلب البوليس السياسي الذي طالما سمع عنه.

فكر «حسين» قليلا قبل أن يسأل:

هل أنت اليوزباشي إبراهيم إمام؟

هزَّ الرجل رأسه وعلى وجهه ابتسامة هادئة، قبل أن يقول «كامل القاويش»:



نعم. حضرة القائمقام محمد إبراهيم إمام. واضح أنكما تعرفان بعضكما.

هزَّ الضابط رأسه نافيًا وقال بهدوء:

لم أتشرَّف من قبل.

ثُم ألقى نظرة على «سعيد» الواقف خلف «حسين» وقال:

أهلا وسهلا يا حسين. سأترككما لتتحدثا.

سار «حسين» إلى جوار وكيل النيابة عابرا ممرا يُفضي إلى مكتبه، جلسا هادئين قبل أن يقول «كامل القاويش»:

ها. احك لي يا حسين ماذا جرى.

هزَّ «حسين» رأسه مُطيعًا، وقبل سيجارة من محدّثه قبل أن يسترسل في سرد كُل شيء عن جماعته الوطنية. بدأ منذ حادث إحراق سيارات المعسكر



الإنجليزي، ثُم ضرب العساكر واحدًا بعد الآخر ووصولًا إلى الاعتداء على «مصطفى باشا النحاس». كانت عينا المتهم تفيضان ألقًا وفخرًا وهو يتحدث عن فلسفة المقاومة، وردع الخونة، قبل أن يسأل وكيل النيابة في حدة، إن كان لا يرى أنَّ الإنجليز أعداء، فابتسم الرجل وقال إنَّه غير معني بالإجابة لأنه وكيل نيابة، وهو وحده الذي عليه توجيه الأسئلة. كان من الواضح أنَّ القاويش أوقع به بعد أن صرح للصحف بأنَّ النساء هُن سبب الحادث، لذا فقد اندفع «حسين» كاشفًا كُل شيء بحدة وافتخار. تحدث عن المشاركين معه في اغتيال أمين عثمان، وغيرهم المشتركين في محاولة قتل النحاس، ثُم باقي أفراد الجماعة، مُكررًا أن الغرض هو تحقيق استقلال مصر ومطاردة الخونة. فتح «كامل القاويش» نوافذ الاسترسال أمام «حسين» بسعادة، ثُم سأله في النهاية عن سبب وصمه ل»أمين باشا عثمان» بالخيانة، فأجاب:

كُل الناس تعرف خيانته.

ابتسم بمكر وسأل:



هل واجهته؟ هل منحته حق الدفاع عن نفسه؟

ردَّ «حسين» بحدة:

لقد سمعت دفاعه بنفسي في رابطة النهضة.هو خائن لبلده وعقوبة الخيانة هي الموت.

نظر وكيل النيابة بتركيز إلى وجه المتهم وسأل:

ماذا يعمل والدك؟

وكيل وزارة المواصلات.

هزَّ رأسه وسأل:

هل لو اكتشفت خيانته ستقتله؟

ران صمت على شفتي «حسين»، لكن سرعان ما قال:

نعم، بكل تأكيد.

إذن لمَ لم تقتله؟ وهو في منصب وكيل وزارة المواصلات يضع جميع خدمات البلاد تحت تصرف



الإنجليز.

لم ينطق، وفكر أنَّ الأمر مختلف، لكنَّه تذكر كم يحتقر والده. لقد كان يحب توفيق الآخر، السابق، الوطني، المُتقد غيرة على بلاده، والذي شارك في خلية اغتيال بطرس غالي قبل أكثر من ثلاثة عقود.

أنهى «حسين» اعترافاته ثُم خرج من الحجرة ليصطحبه الحارس إلى حجرة أخرى وجد فيها القائمقام إبراهيم إمام الذي بدت ملامحه أكثر صرامة، فجلس، لكنَّ صوتًا زاعقًا أمره بالنهوض مرة أخرى قائلًا:

قُم. لم أسمح لك بالجلوس.

اهتزَّت أوصاله قليلًا، لكنَّه سرعان ما سيطر على أعصابه، حتى قال له الضابط:

لقد أخبرني سعيد أنَّك تعرف الحاج محمد.

سعيد؟ متى؟

لقد حققت معه وأنت عند وكيل النيابة.

هزَّ رأسه مُستسلمًا:

نعم أعرفه. محمد أنور السادات. إنه يُحبك ويحترمك.

عظيم. أريد أن أرُد له هداياه إلي، وهذا لن يحدث إلا بعد أن تُخبرني كيف أجده.

وأشار بيده إلى الكُرسي وقال:

اجلس أستاذ حسين. تفضل.

جلس بهدوء وقال له:

سأخبرك بكُل شيء.

***

اعتاد القائمقام «محمد إبراهيم إمام» بحث القضايا وقت الشروق، مُستبشرًا كعادته بساعات البكور التي علمه والده أنها الأكثر نفعًا وبركة. جلس في مكتبه



وبين أصابعه قلم منتمور أهدته له زوجته قبل أيام يُشخبط ويرسم على ورق أبيض، مُفكرًا في تفاصيل أكبر قضية يُحقق بها مُنذ التحق بالبوليس السياسي. كان أمامه خيوط عديدة تؤكد أنَّ هُناك جُناة خارج الحبس فكروا وخططوا وأمروا، وأنَّ الصبيان الذين وقعوا ليسوا سوى شباب ساذج يُساق دون دراية.

لقد اعترف «حسين توفيق» على زملائه «محمود يحيى مراد»، و«محمد إبراهيم كامل»، و«عمر أبو يعلى»، و«محجوب »، و«سيد»، و«الشافعي»، و«محمود الجوهري» وشقيقه «سعيد»، وابنيْ خالته «نجيب» و«مدحت»، لكن يبدو أنَّ هُناك تنظيمات أخرى موازية في الخارج تعمل لدعمهم وإفساد القضية، وإلا كيف يمكن تفسير سلسلة الحوادث الغريبة التي جرت على مدى عدة شهور بعد القبض على جماعة حسين توفيق؟ هكذا تساءل مُتذكرًا كيف أعقب القبض على «أنور السادات» تعرَّض «عبدالعزيز أفندي» الشاهد الرئيس في القضية الذي رأى «حسين توفيق» أمام مسرح الجريمة للتهديد ثُم لإطلاق



الرصاص عليه، ثُم تعرضت أوراق القضية نفسها للسرقة من جانب شاب غامض كان يسير وراء حاجب المحكمة ثُم اختطف منه كل ما يحمله من أوراق. كما تعرض شاهد آخر في القضية هو كونستابل ميدان العتبة لإطلاق رصاص عليه من مجهولين مما دفعه للعدول عن شهادته مُدعيًا أنَّه لا يستطيع التيقن من الجاني.

طقطق «إبراهيم إمام» أصابعه وهو يستعيد مشهد «توفيق بك» في أول استدعاء له وهو مُستسلم لفكرة قيام ابنه بقتل أمين عثمان، والقول بأنَّ ابنه مُصاب بمرض بشبكية العين يؤثر على قواه العقلية، ثُم تراجعه في ساحة المحكمة عن أقواله، ورد الاتهام بأنَّ ابنه تعرض لضغوط شديدة من البوليس السياسي للاعتراف بما لم يرتكب.

رسم وجهًا عريضًا مسحوبًا لأسفل وحوله وجوه صغيرة مُبتسمة مُندهشًا كيف تلاعب هؤلاء الصبية بالقضية فعاد «حسين توفيق» لينكر كُل ما اعترف به، ثُم عاد ليقول أنَّه لا يعرف أنور السادات وأن البوليس



السياسي طلب منه الاعتراف عليه. لقد نجح الشبان الصغار في مد آجال القضية لأكثر من عام بعد تطوع عشرات المحامين الكُبار واستدعاء وزراء وساسة وزعماء وضباط بوليس وأطباء نفسيين. تذكر الضابط ذا العقل المُتقد والمُحب للقراءة والثقافة. مقالات لصحفيين كثيرين انتهت إلى أنَّ محاكمة «حسين توفيق» وزملائه تحولت لمحاكمة لأمين عثمان، فأصبح أكبر آمال أنصاره هو أن يحصلوا له على البراءة من تهمة الخيانة.

قال «إبراهيم إمام» لنفسه وقلمه المنتمور يواصل الشخبطة على الورق إنَّ هُناك ثعلبًا وداهية كبيرا يُمثل وسيط جميع التنظيمات الإرهابية في مصر هو «أنور السادات»، الذي لا يخلو تنظيم يساري أو فاشي أو ديني من وجوده ولا يغيب عمل إرهابي عن علمه. إنَّه شخص موهوب في الإقناع، ومُخضرم في العمل السري، يعرف ما يريد، ويحقق ما يُخطط له، بأيدي غيره بينما تظل يداه دائمًا مغسولة من الدماء. مُنذ صار «السادات» غريمه وهو يعي أنَّ هذا الرجل نافذ



ولديه شبكات لا حصر لها من الإرهابيين والقتلة والمنتشين بحلم الثورة. سأل نفسه: لحساب مَن يعمل السادات أو الحاج محمد كما يحلو للبعض تسميته؟ لثوار حقيقيين؟ للألمان؟ للإخوان؟ أم للسراي نفسها؟ أو ربما للإنجليز؟ لكن كيف؟

تذكر كيف بدأت متاعبه مع القضية مُنذ الأسبوع الأول عندما نادى المتهمون المحتجزون في الغرفة رقم 10 بسجن الأجانب على الحارس وهم يصرخون مُطالبين بسجائر، وعندما فتح الباب فوجئ بضربه بُقلة مياه شج رأسه على إثرها، ثُم استولوا على سلاحه، قبل أن يسمع هو الجلبة خلال مروره ويطلق رصاصًا في الهواء لإخافتهم ثُم يأخذ منهم المسدس المختطف. فكَّر كيف يدفعه الله دائمًا نحو الخطر فيُفلته ويكتب له السلامة بعد أن يرى شبح الموت مارًا أمامه. وعادت به ذاكرته إلى سنوات مضت كان فيها محل تقدير وامتنان قياداته لجرأته وخوضه للمخاطر دون تردد حتى أنَّه تلقى رصاصة في الصدر يومًا ما عندما نجح في إنقاذ المطربة أسمهان من القتل على يد زوجها.



قبل أيام قالت له زوجته إنّها تشعر بالقلق عليه خوفًا من تعرضه لاعتداء خاصة بعد أن أبلغها بنظرات الوعيد التي رماه بها «السادات» خلال شهادته في المحكمة وتعليقه على الشهادة بأن هذا الكلام لا يقوله إلا إنجليزي. قالت له إنّها تُقدر وطنيته وإخلاصه لعمله لكنها تعلم أنّ مُدعي الوطنية عميان، فأجاب بأنّه اعتاد السير في الظلام في حقول الألغام.

واصل الشخبطة على الورق وهو يُقرر أنّه لا يعرف مع مَن يلعب هذه المرة؟ إنّ القضية تبدو بسيطة بوجود أكثر من 50 متهمًا معظمهم طلاب في المدارس والجامعة ويقودهم شاب أهوج نرجسي مفتون بنفسه، لكنها في حقيقة الأمر معقدة للغاية، خاصة عندما يتعرض شهود القضية للإرهاب وتتحول الصُحف لنشرات تعظيم ومديح للجناة، ويطول أمد القضية ويصبح هو وباقي أفراد البوليس السياسي مُتهمين في حاجة لدفاع أمام الرأى العام. لقد كان مُدهشًا أن تتقدم إحدى الفتيات بطلب زيارة للمتهمين عارضة

الزواج على واحد منهم هو «محمد إبراهيم كامل» باعتباره فتى أحلامها.

وتذكر الضابط صولات جيش المُحامين المُحتشد للدفاع عن المُتهمين ونجاحهم في الإفراج عن عدد من المتهمين بعد تراجع «حسين توفيق» عن أقواله فخرج في المرة الأولى «جول أسود» و«محمد إبراهيم كامل» و«عزيز دياب»، ثُم في المرة الثانية تم الإفراج عن «محمد خليفة» و«أحمد خيري» و«عباس المرشدي» و«محمد الشافعي». وفكر أنَّ الأيام القادمة من المُحاكمة ستكون صعبة ومريرة.

***

ابتسم صاحب الوجه الأسمر ابتسامة انتصار وهو يُصافح بعينين صافيتين عيون شباب أسن يرونه أستاذًا ومُلهمًا. كانوا يُنادونه بحضرة اليوزباشي، لكنه كرر لهم مرارًا أنَّه صار خارج الجيش وبأنَّ اسمه مُنذ عدة سنوات صار «الحاج محمد». كان المُتهمون في قضية «اغتيال أمين عُثمان» عائدين إلى السجن بعد



زيارة اعتادوها للمحكمة لحضور إحدى الجلسات عندما حكى لهم «الحاج محمد» عن روعة السجن ومُتعة القُضبان، كان يستثير حماسهم وخيالهم وهو يكرر لهم أنَّ مُعظم الأبطال والزعماء التاريخيين دخلوا السجون، وعاشوا سنوات محرومين من الحرية. ذكر لهم ضرورة توزيع جميع المأكولات والحلويات التي تأتي لهم من ذويهم على جميع المتهمين، وكذا السجائر.

وطلب منهم الرجل تكوين فريق تمثيل لأنَّ أمد المحاكمات ستطول، وبالفعل اقترح عليهم تمثيل مسرحية عن الخليفة هارون الرشيد كتبها خلال أيام الحبس الأولى، وقام بتوزيع الأدوار ليحتفظ لنفسه بدور هارون، ثُم اختار دور السياف ل«حسين توفيق»، ودور كبير الحجاب ل«سعيد توفيق»، ودور اسحق الموصلى ل«عمر أبو يعلى»، ودور رئيس وفد الإفرنج ل«محمود يحيى مُراد»، ودور قهرمانة ل«سيد خميس». تبدأ المسرحية بقيام هارون الرشيد بدعوة الجارية قهرمانة للغناء فتشدو بأغاني تمجيد في قوة



وعدل الخليفة ليطرب الحاضرون، ويطلب هارون اعادة الغناء مرة واثنتين وثلاثا، ويقاطعه كبير الحجاب مستئذنا في دخول وفد الإفرنج، ليدخل رئيس الوفد ومعه هداياه طالبًا من الخليفة التعاون مع بلاده فينفعل مسرور السياف، ويقول للخليفة إنَّ الإجانب لا يحفظون العهود ولا يحترمون الحدود، ويطلب أن يسمح له الخليفة بقطع رأس رئيس وفد الإفرنج، فيُهدئ الخليفة من غضب سيَّافه ويؤكد له أنَّه لا يسمح بقطع رأس رسول، ثُم يأمر رئيس الوفد بالمغادرة فينطلق متبوعًا بشتائم ولعنات حاشية الخليفة، لتعود قهرمانة للغناء مرة أخرى.

بعد بدء المحاكمات صار السجن أشبه باستراحة مُنعزلة فيها جميع وسائل الراحة والترفيه، فكان المتهمون يقضون الساعات في تبادل النكات وسرد حكايات الغرام ولعب الشطرنج، وكان «الحاج محمد» بشوشًا ومُقبلًا على الحياة، مُستمتعًا بها، وهو ما دفع «حسين» إلى محاولة تقليده مُبديًا كثيرًا من المرح المُصطنع. وفي يوم طلب «الحاج محمد» حلويات من



أحد أكبر المحلات ودفع حسابها، وأخبرهم أنَّ تلك الحلويات للاحتفال بنقل السفير لامبسون من مصر، مُكررًا أنَّ هذا الرجل كان أسوأ ممثل إنجليزي منذ بدء الاحتلال.

بدأ «السادات» كشخصية ساحرة قادرة على طمأنة الجميع بأنَّ رجاله في كُل مكان سيفسدون كُل شيء خاص بالقضية، وسيخرج جميع المتهمين دون عقوبات تذكر نظرًا لحداثة أعمارهم. ومع الوقت تجاوب المتهمون من أعضاء التنظيم مع مرح ولامبالاة السادات، غير أنَّ «نجيب فخري» الذي رأى أنَّه دُفع به دفعًا ضمن المُتهمين كان يشعر بالندم لأنه لم ينخلع تمامًا عن «حسين» وأصحابه عندما تورطوا في أعمال القتل، وظل على علم بما يفعلون ومشاركًا في التخطيط دون التنفيذ.

وذات يوم فوجئ المتهمون برؤية شاويش ضخم الجُثة، قاسي الملامح، وحاد النظرات في حوش التريُض، ودنا منهم سائلًا إن كانوا هُم المُتهمين بقتل أمين باشا عثمان فهز «محمود مراد» رأسه بالإيجاب،



ففوجئ به يُخبره أنَّه عشماوي. ولما التف حوله باقي الجماعة قال لهم إنَّه ينتظر الحُكم عليهم بفارغ الصبر لأنَّه مرَّ عليه وقت طويل لم يُنفّذ فيه حُكم إعدام، ثُم بدأ يصف لهم كيفية تنفيذ الإعدام واصفًا لهم سُمك الحبل وطريقة لفه حول الرقبة، ولحظة رفع مقبض طبلية الإعدام، وشهقة المُذنب وهو يلفظ روحه، بعد أن تنكسر رقبته نتيجة الشنق. وحكى لهم كيف كان مُساعدًا لعشماوي وقت إعدام شفيق منصور في قضية الاغتيالات قبل أكثر من عشرين عامًا وتابع بكاء المُذنب عند تغطية عينيه بكيس أسود.

كان لوقع الكلمات في نفوس الشباب الصغير أثرها الموجع إذ بدأوا لأول وهلة يتخيلون أنَّه من الوارد الحكم عليهم بالإعدام، ولم يستطع «حسين» رغم دعابات «السادات» أن يمحو من رأسه مشهد المشنقة وبذلة الإعدام الحمراء وهي تلتصق بجلده. كان يرى أنَّه لم يُحقق بعد ما تصبو إليه نفسه من إشعال الثورة وقيادة البلاد وتحقيق العدل والمساواة على الأرض الطيبة التي أحبها رغمًا عنه. فكَّر كثيرًا في أمه



الملهوفة عليه دائمًا والمُنصاعة لمطالبه والمُبررة لأفعاله أمام والده، وشعر كم هي تُحبه، لكنَّه لا يُبادلها ذات الشعور رُبما لجذورها التُركية أو تكبُرها على الخدم والبسطاء. راجعت ذاكرته مشاهد والده وهو يؤنبه مرارًا على إهماله لدروسه، مُستقرئًا بين عينيه نظرات حنان مكتوم، ومُقنعًا نفسه بأنَّ الأب مهما كان حُبه لأبنائه يجب أن يبدو قاسيًا حتى تستقيم له القيادة، وهو نفس حال الزعيم الذي لابد أن يحمل قدرًا من الحدة حتى يتسنى له تنفيذ أفكاره. تذكر «حسين» وجه «سناء» شقيقة صديقه وزميله في الكفاح «محمود مراد» وتساءل إن كان سيراها مرة أخرى أم لا؟ وهل هي مُعجبة ببطولته؟ هل تشتاق لرؤيته كما يفعل؟ قال إنَّ الحُب كثيرًا ما يختنق في بلاد القهر وأزمنة الكفاح، لكنه لا يُمكن أن ينخلع تمامًا عن النفس الإنسانية لأن الله خلق لكل إنسان قلبًا، وزرع في كل بني البشر مشاعر وأحاسيس. كان يعلم أنَّ علاقته بـ«ميمي» لم تكُن علاقة حُب لكنه كان يشعر بنوع من الألفة معها، وبحالة من الاعتياد والرضا تجاهها. ترى هل هي سعيدة الآن وهي مُستلقية تحت



ضابط في البوليس السياسي تئن وتتأوه تلذُذًا؟ هل تسُرها قُبلاته وهل تذوب بين ذراعيه مثلما كانت معه؟

مرَّت الأيام بطيئة، مُملة، بين جلسة وأخرى نقاشات حادة ومفاجآت عدة. توفي وكيل النيابة المسئول عن القضية فجأة، فتم انتداب غيره ليحلّ محلّه، في الوقت الذي تتابعت فيه أحداث فلسطين بسرعة بعد إعلان اليهود قيام دولة إسرائيل واعتراف الرئيس الأمريكي ترومان بالدولة الجديدة. كانت الصحف تنشر أنباء المذابح المرتكبة من جانب عصابات اليهود ضد السُكان العرب العُزل، داعية لنصرة الشعب الشقيق والتطوع لقتال اليهود، بينما اجتمعت الحكومات العربية لتنسيق التعاون والتدخل بجيوشها في فلسطين. قرأ «حسين» لزملائه مقالًا لكاتب بروزاليوسف يدعو الناس للتطوع في فلسطين، وعلّق «السادات» بأنَّ مَن فشل في طرد المُحتلين عن بلاده لا يُمكن أن يطرد اليهود عن فلسطين. شعر «حسين» أنَّ السجن يحجزه عن المشاركة في قتال اليهود



الأوغاد مُقتنعًا أن كُل ما تفعله الحكومات العربية وحكومة بلاده من بينهم مُجرد تمثيل في تمثيل مثلما هو كائن في مسرحية هارون الرشيد، وقرر أن بقاءه في السجن سينتهي به إلى الموت حتى لو لم يُحكم عليه بالإعدام، لأنَّ حرمانه من ممارسة دوره الذي اختاره لنفسه في الحياة يمثل حُكما بنهايته كبطل ومناضل. هكذا فكّر قبل أن يخلُد للنوم في العنبر رقم 10 في سجن الأجانب.

***

عاد «توفيق بك» إلى منزله بعد سلسلة إجراءات خاضها هو وعدد من المحامين للسماح لابنه المحبوس في قضية اغتيال «أمين عثمان» بالتردد على عيادة طبيب الأذن والحنجرة بناء على شكوى تقدم بها. أخبر زوجته أن «حسين» سيكون بين ذراعيها خلال ساعات، ثُم سيترك مصر نهائيا بعد ذلك للإفلات من موتٍ محتوم. سرت دماء السعادة في شرايين السيدة «سميرة»، وشعرت باسترداد الحياة بعد شهور من الحسرة والقلق على مصير بكريها المشوش نفسيًا.



استفسرت منه عما جرى فأخبرها أنَّ ضابطًا من البوليس السياسي زاره قبل أيام ونقل له تقدير السراي لوطنية نجله وتشكيل مجموعة عمل لإنقاذ حياته وتهريبه خارج البلاد. في البداية لم يُصدق «توفيق بك» حتى أقسم له الضابط أنَّ ما يقوله حق، وأنَّه يفعل ذلك دون علم رؤسائه في العمل، وبتوصية خاصة من جلالة الملك شخصيًا. كان «توفيق بك» قد سعى لدى عدد من الأطباء النفسيين لاستخراج شهادات تفيد عدم مسئولية ابنه «حسين» عن أفعاله بعد أن أكد له المحامي الكبير الذي لجأ إليه صعوبة إفلات ابنه من حُكم الإعدام خاصة أنه شبه متلبس.

سألته السيدة «سميرة» كيف سيهرب ابنها، فأشار إلى الحمام قائلًا إنَّه أمر بخلع حديد نافذته ليعبُر الهارب إلى الفناء الخلفي للحديقة وهُناك سينتظره ضابط البوليس السياسي بسيارته ليأخذه إلى مقر آمن لحين ترتيب سفره خارج القطر. بدت مُبتهجة، مُعلنة أنَّ اللّٰه استجاب لدعواتها لإنقاذ ابنها الحبيب، مُكررة أنَّها على



يقين بأنه سيتعلم من تجربته وسيُصبح ابنًا يبعث على الفخر.

مرَّت ثلاث ساعات كالدهر، وصل بعدها «حسين» بصُحبة ضابط وعسكري بعد أن ذهب معه إلى عيادة طبيب الأنف والحنجرة، ثُم ترجاه أن يتناول غداءه في البيت، بينما غادر «توفيق بك» حتى لا يبدو مُتهمًا بالتخطيط لتهريب ابنه. بدا الضابط كمال الدين علي مُغتبطًا وهو يُشاهد فرحة السيدة سميرة برؤية ابنها واحتضانه بين ذراعيها، وتذكر التوصية التي تلقاها من رئيسه المُباشر بعدم التضييق على «حسين» خلال اصطحابه لزيارة الطبيب، لذا فقد استجاب لرجائه بالمرور على والدته المريضة قبل العودة للسجن. شعر بالامتنان لإلحاح والدة حسين لتناول الغداء معهما، واعتذر مؤكدا ضرورة العودة قبل الخامسة مساء التزامًا بالتعليمات، ثُم قبل أخيرًا أن يتناول فنجانا من القهوة المضبوط قالت السيدة إنَّها ستعدُه بنفسها. نظر الضابط إلى «حسين» فوجده مُستكينًا كالعادة، ينظر لأسفل، فتساءل إن كان نادمًا على ما فعل أم إنه كما



يرُدد دائمًا بريء وقع ضحية عملية تلفيق مُنظمة قام بها إبراهيم إمام. قال لنفسه إنَّ «إبراهيم إمام» رجل بوليس قوي وثعلب ماكر لكنَّه شريف بالدرجة التي تمنعه من تلفيق اتهام كهذا لبريء. لحظات ورأى فنجان القهوة يتقدم بين يدي السيدة «سميرة»، ذات الوجه البشوش الذي لا يتناسب أبدًا مع الظروف المُحيطة بابنها. خمّن أنَّ سعادتها برؤية ابنها منحت وجهها البشر والحيوية فبدت كزهرة بنفسج جميلة. رمقه «حسين» بنظرة استعطاف قبل أن يسأله في أدب جمّ:

هل تسمح لي بدخول الحمام؟

رمى باب الحمام المواجه له بنظرة فاحصة سريعة قبل أن يُجيب:

تفضَّل. لكن لا تتأخر سنغادر خلال ثلاث دقائق.

كافية.

نطق «حسين» وهو يعي أنها كافية لتنفيذ ما أنبأه به والده عبر رسول يعمل في السجن. ذهب إلى الحمام وأوصده خلفه وبسرعة تدلّى من نافذته ليمر إلى الفناء الخلفي بعيدًا عن العسكري المُصاحب للضابط المنتظر في السيارة أمام باب البيت. قفز من السور بسرعة ليجد أمامه سيارة سوداء كاديلاك ففتح بابها لتنطلق بعيدًا مانحًا السائق نظرة استفسار.

شعرت السيدة «سميرة» بضيق الضابط الذي نادى بصوتٍ عالٍ:

تأخرنا يا حسين.

قامت بسرعة لتجلب للضابط ألبوم صور لابنها عندما كان صغيرًا وهي تقول:

سأعرض لك صورًا عجيبة لحسين وهو طفل صغير، وستعلم يقينًا أنَّه لا يُمكن أبدًا أن يقتل فرخة.

ابتسم في دبلوماسية، وحاول التملص، لكنَّه انصاع تحت إلحاحها مُستغربًا كيف لسيدة في مثل ظروفها



أن تتحلّى بكل هذه الصلابة والقوة. جاراها في تأمل الصور للطفل اللاهي بكرة، والجالس وسط أقرانه في احتفال أشبه بعيد ميلاد، والمُرتدي لبذلة وطربوش لا يُناسبان مَن هو في العاشرة من عُمره، وتابعها مُبتسمة وهي تُقلّب صفحات الألبوم أمامه واحدة وراء واحدة. تأخر «حسين»، فاستثقل الضابط الوقت، وقال لسيدة البيت:

أنا آسف يا هانم. يجب أن نتحرك الآن.

ثُم نادى بصوتٍ عال:

حسين. تأخرنا يا حسين.

كرَّر النداء، فأشارت السيدة «سميرة» لصورة أخرى، لكنه سمع دبيب القلق في نبضات قلبه، فقام مُسرعًا ليطرق باب الحمام دون مُجيب، فضربه بقدمه بقوة لينفتح على خواء. نظر إلى النافذة المفتوحة، ثُم قرأ في عيني السيدة نظرة طمأنينة وانتصار فصرخ بصوتٍ عالٍ:



هرب. خدعتموني.

وأخرج مُسدسه وجرى في أنحاء البيت مفتشًا يمينًا ويسارًا، ودخل الغرف لينظُر تحت الأسرَّة ويفتح دواليب الملابس ثُم خرج إلى الحديقة وجابها، وصرخ في العسكري الواقف أمام الباب إن كان قد رأى «حسين»، فنفى، فعاد إلى البيت وقال لصاحبته:

سأطلق الرصاص على رأسي إن لم تُخبريني الآن مكان حسين.

اهدأ.

قالتها في برود، لكنَّه واصل الصراخ مهددًا بالانتحار، مما دفعها أن تُدير قُرص التليفون سريعًا طالبة من زوجها الحضور بسرعة.

في الوقت نفسه كان «حسين» قد هبط أمام إحدى البنايات في شارع قصر العيني، عندما قال له السائق:



في هذا البيت ستصعد إلى الطابق الثالث، ستجد الباب مفتوحًا، ادخل دون كلام وانتظر التعليمات.

ضربه رصاص الدهشة، وكرر سؤالًا طرحه مرارًا خلال الطريق من مصر الجديدة إلى قصر العيني دون مجيب:

مَن أنت؟

ابتسم الواقف أمامه، وقال في ثبات:

سأقول لك الآن. أنا اليوزباشي محمود موسى من البوليس السياسي، لقد قُمنا بتهريبك تنفيذًا لتعليمات جلالة الملك. إنَّه يُقدّر وطنيتك، ويُقدر أنَّك خلصت مصر من أحد الخونة. اصعد الآن، ستجد كُل شيء على ما يرام.

لم يُصدق، وجرَّ ساقيه ثلاثة طوابق نصف مُظلمة ليدخل إلى شقة واسعة مؤثثة أثاثًا كلاسيكيًا فريدًا. شاهد بيانو خشبيًا كبيرًا، وتماثيل نُحاسية بديعة، وبارًا خشبيًا، تمتد عليه عدة مقاعد مستديرة، وصالونًا

ذهبيًا ضخمًا. جلس مُستغربًا، فوجد شابًا أبيض البشرة، متوسط القامة له عينان عسليتان، صافحه في اهتمام وقال له:

إحسان.

أهلًا.

هذه غرفتك. أرجوك لا تخرج منها أبدًا، في الصباح سيأتي الخادم، وهو يعلم أنَّ هذا الغرفة مغلقة على متعلقات والدي ولا يفتحها. لكن لا تُحدث صوتًا. سأمرّ عليك كُل مرة في الصباح ومرة في المساء. وسأجلب لك كُل ما تحتاج.

سحب يدُه الدافئة وأشار إلى الغرفة قائلًا:

ارتاح الآن. وأغلق الباب من الداخل.

ابتسم وشعر بحاجة ماسة للتدخين، ونظر إلى صاحب البيت وسأل:



هل لديك سجائر؟

لا. لكنَّك ستجد سجائرك على السرير داخل الغرفة.



الفصل الثاني

دمشق

هتفت غير مُصدقة:

حسين.

واقفًا بملابس ضابط سوداء أمام باب الشقة المُنفتح، لاهثًا من صعوده سريعا على السلالم، زائغًا بعينين قلقتين تخوفًا من صاعد أو هابط. هكذا رأته سناء بعد أن توقعت ألف طارق وطارق لباب شقتها سواه.

هل أدخل؟

سألها، فأسرعت لتفتح الباب وهي تهتف:

تفضَّل.

دلف بخطوات مُتعبة مُتذكرًا نصيحة صديقه «سعد كامل» الذي التقاه مُتخفيًا ألا يجلس في مكان أكثر



من نصف ساعة على الأكثر، خاصة أنَّ عيون «إبراهيم إمام» تبحث عنه في كل شبر يتوقع مروره به. منحها نظرات إعجاب طاغية مُتمنيا اعتصار جسدها النحيل بين ذراعيه. قالت له:

قرأت خبر هروبك، وتوقعت أن تذهب إلى أي مكان إلا أن تأتي هُنا؟

جلس مُتفرسًا في وجهها الأرق لاثمًا بخياله تلك الشفتين الرقيقتين، متذكرًا أنف زميله «محمود مراد» المُشابهة لهذه الأنف، ثُم سألها:

لِمَ؟

قالت:

لأنك لم تزرنا من قبل، خاصة بعد أن انقطع والدك عن السؤال علينا بعد وفاة ماما.

ابتسم وهو يرمقها، ثُم قال:



كُنت مُخطئًا.

والدتك كانت دائمًا لا تحب زيارة خالي توفيق لنا.

واصل التحديق في عينيها وقال:

هي مُخطئة. دائمًا مُخطئة. المهم يا سناء الخطأ يمكن تصحيحه، وهذا هو دورنا. أن نصحح أخطاء آبائنا.

هزَّت رأسها مبدية التفهم، ثُم قالت:

لكن لا يُمكن تصحيح خطأ بأخطاء أكبر.

لا أفهم.

وقفت وسألته:

ماذا تشرب أولًا؟

لا وقت يسمح بشراب. أمامى خمس وعشرون دقيقة، بعدها ستكون السيارة مُنتظرة للمغادرة.

إلى أين يا حسين؟



خارج مصر. لكن لا عليك لقد جئت لأمر آخر. قُولي لي أولًا ماذا تقصدين؟

جلست مرة أخرى، وقالت بهدوء:

أنا لا أجد وصفًا لما فعلتموه أنت ومحمود ومَن معكم سوى الجريمة. لقد قتلتم روحًا.

قتلنا خائنًا. خان بلده وناسه و...

ليس من حقكم. القتل لا يعني سوى القتل. لقد تألمت عندما رأيت صورة عائشة ابنة أمين عثمان في الصُحف وهي تبكي والدها.

أخرج سيجارة وأشعلها وقال ل»سناء»:

اسمعي يا سناء. كُل الأعداء بشر لهم أبناء وزوجات وعائلات، لكنَّ ذلك لا يعني أنَّهم ليسوا أعداء. في بعض الأحيان فإنَّ القتل ضروري لخدمة الأوطان.



أنا أكره الدم عمومًا، والعنف لا يحقق استقلالًا، والقتل لا يُحرر بلدًا.

نفثّ خيطًا طويلًا من الدُخان في الهواء وقال لها:

أنتِ مازلت صغيرة لا تعرفين ماذا يفعل الإنجليز وأعوانهم بالمصريين الغلابة. إنَّهم يروننا جميعًا حشرات وأغبياء وكسالى، ولا يتصوروننا سوى خدم لهم. لو لم نقتلهم سيقتلوننا.

غير صحيح يا حسين. والدليل أنَّ كثيرا من المصريين الناجحين وصلوا لأعلى المراتب ولم يتعرضوا لقتل أو اضطهاد أو تعذيب.

تذكَّر حديث الصحفي «إحسان» الذي استضافه في بيته، عندما قال إنَّه لا يقرّ ما فعله، لكنَّه يرى أنَّ الواجب يدفعه دفعًا لحمايته وإنقاذه لأنَّه لا يستطيع رد مَن يستجير به، وقد استجار به «سعد كامل» المحامي الذي يعمل ضمن شبكة مهمتها تهريبه. كرر



«إحسان» أنَّه لا يجد بطولة في قتل مصري، وأن الأولى قتال اليهود الذين سحقوا شعبًا وسرقوا أرضه.

قال «حسين» ل»سناء»:

هل تتصورين أنني حملت روحي بين كفي وخاطرت بنفسي لأجل وهم. إنَّنا نعرف جيدًا أننا مُعرضون للموت والسجن والتعذيب، لكننا نؤمن بما نفعل ونعتقد أنَّ الخلاص لا يتحقق دون رصاص. اسمعي يا سناء. يا ابنة عمتي. لقد جئت من أجل شيء آخر، أنتظر إجابة سريعة عليه قبل أن أغادر.

صمت قليلًا وهو يلحظ آثار كلماته في عينيها، ثُم قال:

إنني أودُّ أن تكوني لي. أشعر بانجذاب حقيقي ناحيتك، وأتمنى لو تقبلين الزواج مني. سأسافر غدًا مساءً، ولو وافقتِ ستكونين معي. سنبني بيتًا ون...

قاطعته بسرعة:

سافر.

طعنة مُباغتة قبلها على مضض، قبل أن تستكمل ذبح فريستها:

ألا تعلم يا حسين أنني مُرتبطة؟

ماذا؟

نعم أنا مرتبطة بابن خالتك نجيب، وهو شخص طموح ومُثقف وأحبه ويحبني وقد تورّط في مغامراتك رغمًا عنه.

لاح له وجه «نجيب» وهُما صغيرين وهو يؤدي دور التركي ويتلقى لكماته، ثُم تذكر حديثه معه عن أول فتاة، وأول قُبلة، فقام مُستئذنًا، لكنّها قالت له:

حسين. أنت تعرف يقينًا أن مصر والغلابة الذين تتحدث عنهم لا يستفيدون مما تفعل بأي صورة. أنت تدعي التضحية، وتبحث عن مجد شخصي.

ورفعت إحدى الصُحف المُلقاة على الأريكة لتُكرر:



أنت سعيد بصورك في الجرائد، وبالمكافآت المُجزية التي تُرصد للوصول إليك. أنت بطل كاذب يا حسين.

لا.

صرخ فيها، وقام من فوره بعد أن شعر بالدم يتدفق في رأسه، ثُم فتح باب الشقة ليهبط مُسرعًا دون أن ينطق بكلمة. كان يشعر أنَّ الحسناء التي أحبها عزّته، وأسقطته أرضًا قبل أن تطلق عليه رصاص سخريتها. تلك الجبانة المُطأطئة الباحثة عن زوج مُثقف، طموح في زمن قاهر ووطن مقهور. تذكر كلمات «إحسان» له بأنَّ النساء هُنَّ السؤال الذي لا يستطيع بشر أن يُحدد له إجابة واحدة. ظل يمشي ببطء حتى اقتربت سيارة سوداء منه، ثُم وقفت، ففتح بابها ليجد اليوزباشي «محمود موسى»، فاستغرب خاصة أنَّ «سعد كامل» هو مَن قام بتوصيله، لكنَّ الضابط أوضح بهدوء:

التأمين يتطلب تغيير السيارة والسائق. تصوّر، لقد استدعى إبراهيم إمام صديقنا إحسان ويبدو أنَّه يشُك فيه. ستبات اليوم في بيت في العباسية وفي الصباح



سأقلك إلى السويس، ومنها ستسافر إلى العقبة، وستجد في انتظارك ضابطًا صديقًا سيعتني بشئونك.

هزَّ رأسه وقال:

خسارة. حسبت أنَّ إبراهيم إمام يعمل لصالح الملك.

للأسف لا.

***

أفلت ذو الوجه الصارم من ثُقب إبرة. في الميناء تسلل مساءً ليرقُد مع الحقائب في المخزن ذاته الذي لا يُشم منه سوى رائحة الجلد. مضى «حسين» مُستسلمًا لمسار رسمه له آخرون لا يعرفهم ولا يعلم دوافعهم الحقيقية. فكّر. كيف يُمكن لملك مُنسحق الشخصية يغلُب عليه طيش الأطفال مثل «فاروق» أن يُسخر رجالًا وشرطيين وبيوتًا وسيارات وأموالًا ليُساعدوه على الفرار من المُحاكمة! ما السبب المُباشر في أن يتحول حاكم يُفترض أنه له سُلطات إلى العمل السري بعيدًا عن القانون؟ هل هو يرى في قتل «أمين عثمان»

عملًا بطوليًا بالفعل؟ ولو كانت الضحية «أحمد ماهر» أو «النقراشي» أو غيرهما، هل كان سيفعل الأمر نفسه؟

إنَّ جميع الساسة في تصور «حسين» ملوثون، ضالون، يُقدّرون الإنجليز وينحنون أمام طلابهم، وحتى المليك الكاره للإنجليز، هو في حقيقة الأمر مجرد شخص خاضع وذليل أمام إرادة السفير الإنجليزي الذي يتدخل في حياته نفسها دون أن يشعره ذلك بشيء من الخجل. أي مليك تافه هذا؟ وأية شرذمة جاهلة تتبعه دون وعي؟ سأل نفسه، مُجيبًا أنَّ الأوضاع المقلوبة في بعض الأحيان تفيد، وإلا لما خلُص عُنقه من حبل عشماوي.

أشعل سيجارة، واستعاد نص الخطاب الذي كتبه للصحفي إحسان لينشره في مجلة روزاليوسف وقال فيه إنَّه قرر التطوع للقتال في فلسطين أمام عصابات الصهيونية واهبًا حياته لنصرة الشعب الفلسطيني العربي.



تذكر «حسين» لوم «سناء» الموجع، وردها القاسي عليه، وفكَّر أنَّها أنثى قبل أي شيء، ترغب في الاستقرار، وتحلم بالبيت السعيد، والزوج العصري. هي فتاة رقيقة نعم، لكنَّها لا تنظر لمجتمع محيط، ولا تهتم بوطن مسلوب. إن «نجيب» سيكون مناسبًا لها، بهدوئه واتزانه وانفتاحه على الحياة، وبثقافته ومرحه وحُبه للفنون. أما مَن تختارهم الأقدار ليغيروا التاريخ ويبدلوا مسارات الأمم فلا حظَّ لها في مثلهم، ولهؤلاء بلا شك نوعية خاصة من النساء، تتحمل الشدائد، ولا تعبأ بالمحن، وتؤمن بالفداء والتضحية. قال لنفسه إنَّه لا يحنق عليها، ولا يغار من «نجيب» فكلاهما خُلق لغير النضال، وهذا قدرهما.

فكَّر في «أنور السادات» وشعر أنَّه يُخفي عنه أمورًا كثيرة، متصورًا أنَّه لا يمكن أن يكون ما جرى في القضية مُجرد صُدفة. أن يُسرق ملف القضية، ويُطلق النارعلى الشاهد الرئيس، ويُتهم «إبراهيم إمام» بالتلفيق، ثُم يُسمح للمتهمين بزيارة الأطباء ليهرب بسهولة ويُسر قبل أيام من النطق بالحُكم، ثُم يجد يد



المُساعدة تمتد إليه من داخل البوليس السياسي نفسه، وبعيدًا عن إرادة ثعلبه الداهية «إبراهيم إمام». رنا عبر قُمرة صغيرة بمخزن الحقائب لليل البحر المُظلم، مُتذكرًا ما قاله له اليوزباشي «محمود موسى» بأنَّ أحد رجال الأمن في العقبة سيلتقيه وسيصاحبه حتى عمّان، وهُناك سيرتب نقله إلى الحدود السورية بعد أن يمنحه هوية جديدة.

ليلتان قضاهما مُستيقظًا بلا صُحبة سوى السجائر والذكريات، حتى سمع صفارات الرسو، وجلبة انتهاء الرحلة. التحف بالصمت حين فُتح مخزن البضائع كحقيبة سفر انتظارًا ليد المُساعدة، ثُم شعر بالطمأنينة عندما سمع صوتًا في الظلام يُهنئه بسلامة الوصول. صافحه رجل قصير القامة قدم له نفسه باسم مروان، ودعاه أن يتبعه بهدوء، فسارا معًا عبر ممرات ضيقة خارج القاعة الرئيسية بالمحطة، واجتازاها بعد تعرجات يمينًا ويسارًا حتى وصلا إلى دائرة الجمارك حيث منحه هُناك أوراق هوية وعلبتي سجائر وتذكرة قطار ومفتاح شقة وورقة مدوّنًا فيها أحد العناوين في



عمّان. نظر لاسمه الجديد فوجده «حسين الراوي»، فحمد اللّه أن أبقوا له «حُسين» حتى لا يضطر على طمس ماضيه ومحو ذاكرته. سأل رفيقه مُستفسرًا:

وماذا بعد؟

قال «مروان»:

ستذهب إلى العنوان المدوّن أمامك، وستعيش كلاجئ فلسطيني من خان يونس حتى ينساك المطاردون أو يتوقف البحث عنك مثلما اتفقت مع «محمود بك موسى». وهُنا، فإن مُهمتي انتهت، لكن نصيحتي الوحيدة لك هي أنك في بلادنا تستطيع دائمًا الفرار متى أردت ذلك، ما دمت قادرًا على أن تدفع.

شكره «حسين»، ومضى ليبدأ حياة جديدة كغريب فرّ من مذابح اليهود في أرض فلسطين.

***



عمّان بلا قلب. لا أصدقاء ولا رفاق يُخففون وحشة المنفى وكآبة العُزلة. عبر التليفون طمأن أُمه بوصوله إلى بر أمان بعيدًا عن مُلاحقات البوليس والخونة وصائدي المُكافآت. علِم منها أنَّ ثمنه لدى الحكومة ارتفع لـ10 آلاف جنيه بعد أن صدرت الأحكام مُخففة على جميع المُتهمين. كان نصيبه حُكمًا غيابيًا بعشر سنوات مع الشغل، بينما كان نصيب «محمود مراد» و«محمود الجوهري» و«عمر أبو يعلى» و«سيد خميس» خمس سنوات، وحُكم على «مدحت» و«سعيد» و«محجوب» بثلاث سنوات فقط، بينما أفلت «السادات» و«محمد إبراهيم كامل» و«نجيب» تمامًا من أي عقوبة.

قالت له أمه إنَّ عليه متى استقر في مكان ما أن يُخبرها بعنوانه حتى يتسنى لها أن تُرسل له ما يكفيه من أموال. وأخبرته أنَّ والده فخور به، وأنَّه يُكرر في كُل مجلس أن «حسين» يشبهه تمامًا عندما كان صبيًا. لقد منحوه يوم هروبه نحو ألف جنيه مصري وصُرة

من الجنيهات الذهب التي ربطها في تجويفين صغيرين بكعبي حذائه.

جلس «حسين» على أحد المقاهى وأمامه حزمة من الصُحف مُستهلكًا ساعات الصباح في مُطالعة العناوين ومُتابعة آخر أخبار الهُدنة مُلاحظًا استمرار تدفق الأسلحة نحو العصابات اليهودية في تل أبيب وحيفا والفالوجة. كان الجنرال «جلوب باشا» هو قائد الجيش الأردني يُصرح بأن قواته أحرزت انتصارات مُذهلة على العدو، بينما كانت حكايات المقاهي تُكرر أنَّ الجيش الذي يقوده ضباط إنجليز ينسحب من أي موقع يتوقع فيه نشوب معارك حقيقية حتى أنه ترك كثيرا من المواقع الحيوية دون حراسة لتسقط في أيدي اليهود تباعًا. سمع «حسين» من رواد المقاهي حكاية ما جرى في قرية دير ياسين، عندما هاجمت مجموعة من المقاتلين اليهود القرية فجرًا للاستيلاء عليها واتخاذها نقطة انطلاق لقطع الطريق على جيش الفدائيين العرب، وفوجئ المهاجمون برصاص ينهمر عليهم من أحد بيوت القرية ليصرع 4 من مقاتليهم،



فما كان منهم سوى أن حشدوا أكبر قدر من القوات المُنظمة، وحاصروا القرية من مختلف الجهات، ثُم ذبحوا نصف رجالها أمام ذويهم، واغتصبوا عددًا من الفتيات قبل أن يذبحوهنَّ في مشاهد بثت الرعب والفزع في قلوب الجميع، حتى أن صحفيًا أمريكيًا كان يُتابع الحرب كتب أنَّ ما جرى في دير ياسين من وحشية يُمثل عارًا على البشرية كُلها.

شعر «حسين» بالجزع الشديد وهو يستمع لحوار بين فلسطينيين جلسا على المقهى مفاده أنَّ الجيوش العربية المُحاربة تشارك في الحرب استعراضًا فقط، وأنه لا يوجد قتال حقيقي إلا بين عصابات اليهود والفدائيين المتطوعين الذين يقودهم الضابط المصري أحمد عبدالعزيز. قال في نفسه ساخرًا: كيف يكون «النقراشي باشا» جادًا في قتال اليهود، وهو يُكرر كُل يوم دعوات الانبطاح والتزلف للإنجليز؟ وكيف يقاتل الجيش الأردني الصهيونيين وجميع قادته من ضباط الإنجليز؟ ثُم كيف تجتمع ست دول عربية لتحشد معًا أقل من ربع عدد المقاتلين اليهود؟ وخلص إلى أن ما



يجري مُجرد تمثيلية مثل ما يصدر من ساسة العار في مصر المحروسة.

لو كانت الأردن بلاده لما نام ليلة واحدة وذلك الملك المتوج بأمر بريطانيا والمُدعي أنَّه عبدٌ لله قابع على عرشه. شعر بكراهية شديدة تجاه تلك العينين الطافحتين بالمكر والخديعة في صورة الملك بالجريدة، ليقول لنفسه إنَّ الخونة دائمًا يتشابهون في نظراتهم، لكنه عاد وتذكر أنَّ عيني «النحاس باشا» تبثان نظرات مختلفة. قرأ خبرًا حول زيارة الملك للقدس بعد سقوطها في أيدي القوات الأردنية وتحته كُتب باللون الأسود «جلالة الملك عبدالله ابن البيت النبوي الشريف». ضحك «حسين» مُستنكرًا، وهو يتذكر حملة مُشابهة نشرتها الصُحف والمجلات المصرية قبل عام زعمت فيها أنَّ نقابة الأشراف أثبتت انتساب الملك «فاروق» لسلالة النبي محمد. كُلهم كاذبون، مُحتالون، ويتاجرون بكُل شيء. الدين والأخلاق ومصلحة الوطن، أما الأبطال الحقيقيون فمنفيون، ومطاردون، وممنوعون من الحُب. هكذا فكَّر

وهو يُدخّن سجائره بنهم شديد مُفكرًا في ضرورة مواصلة النضال بلا هوادة.

سمع صوتًا أمامه، فأزاح الجريدة ليجد أمامه شابًا طويلًا بملابس عسكرية يسأله في برود عن اسمه. واصل رسم اللامُبالاة ناظرًا نحو جريدته دون أن ينبس محاولًا قراءة ما يدور برأس الرجل الذي كرر سؤاله مرة أخرى قبل أن يُخبره بأنَّه من نقطة الأمن العمومي بعمّان وأن السيد «الليث» مفتش الأمن يطلبه. مدَّ «حسين» يده ببضعة وريقات مالية وضعها في جيب العسكري، ثُم سأله:

ماذا يريد؟

إجراء طبيعي للاستفسار عن اللاجئين. أنت تعرف ظروف الحرب.

نعم. اجلس.

قالها «حسين» الذي اشتَم رائحة الخطر، وتذكَّر كيف نصحه مُستقبله في العقبة، بأن يدفع مقابل الأمان. هُنا



كُل شيء له ثمن: المعلومة، والخبر، والطريق. مدَّ يده في جيبه، وأخرج جنيهًا ذهبيًا وضعه أمام العسكري سائلًا إياه:

هل أستطيع أن أثق فيك؟

حملق العسكري في الجنيه الذهبي مشدوهًا، ونظر يمينًا ويسارًا قبل أن يرُد بحزم:

بالطبع.

أشعل «حسين» سيجارة جديدة، نفثَّ منها في الهواء، وسأل مُكررًا:

إذن قُل لي بصراحة. لماذا يريدني السيد الليث مفتش الأمن؟

فكَّر العسكري قليلًا، وعاود النظر حوله ثُم قال:

لقد سألني عنك وتحريت سريعًا وعلمت أنَّك لاجئ من خان يونس، لكنَّه يظن أنَّك تشبه أحد المصريين



المطلوبين في القاهرة، والمرصود لهم مكافأة سخية، لذا فإنَّه يأمل أن يُسلّمك للسلطات المصرية ويقبض الجائزة.

مدَّ العسكري يده نحو الجنيه الذهبي، لكن كف «حسين» أمسكت بها قبل أن يقول وعيناه تلتمعان بالغضب:

اسمع. أنا الشخص الذي يبحث عنه رئيسك. ستأخذ هذه القطعة ومثلها ثلاث قطع إن أخرجتني من بلادكم.

إلى أين؟

سأل العسكري، فأجاب «حسين» قائلًا:

سوريا الُحرة.

ابتسم العسكري، وقال:



ليست حُرة تمامًا كما تتصور. لكن لا عليك. السفر إلى هُناك سهل للغاية، جهّز نفسك، وسأشغل عنك مفتش الأمن حتى تُغادر.

اتفقنا.

***

ثلاث ليال قضاها «حسين» في فندق الإخوة بالمارجة بعد وصوله إلى العاصمة دمشق، تلك المُفعمة بالحركة، الصاخبة بالحديث، قريبة الشبه بالقاهرة بأزقّتها ومبانيها وسمتها الشرقي الأصيل. بعد ذلك وجد دون جُهد شقة صغيرة بحي الصالحية ذي البنايات القديمة، والقُبب الحمراء، والبوابات المملوكية. شعر «حسين» سريعًا بالألفة في الشقة التي احتضنته بعد رحلة هروب جبري فرّ فيها من عمّان بمساعدة شرطيين. قال لنفسه إنَّ الشرطة التي تمسك هي ذاتها التي تُفلت وتُهرِب.

أحسَّ الشاب المُطارد أنَّ دمشق أقرب لقلبه من عمّان، وفكر أنَّ تلك الجُدران تضُم حنقًا وغِلًا ضد الاستعمار



ودُعاة الاستسلام، وهؤلاء الناس يمتلكون كبرياءً وأنفة تجاه كُل مستغرب. وذلك المسجد المجاور لمسكنه يضم رفات الشيخ الصوفي محيي الدين بن عربي الذي يذوب دراويش مصر في حُبه. زار «حسين» حي السيدة زينب، وقرأ الفاتحة لها في المقام الكبير المُقام لها مُندهشًا كيف يجد ضريحًا لها وللحسين في قلب العاصمة السورية مثلما هو الحال في القاهرة.

ومن مقهى لمقهى، ومن بار لآخر استعذب «حسين» اللهجة السورية، وشعر خلال أسابيع قليلة بأنه قادر على التأقلم معها والتحدث بها، وهو ما قاله له عم نظيم المصري صاحب المقهى الكبير بالمارجة، الذي صار ملاذًا مُحببًا للاجئ الفلسطيني المُزيف.

وذات صباح كان «حسين» يجلس بالمقهى عندما اقترب منه رجل أنيق يحمل حقيبة صغيرة مُقدمًا نفسه بأنَّه صحفي مصري اسمه يوسف عباس. كان من الواضح أنَّ الصحفي المُتطفل يحاول مقارنة هيئة وملامح «حسين» على صورة لديه في سجل الذاكرة رغم وجود شارب كث انزرع بالوجه المُستقبل لنظرات

الشك. كانت الضحكة المُجلجلة واللهجة الشامية التي حرص «حسين» على الحديث بها تدفع الصحفي إلى التراجع عن تصور الشبه مع قاتل «أمين عثمان». إنَّ آخر مشاهدة ل»حسين توفيق» في مصر كانت يوم هروبه من مسكنه وهو بصحبة ضابط الشرطة المُكلف بحراسته، وبعدها لم يعلم أحد أين اختفى، حيث ردّد البعض أنَّه ذهب إلى الصعيد حيث أخفاه بعض أقاربه، بينما زعم آخرون أنَّه صعد إلى جبال الصحراء مع المطاريد من المجرمين وقطاع الطريق، وادّعى آخرون أنَّ أفراد بتنظيمه السري قتلوه وأخفوا جثته ليتحول إلى أسطورة.

حاول الصحفي فتح باب للحوار مع «حسين توفيق» حول قضايا الاغتيالات في مصر، فقال له إنه كان شاهد عيان على اغتيال القاضي «أحمد الخازندار» عندما كان خارجًا من المحكمة وفي يديه أوراق قضية، فأطلق عليه اثنان من الشباب النار. ركز الصحفي كلامه إلى مُحدِّثه بأن ذلك كان بعد أسابيع قليلة من الحادث المأساوي لاغتيال أمين باشا عثمان.



وردَّ «حسين» مُكررًا حكايات سمعها في عمّان عن مذابح اليهود في فلسطين وضرورة توحد كُل الشعوب العربية لإنقاذها من توحش الصهيونية. ظلّ الصحفي يُحملِق في مُحدثه، ويُكرر بأنَّ حوادث العُنف في مصر اتسعت وتكررت بعد اغتيال «أحمد باشا ماهر» أمام البرلمان، بينما ظلَّ «حسين» يحكي مآسي اقتلاع الأرض من أصحابها في فلسطين ومنحها لليهود تحت حماية المستعمر البريطاني.

بعد ساعات من الكرّ والفرّ لم يجد الصحفي بُدًا من المغادرة، بعد أن يئس في إيجاد خيط واحد يربط اللاجئ الفلسطيني ب»حسين توفيق» سوى الشبه. دقائق لم تمض على اللقاء حتى وجد «حسين» كفًا تربُت على كتفه في مودة، ليُبصر خلفها رجلًا طويلًا أسمر ذا جبهة عريضة وعينين جاحظتين يقول له:

أحسنت يا أستاذ. أنت دائمًا حاذق.

بلع «حسين» ريقه، مُتفرسًا في المصري الآخر الذي يسعى للإيقاع به، فابتسم وردّد بلهجة شامية بأنَّ



الحرب في فلسطين لم تترك سوى الآلام والحكايا.

ابتسم الواقف، ثُم سحب كُرسيًا وجلس، وهمس:

لا داعي لذلك. حسين أنا أعرفك جيدًا. لا تخف. هُنا أنت في أمان.

أنا فعلًا حسين، لكن أنا من خان يونس ومن عائلة الراوي.

هزّ الرجل رأسه وغمز بعينه اليُمنى وكرر الهمس:

حسين توفيق من مصر.

ثُم قال مُقدمًا نفسه:

أنا عبدالقادر عامر. هل سمعت عني؟

سكت «حسين» محاولًا استلهام ذاكرته دون جدوى، ففكّر أنَّ عيون المُخبرين وصائدي المكافآت تتبعه من العقبة إلى عمّان ومن عمّان إلى دمشق. تذكّر أنَّ ما



لديه من مال قارب على النفاد، وأنَّه لن يصبح قادرًا على دفع المزيد من الرشاوى لهؤلاء المُتطفلين.

نادى «عبدالقادر» النادل وطلب قهوة ثانية، وقال:

هل سمعت عن حوادث تفجيرات الإسكندرية؟

هزَّ «حسين» رأسه بالإيجاب، فقال «عبدالقادر»:

أنا المُتهم الأول فيها، لقد اضطررت للهرب، أنا واثنان من زملائى في العام الماضي، ونحن نعيش هُنا بقليل من المال الذي يُرسله لنا أخي الأكبر.

تذكر «حسين» أنَّه قرأ أخبارًا عن القضية وهو في السجن، ثُم رنَت برأسه كلمات ل»أنور السادات» بأنَّ هناك مجموعات عديدة تُحارب وتقاوم الإنجليز. شعر بالطمأنينة تفيض من عيني جليسه، الذي صار أكثر ودًا وهو يتحدث بصراحة شديدة مُقررًا أنَّهم يبحثون عن قائد، قوي، وصلب، وماكر.

قال «عبدالقادر»:



اسمع يا حسين. أنا وزميلاي مُصطفى كمال ومحمد المرصفاوي هربنا بحرًا إلى سوريا، وحاولنا الانضمام لجيش الإنقاذ الذي يُحارب في فلسطين، لكنَّ عيون المُخابرات هُنا تتبعنا، وقد حذرونا مرارًا من أنَّ المشاركة في أي عمل ستدفعهم لترحيلنا إلى مصر.

أذّن أذان الظهر بصوتٍ جميل عذب أثار الذكرى في نفس حسين، مُسترجعًا ليالي صيد الجنود في شوارع القاهرة، ولقاءات جروبي، واجتماعات حجرة عثمان الجنايني، وقُبلات ميمي المحمومة على كورنيش النيل. طاف برأسه وجه السادات وهو يتحدث عن الفداء، وعين إبراهيم إمام وهي تُخفي خُبثًا وخداعًا، وطربوش النحاس وهو يتراقص فوق رأسه عندما وقف غاضبًا يُدلي بشهادته في قضية أمين عثمان.

نظر بامتنان إلى «عبدالقادر» وسأله:

لِم تراني مُناسبًا لقيادة مجموعتكم رغم أنَّك أدرى مني بمَن معك؟



ردَ «عبدالقادر» بنظرة طمأنة وقال سريعًا:

أنت اسم وتاريخ وعمل حقيقي. لقد كُنا نتابع قضيتك بتعاطف ومحبة، وأنت والسادات كُنتما لنا القدوة. هل تعرف. سيفرح مصطفى ومحمد بشدة لو علما أنني وجدتك هُنا في سوريا. سنضم أعضاء جُددا ونوجه نضالنا ضد الصهاينة. هُم أشد خطرًا على الأمة.

شعر «حسين» أنَّه وُلد من جديد. أبصر سلالم المجد تقترب من حذائه، وشاهد «أنور السادات» يبتسم مُشجعًا. قال:

القدر يرسم لنا الطريق. سنُحقق هُنا ما لم نُحققه في القاهرة والإسكندرية.

تابعا صوت الراديو يُذيع أُغنية لأسمهان وهي تشدو «فرّق ما بينا ليه الزمان. دا العمر كله بعدك هوان»، قبل أن يسأل «عبدالقادر» «حسين» عن مكان سكنه، فأشار إلى آخر الشارع قائلًا:

هُنا.



إذن. هيا بنا. اعزمني على الشاي عندك في البيت.

قاما سعيدين، بعد أن دفع «حسين» الحساب.

***

عقدوا الاجتماع الأول يوم مظاهرات دمشق الكُبرى المُطالبة بإنصاف الفقراء، التي وصلت لحد إشعال النيران في مباني البلدية في كثير من أحياء العاصمة الخضراء. كان الناس مُستنفرين ضد حُكومة شكري القوتلي بسبب غلاء الأسعار، وعدم وجود وظائف لجيش من الشباب الآمل في حياة هانئة بعد سنوات من الكفاح لنيل الاستقلال. في منزل «حسين» البسيط بحي الصالحية جلسوا معا على مائدة مُستطيلة يرتشفون الشاي الأسود ويُدخنون السجائر اللف، راسمين طريق نضالهم القادم. كان «عبدالقادرعامر» يبدو رغم قوة تأثيره في زميليه مُحبذًا وضع كُل شيء تحت تصرف «حسين»، رُبما تقديرًا لكونه ذا إسهامات عظيمة في مجال القتل والعمل السري، فضلا عن إيمانه التام بأنَّ أي عمل

فدائي يستلزم تمويلًا، وأن الوحيد القادر على تدبير المال هو «حسين» ابن العائلة الثرية، التي مازالت تُرسل له كُل شهر أموالًا كافية للعيش دون عمل. أما «مصطفى كمال» فبدا رغم ملامحه الصارمة قليل الكلام، أقرب للخجل، وظهر «محمد المرصفاوي» كرجل بوهيمي ساخر يعشق المُتع الحسية ويُبالغ في مُديح الخمر والنساء.

لقد رأوا حُسين مُغامرًا فريدًا، باردًا إلى أقسى درجة، لا يكترث لدم، ولا يشعر بخوف، لذا فقد اعتبروه جديرًا بتولي القيادة بعد أن سجنتهم البطالة النضالية وملّوا من حالة اللا حركة.

حملّق «حسين» في وجوه الثلاثة المُستمعين له، ليتذكر مجموعته الأولى المكونة من «سعيد» و«مدحت» و«سيد» و«جول»، وقال:

إنَّ أكبر خطر يواجه بلادنا اليوم هو خطر الصهيونية، وهي العدو الأول لنا جميعًا، لذا فإنَّ علينا أن نُحدد أهدافنا بوضوح في إرهاب وقتل اليهود في أي مكان،



إلى جانب تصفية كُل مَن ينادي بالسلام والتسوية مع الصهاينة، وإلحاق الأذى بأي مؤسسة أو جهة أجنبية تساند دولة إسرائيل.

مُتفقون.

قالها «عبدالقادر»، فواصل «حسين»:

سنرصد ما يجري حولنا، وسنبحث عن الخونة والجواسيس ونتصدَّى لهم تاركين لجيش الإنقاذ مهمة القتال المباشر.

بدت من «محمد» نظرات استفهام قال على إثرها:

أهم شيء السلاح. كيف سُندبّر المال لشراء السلاح؟

لا عليك. أنا كفيل به.

أجاب «حسين» ببرود، وكأنهم يتوقعون الإجابة فهزوا رؤوسهم في تسليم.



واصل «حسين» شرح الأهداف قبل أن يسمع طرقًا خفيفًا على الباب انخلعت له قلوب المُجتمعين، لكنَّه طمأنهم، ثُم قام بهدوئه المُعتاد ليفتح الباب قليلًا ليسمح لوجهه فقط بالخروج. وجد «حسين» أمامه فتاة طويلة الشعر، كثيفة الحاجبين، لها عينان زرقاوان تفيضان عذوبة، ترتدي تنورة قصيرة سوداء فوق قميص لبني رقيق بأزرار كُحلية. بدا خداها متوردين خجلًا لتزداد جمالًا على جمال، مما دفع هرمونات الذكورة في داخله أن تنتفض بعد خمول دام شهورًا، حملق فيها مستفسرًا، قبل أن تنطق في رقة:

آسفة على إزعاجك. والدتي مُصابة بنوبة قلبية ووالدي في بيروت وليس معي أحد. هل يُمكن أن تساعدني في نقلها إلى المُستشفى.

هزَّ رأسه في اهتمام، ورمى ضيوفه بنظرة طمأنة ثُم قال لها:

طبعًا طبعًا.



أغلق الباب على أفراد تنظيمه الجديد، وجرى معها ليدخل الشقة المُقابلة، حيث وجد سيدة ضئيلة الجسد تجلس على كنبة صغيرة تتوسط الصالة، وإلى جوارها فتاة أخرى قمحية البشرة ترتدي جلبابا بُني اللون وتحتضن كفها بقلق ظاهر.

الأستاذ جارنا الجديد، يُريد أن يطمئن عليكِ.

قالت الفتاة لأمها، التي ردَّت بنظرة استجداء نحو وجه الغريب، قبل أن يصيح:

ألف سلامة عليك يا خالة. ستكونين بخير.

حملها بشعور طاغٍ بالقوة والصلابة، وهبط السلالم في بُطء وإلى جواره ذات القميص اللبني. سارا معًا عبر الزقاق ليسمعها تُشير إلى مستشفى صغير آخر الشارع. كررت الفتاة أسفها لحامل أمها الشهم، بينما رددت الأم الدعاء له بصوتٍ مُتقطع حتى وصلوا جميعًا، حيث وضع «حسين» حمله فوق أحد الأسرَّة ثُم انتظر خارج الغرفة بعد أن وصل الطبيب. تذكر اجتماعه المُنقطع،



لكنَّه قال في نفسه إن نصرة النساء واجب قومي، وأن الشهامة لصيقة بالمناضلين. ثُم تذكّر رقة الفتاة وجمالها، فقال أيضًا إنَّ الجمال دائمًا يستحق كُل تقدير.

خرجت الفتاة بعد دقائق لتشكُره. قالت:

لقد طمأننا الدكتور. شُكرًا على نبلك.

ابتسم مُبحرًا كملاح عظيم في عينيها:

لا شُكر على واجب.

ثُم مدَّ يده مُصافحًا، وهو يقول:

تحت أمرك.

منحته ابتسامة امتنان وهي تُكرر الشكر قائلة:

شُكرًا مرة أخرى يا أستاذ...

حسين.

كررت:

شُكرا يا أستاذ حسين. أنا سُعاد، وأختي التي في البيت اسمها فاطمة.

تشرَّفنا.

لاحظت أنَّ يدها مُختبئة بين أصابعه، فسحبتها باضطراب، وسألته:

هل أنت مصري؟

ابتسم وسأل:

ألا أبدو فلسطينيًا؟

هزَّت رأسها بالنفي، فقال:

إذن أنا مصري.

ودَّعته بابتسامة، وشعر باعتزاز غريب، وهو يعود مرة أخرى إلى شقته ليجد ضيوفه مُنهمكين في التدخين



والثرثرة. وقف «عبدالقادر» فور دخوله من الباب، واقترب منه ثُم احتضنه في محبة وقال:

أنت شهم جدًا يا حسين. نحنُ محظوظون أننا وجدناك.

***

«أخي العزيز «حسين»..

أشتاق إليك بشدة. أشعر بأنني وحيد، مُنعزل، غريب عن أقاربي وأصدقائي وجيراني. كثيرون في الجامعة يتحاشونني بعد أن حصلت على البراءة، وخرجت منصورًا من قضية «أمين عُثمان». لا عليك. أخبرني أنت: كيف حالك؟ ما أخبارك؟ وماذا تفعل؟ وهل أنت في مأمن من البوليس السياسي وأذرعه الطويلة؟ لقد كانت المحنة صعبة علينا جميعًا، لكن عناية الله كانت دائمًا ترعانا وإلا لما صدرت الأحكام مخفَّفة بهذا الشكل.



علمت من طنط «سميرة» أنَّك مُستقر، وأنَّ ظروفك تتحسن بعد التأقلم مع المُحيطين بك. أنا واثق من ذلك. أنت مخلوق استثنائي، قادرعلى فك طلاسم الناس، والتعايش مع الآخرين، واستيعاب الناس بسرعة، وهي صفات لا أزال أرى أنَّها مؤهلة لقيادة البلدان. إنَّني أتصور أنك مُنخرط في أعمال نضال جديدة، ضد أعداء جُدد، وخونة آخرين، وكُل أملي أن أكون إلى جوارك مساندًا ومُعضدًا ومُعينًا.

أعيش فترة اكتئاب طارئ بعد دخول مُعظم الرفاق إلى السجن، حتى أنَّه لم يبق لي سوى «نجيب» المُنصرف عن الكفاح، الرافض للعمل السري، لذا فإنني أقضي ساعات طويلة في قراءة التاريخ ومُتابعة سير الأبطال والزعماء في العالم.

في الأسبوع الماضي تلقيت عرضًا من زميل بكلية الحقوق للانضمام إلى جماعة الإخوان، وزاد الإغراء عندما فاتحني مُباشرة في أن أصبح عضوًا في الجهاز الخاص. بالطبع، رفضت بشدة، ذلك لأنني لا أرى في جماعة الإخوان سوى مجموعة من البُلهاء العميان



الذين يسيرون دون تفكير خلف رجُل مهووس يُتاجر بالدين اسمه حسن البنا. لقد عرفت أنَّ الجهاز الخاص للجماعة يحاول عسكرة أعضائه والتغلغل في الجيش، لكن أنا على ثقة أنَّه سيفشل بسبب استهجان الناس لأي ربط بين الدين والسياسة، وهذا هو سر مباركة الناس لقرار حل الجماعة الذي أصدره النقراشي بعد القبض على عدد كبير من أعضاء الجهاز. لقد كان أعضاء ذلك الجهاز من السذاجة لدرجة أنَّهم أعادوا استثمار أفكارنا وخططنا وكرروها بنفس الشكل، حتى ظن البعض أنَّ التفجيرات التي قاموا بها مؤخرًا ضد بعض المُنشآت والمصالح اليهودية من تنفيذنا. هل تتصور أنَّ أحد الصحفيين نقل لي أنَّ الضابط «إبراهيم إمام» قال لأحدهم لولا أنَّه مُتأكد أنَّ حسين توفيق خارج البلاد لتصور أنَّه وراء الحوادث الأخيرة. إنَّ هذا يُشعرني بالفخر، ويؤكد لي كم كُنا مؤثرين فيمَن حولنا.

الحياة السياسية في مصر مازالت أقرب لبار كرياكو، فالسادة الزُعماء الأفاضل غائبون عن الوعي ومازال



بعضهم يتحدث عن اليهود المصريين باعتبارهم مواطنين صالحين. يرفع «النقراشي» باشا شعار التفاوض السلمي، ويُهدد الوفد بإعلان الجهاد، ويخطُب رئيسه كُل يوم مُطالبًا بالجلاء، وباقي الأحزاب تتفرج وتناور لتكسب رضا الملك أو الإنجليز أو كلاهما معًا. ومُعظم الشباب في وادٍ آخر، يكررون أفكارنا وكلماتنا حول الكفاح المسلح، والمقاومة بالدم، ويعتبرونك مثالًا عظيمًا للفداء.

ستسألني عن «أنور السادات». لا علم لي بما يفعل الآن، فبعد براءتنا غاب تمامًا عن الظهور، لكنني علمت من صديق خاص أنَّه يعمل بالتجارة، لكنَّ هناك أقاويل عن علاقته بتنظيم الحرس الحديدي التابع للسراي، وهو تنظيم فدائي جديد دبّر عدة عمليات لاغتيال ضباط إنجليز، وحاول اغتيال «مصطفى باشا النحاس» مرتين وفشل. وفي اعتقادي فإنَّ «السادات» رجُل مُحنّك، صعب الفهم، وأتصور أنَّه يعرف طريقه جيدًا، وهو الأقدر على قراءة ما يُحيط بنا.



أنت تعرف أنني أعشق هذه الأجواء، وأحب المغامرات، وعلى استعداد تام للتضحية في سبيل الوطن، لكنني عاهدت والدي العزيز بعد براءتي ألا أشارك في أي عمل فدائي حتى أتخرج في الجامعة، وأتصور أنني مُرغم على ذلك، خاصة ما دمت أنت بعيدًا، فلا السادات ولا الإخوان ولا غيرهم أستطيع التأقلم معهم.

زُرت زُملاءنا في السجن، وآلمني أن أجد «محمود مُراد» بتلك الحالة الغريبة من الانكسار. إنَّه مُحبط وموجوع بشدة رغم تأكيدات البعض بأنَّ أمرًا ملكيًا سيصدر بالعفو عن المحبوسين في القضية. قال لي «محمود مُراد» إنَّه يُريد أن يُهاجر من مصر فور خروجه، فهو يتصور أنَّ البلد لم يعُد مُناسبًا لطموحاته. أما سيد فهو الأكثر سُخرية مما جرى، ومازال قادرًا على ترديد النكات وتقليد الزُعماء، والأدهى أنَّه يُقلد الآن السادات باعتباره خطيبًا مفوهًا. «سعيد» و«مدحت» و«محجوب» و«عُمر» كما هُم أقوياء وسُعداء بالسجن، ويسألون عن أخبارك كُلما سنح لهم لقاء والدتك.



أثق أنَّنا سنلتقي بإذن الله، وأنَّ الأمور ستتغير، وسيُصبح الأبطال في مكانهم الطبيعي، عندما ندوس معًا بأحذيتنا على جثث الخونة والعملاء.

دمت طيبًا وآمنًا ليوم لقاء عسى أن يكون قريبًا.

أخوك

محمد إبراهيم كامل.

القاهرة في ديسمبر 1948».

طوى «حسين» الخطاب، مُستبشرًا بكلام ابن خالته ورفيقه في الكفاح قبل أن يسمع طرقًا هادئًا على باب الشقة. قام مُطفئًا سيجارته العشرين في منفضدة بلورية ترقُد فوق الطاولة، وفتح الباب ليجد كهلًا قصير القامة يرتدي حُلّة داكنة، وفوق عينيه نظارتان سميكتان. حملّق في وجه الطارق ليلمح حُمرة مُشابهة لحُمرة الفتاة التي استغاثت به قبل أيام لنقل أمها إلى المستشفى، فقدّر أنَّه والدها.



مساء الخير يا بُني.

لا يحب مناداته بصيغة الابن، لكنَّه رسم الابتسامة المُعتادة وردّ التحية، قبل أن يستأذن الرجل في الدخول، فسمح له.

قال الرجل بعد أن جلس:

أنا شاكر الحميدي جارك في الشقة المُقابلة، وجئت أشكرك على المساعدة في نقل أم سُعاد إلى المُستشفى.

لا شُكرعلى واجب أستاذ شاكر.

عرض عليه سيجارة وهو يسأل:

كيف حالها الآن؟

بخير وسلام. أنا أعمل في السكة الحديد العمومية، لذا فإنَّني أتغيَّب في بعض الأحيان لأكثر من يوم، وكما ترى فإنَّه لا يوجد في البيت سوى نسوة، لأن ابني



مُجنّد في الجيش وهو ضمن الفرقة المُرسلة إلى فلسطين.

عظيم. هذا شرف لي.

قالها «حسين» وهو يحافظ على ابتسامة الترحيب، ثُم مد قداحته ليُشعل للرجل سيجارته، التي سعل منها ثُم قال:

إنَّ زوجتي أصرت أن أدعوك على الغداء غدًا عندنا في البيت، هل يسمح وقتك بذلك؟

فكر حسين قليلًا قبل أن يُجيب:

بالطبع يسمح.

وتذكر موعدًا ضربه ل«عبدالقادر» في أحد مقاهي سوق الحميدية، فقال:

أووووه. تذكرت موعدًا في الغد بوسط المدينة.

عقد الضيف حاجبيه وقال مُستنكرًا:



غدًا في وسط المدينة. هذا خطر يا بُني. أنت ترى المُظاهرات في الشوارع، والناس غاضبون بعد استقالة حكومة مردم، وأنت مهما كُنت غريبا، والصالح ألا تخرُج حتى تهدأ الأمور.

لكنني على موعد مُهم مع صديق.

قاطعه الرجل:

أرجوك أن تتصل به لتدعوه ليُشرفنا. أصدقاؤك هُم أصدقاؤنا.

فكّر قليلًا ثُم هزّ رأسه موافقًا، وسأل الرجل:

ماذا تتوقع أن يحدُث حال استمرار غضب الناس؟

اعتدل الرجل للخلف مُعتزًا باعتباره أهلًا للرأي، وقال:

اسمع يا بُني. الناس في بلادنا تبحث عن الأمن والاستقرار، لذا فإنّهم يُحبون حُسني الزعيم، الذي نشر



قواته في شرق البلاد وعرضها. وأعتقد أنَّه سيُمسك بالسُلطة، لأنَّه الأقوى.

ثُم قال بحكمة الواعظ:

السُلطة تذهب دائمًا للأقوياء وليس للأتقياء.

ابتسم «حسين» للمقولة وردَّدها في خياله.

***

كانت المائدة عامرة بأشهى المأكولات السورية، وحولها جلس «حسين» و«عبدالقادر» و«الحاج شاكر الحميدي» وزوجته وابنتاه. شعر «حسين» بالأُلفة والرضا مُستعيدًا التفاف عائلته حول مائدة الغداء أيام الجُمع، حين كان والده حريصًا على الجلوس مع أسرته. سرت في شرايينه غبطة تذوق الطعام البيتي بعد شهور طويلة من سدّ الجوع بما تيسر من طعام المطاعم والفنادق والأكلات الجاهزة، واشتم رائحة أمه الحنون في الأبخرة المُتصاعدة من الدواجن المشوية، والخضروات الساخنة. قرأت عيناه ملامح اهتمام على

وجه «سُعاد» كُلما رنا نحو عينيها الساحرتين. شعر بالإثارة وهو يرمق ضفيرتها الطويلة حالكة السواد، وهي تتدلى خلف ظهرها المُعتدل، ثُم نظر بتلصص نحو شقيقتها الصُغرى فلاحظ سكون ملامحها وتركُز نظرتها نحو الأرض، بينما كان وجه «عم شاكر» مُتهللًا ومُنبسطًا وهو يحكي عن مشاغبات ابنه الوحيد.

قالت الأُم إنَّها تُحب المصريين وتأمل أن يطيل اللّٰه عُمرها كي تفلح يومًا في زيارة القاهرة ورؤية نهر النيل والأهرامات.

بدا عبدالقادر ساكنًا كعادته عندما فاجأه سؤال الأم عن عملهما ليحمر وجهه شاعرًا بارتباك شديد لم يطل حيث بدده قول «حسين»:

نحن نعمل بالتجارة.

هزَّ الرجل رأسه، وبدا أنَّه غير مُقتنع بذلك، فقال:

الأجواء الحالية في مصر وسوريا لا تصلح للتجارة.



وأضاف وهو ينظر نحو ابنته الكُبرى:

ظروف الحرب في فلسطين، وأعمال الشغب الجارية هُنا دفعت سُعاد أن تترك التعليم، مُكتفية بالوصول لأولى ثانوي. أما فاطمة فقد قررت من البداية أن تتفرغ لمهنة الخياطة، إنها ماهرة للغاية.

عظيم.

قالها «حسين» رامقًا «سُعاد» بنظرة استكشاف.

بدت «سُعاد» مُبتسمة، رائقة المزاج، وهي تَرُد نظرات حسين الفاحصة. قالت في سرّها إن الشاب المصري يبدو خجولًا، ونبيلًا، وميسور الحال. أما صاحبه فأشد خجلًا منه، لكنَّهما يخفيان وراءهما الكثير.

قال صاحب البيت موجهًا حديثه إلى «حسين»:

كما قلت لك أستاذ حسين. لن تهدأ الأمور في دمشق إلا إذا تولى حُسني الزعيم السُلطة بشكل مباشر. لا



تُصدق أن تشكيل خالد العظم للحكومة سيُهدئ من حالة الغضب العارم بين الناس.

لكنَّه أعلن أن أحد أولوياته تحرير فلسطين.

قالها «عبدالقادر» باهتمام، فردَّ «شاكر» ساخرًا:

كُلهم يدّعون ذلك ليسكت الناس عن فسادهم وفشلهم.

وافقه «حسين» قائلًا:

صحيح الكُل يُتاجر بفلسطين.

سينصرُنا الله على اليهود.

تمتمت «سُعاد»، فرمقتها أمها بنظرة عتاب، ثُم سألت «حسين»:

قُل يا بُني: أين تسكن في مصر؟

في القاهرة.

ثُم أشار لصاحبه قائلًا:



وعبدالقادر من الاسكندرية.

وعلا صوت شاكر قليلًا:

أنتم لا تأكلون.

لا، لقد أكلنا أكثر من المُعتاد. نحن نقول في القاهرة «دايمًا عامر».

شكراه، وقاموا ليجلسوا معًا في غرفة الصالون بينما غابت النسوة لإعداد الشاي والحلويات، وانتهز ربُّ البيت الفرصة ليقول لضيفيه:

اسمعا. أنا أعرف أنَّكما لا تعملان بالتجارة، لكن يبدو أيضا أنكما أولاد ناس. بالتأكيد لستما لصين أو مُجرمين.

استغربا، فواصل قائلًا:

الواضح والمؤكد أنَّكما هاربان سياسيًا أو أتيتما هُنا للتطوع للحرب في فلسطين.



أشعل «حسين» سيجارة وبدا عقله يدور بأفكار شتى، قبل أن يهزَّ رأسه مُكررًا:

صحيح عم شاكر. أنت رجل صالح.

انبسطت ملامح الرجل قليلًا وسأل:

هل تأمناني على سركما؟

تبادل «حسين» وصاحبه النظر قبل أن يُقرر «حسين» بهدوء أن يقُص على الرجل حكايته كهارب من مطاردة المُحتلين والخونة، ثُم قرر أنَّ «عبدالقادر» مثله تمامًا، لكنه كان يُجاهد في الإسكندرية. نظر الرجل نحوهما بامتنان، ثُم قبّلهما بحنوٍ قائلًا:

أنا أعرف ذلك.

استغرب «حسين» وسأل:

كيف عرفت؟



قرأت عن قضيتك بالأهرام، ومُنذ سكنت هُنا انتابني الشك، وقد رأيت يومًا أحد المُخبرين يسير وراءك، فعلمت أنَّك الهارب في قضية أمين عُثمان.

يااه. أنا تحت المُراقبة؟

بالطبع. لكن. لا عليك. كُلنا تحت المُراقبة، والمُخابرات هُنا تُتابع برضا كُل مَن يُجاهد ضد الاستعمار أو إسرائيل.

وأخذ الرجل من ابنته صينية الشاي وأطباق الحلويات، ثُم قال لـ«حسين»:

يا بُني أريد أن تعتبرني مثل والدك تمامًا. لقد كُنت في شبابي أحد المُجاهدين ضد الاحتلال الفرنسي، وبعد التحرير تفرّغت لأسرتي.

سنواصل العمل الفدائي، لكنَّ هذه المرة ضد إسرائيل.

قالها «حسين» وهو يُمسك بكوب الشاي، قبل أن يستمع لحكايات شتى حول بطولات الرجل في العمل



الفدائي قبل سنوات.

***

«السياسة تُفسد الأمن». قالها لنفسه وهو يُعيد قراءة ملف طالب الطب البيطري أحمد عبدالمجيد. حدّق الضابط «إبراهيم إمام» في الملف المُتخم بالأوراق الموضوع أمامه، وهو يسترجع نجاحاته في حلّ الألغاز وقراءة وجوه القتلة مُبكرًا. تذكّر «حسين توفيق» وصُحبته، وقال لنفسه إنَّ مُهمته انتهت عند تقديمه للمحاكمة، لكن تدخل الملك ورجاله والتنظيمات السرية الموالية له ساعده على الهرب من وجه العدالة. إنَّه على يقين من ضلوع زميله اليوزباشي «محمود موسى» في تهريب الولد الخطير. نظر مرة أخرى لملف «أحمد عبدالمجيد»، وقال في سرّه: هذه المرة أفلت الجاني قبل ارتكابه الجريمة بفضل سذاجة أكبر رأس في هذا البلد بعد الملك، ثُم بهدوء وبدمٍ بارد حطّم ذلك الرأس.



«كُنت دائمًا على صواب، وكانوا على خطأ» قالها «إبراهيم إمام» ل»عبدالرحمن عمّار» وكيل وزارة الداخلية عندما سأله كيف تمكّن طالب صغير من الوصول لوزارة الداخلية، وإطلاق الرصاص على رئيس الوزراء ليُلحقه بصديق عمره «أحمد باشا ماهر». قبل الحادث بثلاثة أيام بالضبط، عرض الضابط الثعلب على رئيس الوزراء تفاصيل مؤامرة قال إنَّ عددا من شباب الإخوان يدّبرونها لاغتياله وكان على رأس المُتآمرين الطالب «أحمد عبدالمجيد»، لكنَّ «النقراشي باشا» هوّن من الأمر، ورفض إصدار أمر باعتقال أحمد عبدالمجيد، وقال لإمام ناصحًا:

هؤلاء الأولاد مازالوا صُغارًا.. طلبة. حاول أن تستوعبهم يا إبراهيم لا تعتقلهم.

قدره. قالها أكثر من صديق مُعلقًا على الحكاية، لكن الضابط المُخضرم الذي قفزت به كفاءته بُسرعة من يوزباشي إلى بكباشي، ثُم قائمقام، كان يعي أن الصُغار أكثر خطرًا من الكبار، وأنَّ استيعاب الطلبة الساعين نحو الدم مُستحيل. إنَّه مؤمن أنَّ الساسة لا يفهمون



في الأمن، وأنَّهم بعيدون كُل البُعد عن فهم أدمغة القتلة والمُجرمين. لقد حقق من قبل عشرات القضايا، وتابع كيف تحوَّل شاب مهووس مثل «حسين توفيق» من قاتل إلى رمز، ومن مُجرم إلى بطل. فكَّر أنَّ الإرهاب تجاوز كُل حدوده، تارة تحت لافتة الوطنية ومقاومة الإنجليز، وتارة أخرى تحت لافتة نصرة الإسلام. مُنذ قتلوا «أحمد باشا ماهر» أمام البرلمان والعُنف يطغى ودوارق الدم لا تكف عن تلطيخ المشهد، فبعده قُتل أمين عثمان، ثُم قُتل القاضي «أحمد الخازندار»، وتوالت عمليات التفجير ليتم نسف سينما مترو، ثُم شركة الإعلانات الشرقية، ومحلات بنزايون، وحارة اليهود، وغيرها، كما قُتل «سليم زكي» حكمدار القاهرة نفسه بُقنبلة في وسط القاهرة.

وهاهُم طلبة الإخوان يُكملون المشهد بقتل رئيس الوزراء بواسطة طالب لم يتجاوز الواحدة والعشرين ارتدى بذلة ضابط شُرطة ودخل إلى وزارة الداخلية ليُطلق أربع رصاصات على ظهر الرجل. قال «إبراهيم إمام» لنفسه إنَّ عدد التنظيمات المُسلحة في مصر



يزيد على عدد الأحزاب، وما دام الكبير يؤمن بسياسة التصفية ويُنشئ الميليشيات السرية الموالية له، فإنَّ الحركات والتنظيمات الأخرى ستحذو حذوه، وما الإخوان منهم ببعيد. ورنا بذاكرته لسنوات مضت كان يخرُج فيها طلبة الإخوان مُنددين بالوفد وبُدعاة الديمقراطية لإرضاء الملك، متوقعًا انقضاء شهر العسل قريبًا بعد أن طال الخطر أقرب المُقربين من الملك نفسه.

فكّر كثيرًا وهو يُراجع تقريرًا وضعه «إبراهيم باشا عبدالهادي» حول الإجراءات الأمنية الموصى بها لكبح جماح الجهاز الخاص للإخوان، ثُم لفتت نظره عبارة مدوّنة من ضابط البوليس السياسي الموالي للسراي «محمود موسى»، التي أوصت باعتقال كُل أنصار «حسن البنا» والمُحيطين به، وتركه وحيدًا. قلّب «إبراهيم إمام» الورقة أمامه وقال وهو يُمصمص شفتيه «سيُقتلونه بكُل تأكيد. يا له من ساذج». نظر إلى ساعته فوجدها تجاوزت الحادية عشرة، وقرر أنَّ

عليه المُغادرة، فهو في حاجة للراحة، ومضى إلى بيته في برود اللا مُهتم.

***

رسم «حسين» خطة العملية الأولى. اشترى الأدوات والأسلحة وجهّز المسرح كما اعتاد في القاهرة. سيكون يوم السبت مُناسبًا لوأد أي أنفاس تستعر في ذلك المعبد القديم بالحي الغربي من العاصمة السورية، والذي يعود للقرن الأول بعد ميلاد المسيح. كان مشهد تجمع العائلات اليهودية أمام المعبد الكبير في حي جوبر مُستفزًا ل»حسين» وزُملائه مثلما كان مُستفزًا للسوريين أنفسهم الذين دبَّروا أكثر من واقعة اعتداء على محلات ومُنشآت يهودية. في الصباح سيدفع «مُصطفى كمال» عربة توت مُحمّلة بالقنابل ليمُر أمام المعبد، وسيرابط «عبدالقادرعامر» فوق سطح إحدى البنايات العالية المجاورة ليطلق رصاصه نحو العربة لتنفجر، في الوقت الذي سيقف فيه حسين أمام بوابة المعبد لقنص كُل هارب من رواد المعبد بعد حدوث



الانفجار. أما «محمد» فستكون مُهمته تأمين هروب «حسين» بعد قتل أكبر عدد من الزوار اليهود.

فى الصباح غادر «حسين « حاملًا مُسدسه الجديد الذي اشتراه من أحد تُجار دمشق ووصل إلى المقهى المُجاور للمعبد لينتظر بهدوء موعد التنفيذ. طلب شايًا وأشعل سيجارة ولاحت على وجهه ابتسامة رضا، وهو يتذكر القُبلة المطبوعة على خدّه من جارته «سُعاد» التي أصرت أن تغسل له ملابسه. فكَّر كم هي رقيقة بلهجتها الشامية، وصوتها الهادئ، وعينيها الناعستين. قال لنفسه إنَّها نموذج جميل للفتاة الصلبة، الجريئة التي تقف أمام الأزمات غير عابئة أو خائفة. لقد كان صديقه «عبدالقادر» مُصيبًا عندما أخبره بأنَّ هذه الفتاة تُحبه، مُدللًا على ما يقول بأنَّ عينيها لم تُفارق طلعته مُذ جلسا معًا على مائدة الطعام قبل أسبوعين، وفيما بعد أخبرته هي بنفسها أنَّها مُعجبة بأناقته وشخصيته، قبل أن تؤكد ذلك بالأمس عندما طبعت قُبلة على وجهه. فكر أنَّها أرق وأجمل وألطف من



«سناء» و«ميمي» وفتيات جروبي والنادي والعائلات المصرية المُتكلفة.

رشف شايه، مُحفزًا عقارب الساعة على التحرك ليحين الموعد المُحدد في الثانية ظهرا. تذكَّر ما قاله الليلة الفائتة لزملائه بأنَّ قتل اليهود هو أفضل انتقام يُمكن الرد به على المذابح الدامية لعصاباتهم في فلسطين. السكوت جريمة، والصفح عار سيُلاحقنا إلى الأبد. هكذا قال لأصحابه وهو يرسم لهم خطة التنفيذ. عرض عليه «عبدالقادر» التعاون مع أي من المجموعات السورية المُسلحة لتنفيذ العملية في إشارة منه لتعرفه على أفراد بتنظيم يحمل اسم «كتيبة الفداء» تمكن من ذبح 20 يهوديًا في حلب، لكنَّه أبى مؤكدًا أنَّ المجموعة يجب أن تبقى مصرية خالصة، حتى يُصبح لها شأنها عندما تعود إلى مصر.

سمع حوارًا دائرًا بين رجلين يجلسان على المقهى حول سيطرة حُسني الزعيم على مقاليد الأمور في البلاد. «إنَّه كُل شيء الآن، ولا أحد يتحرك دون إذنه، ولم يبق أمامه سوى الإعلان رسميًا عن رئاسته



لسوريا»، قال أحد الرجلين. فكَّر «حسين» في كلام جاره «شاكر الحميدي» حول علم المُخابرات بوجوده وتحركاته، وصمتها عليه باعتباره يُنفذ مطالب ورغبات الشارع السوري في الانتقام من الصهاينة المُعتدين. لاحظ باعة جائلين يمرون أمامه وتذكر شوارع وسط القاهرة بصخبها وحيويتها وفكَّر أنَّه لا يشعر بالغُربة في دمشق قريبة الشبه بالقاهرة.

نظر في ساعته فوجدها تقترب من الثانية، فقام مُغادرًا بعد أن دفع الحساب، ووقف بمدخل أحد البيوت المُقابلة للباب الرئيس للمعبد مُنتظرًا حدوث الانفجار، في الوقت الذي لمح فيه «مُصطفى كمال» يسير بسُرعة تاركًا خلفه عربة التوت. انتظر دقائق متوقعًا أن تُصيب رصاصات «عبدالقادر» القنابل المُخبأة بالعربة لتنفجر مُعلنة بدء معركة المعبد اليهودي، لكنَّ أمله خاب عندما فوجئ بصبي صغير من المارة في العاشرة من عمره يقترب من العربة ليلتقط بكفه بعض التوت الموضوع في عُلبة من الصفيح ليُخبئه في جيبه، وشعر بالخوف أن يظل الصبي واقفًا

لفترة لسرقة التوت. قال لنفسه إنَّ «عبدالقادر» قد يتراجع عن إطلاق الرصاص على العربة خوفًا على الصبي، وهو ما يُهدد بفشل العملية بالكامل. مرّت الدقائق بطيئة مُزعجة دون انفجار وقدّر أن استمرار وقوف الصبى يُهدد بكشف العربة التي تركها صاحبها واختفى عن الأنظار. فكر للحظات قبل أن يتخذ قراره، وقام على الفور بتجاوز بوابة المعبد اليهودي بسرعة دفعت الحارس الواقف أن يصيح به طالبًا التوقف، لكنَّه واصل طريقه ببرود مُعتاد، ولم تمُر لحظات حتى سمع دوي انفجار كبير رُجت الأرض على إثره، وجرى الناس يمينًا ويسارًا في حالة فزع شديد، بينما غطى الدُخان سماء حرم المعبد لتسود حالة من الفوضى العامة. أخرج مُسدسه ليُبصر «عبدالقادر» و«محمد المرصفاوي» إلى جواره يُطلقان رصاصهما على الأجساد الهاربة. ولم تمُر لحظات أخرى حتى لمح ثلاثة شباب مُلثمين يقفون داخل حرم المعبد ويُطلقون رصاصهم على الرواد من الرجال والنساء، فواصل قنص الهاربين، حتى فرغت خزنته، ثُم أخرج مُسدسًا آخر، ليصطاد به كهلًا سمينًا خرج مفزوعًا، ثُمَّ



لاحت أمامه سيدة عجوز هدّها الوهن، وبدت هدفًا سهلًا في ظلّ الدُخان المُتصاعد، فضغط على الزناد مُقررًا أن زمن التفرقة بين النساء والرجال انتهى، وأنَّ إسرائيل تُجنّد النساء اليهوديات، لتسقط بلا حراك.

بدأ الانسحاب رويدًا وهو يستعذب أزيز الرصاص، مُستمتعًا بصرخات الهلع من رواد المعبد من اليهود، شاعرًا أنَّه يستمع لسيمفونية رائعة لبيتهوفن. ما أجمل السماء المُغطاة بدُخان الانفجارات. قالها لنفسه قبل أن يعود إلى بيته بذات الخُطى الباردة دون مُطارد أو تابع.

***

فى الصباح تصدَّر خبر انفجار المعبد اليهودي صُحف دمشق. اكتشف «حسين» ورفاقه أنَّ حصيلة العملية بلغت 12 قتيلًا من بينهم امرأتان وطفل صغير وأكثر من ثلاثين مُصابًا. التقوا في ضريح صلاح الدين الأيوبي إلى جوار المسجد الأموي يتحدثون عن نتائج العملية. سأل «حسين» زُملاءه عن أولئك المُلثمين



الذين وقفوا إلى جوارهم يُطلقون معهم الرصاص لكنَّه لم يتلق إجابة شافية. لا أحد يعرفهم، ولا يعرف كيف جاءوا، ولا من أين، والغريب أنَّهم لم يحاولوا التعرض لهم بتاتًا خلال العملية أو بعدها.

قال «عبدالقادر» بنبرة صدق حاول فيها تحليل ما جرى:

إنَّ هُناك مجموعات أخرى عديدة محسوبة على الفدائيين السوريين والفلسطينيين تعمل بشكل سري في قتل اليهود والأجانب وتتواجد في عدة مُدن سورية، وإحدى هذه المجموعات تُسمى كتيبة الفداء، وأنا شخصيًا أعرف اثنين من أعضائها يقطنان في المارجة.

رفع «حسين» كفيه مُظهرًا قراءة الفاتحة داخل الضريح، قبل أن يقول بغضب:

لا يُمكن أن تكون مُصادفة. لو سلمنا أنَّ هؤلاء الذين وقفوا معنا يُطلقون الرصاص يحملون نفس أفكارنا



ويعملون مثلنا على ضرب اليهود في كُل مكان، فكيف لهم أن يعرفوا بتوقيت المُهمة؟ هل أنتم متأكدون أنَّ أحدًا لم يُحدّث أي شخص حول ما سيتم تنفيذه؟

ثُم نظر إلى «عبدالقادر» سائلًا:

ألم تقترح أن نتشارك في العملية مع كتيبة الفداء التي تتحدث عنها؟

همس «عبدالقادر» قائلًا:

أُقسم بالله العظيم أنَّ توقيت المهمة لم يخرُج إلى أي شخص في أي تنظيم، وما اقترحته قبل العملية من التعاون مع كتيبة الفداء كان مُجرد اقتراح، ونسيته تمامًا عندما رفضت أنت.

نظر «مصطفى كمال» إلى «عبدالقادر»، وقال:

أتمنى ألا أكون مُتهمًا بإفشاء سر العملية.

وأنا كذلك.



ردَّد «محمد المرصفاوي» ليُعلق «عبدالقادر» سريعًا:

يا رفقاء أنا على ثقة تامة منكما.

ونظر إلى «حسين» وقال:

مصطفى ومحمد لا يكذبان أبدًا. أتصور أنَّ المجموعة التي شاركتنا العملية كانت تُراقب المعبد اليهودي مُنذ فترة، ثُم انتهزت فرصة هجومنا عليه لينتهز المراقبون الفرصة ويقاتلوا إلى جوارنا، وليس أدلّ على ذلك من كوننا انسحبنا بهدوء دون أي كلام من هؤلاء، بل أعتقد أنَّهم مهّدوا لنا طريق الخروج من هُناك.

خرجوا ليجلسوا معًا على أحد المقاهي، أشعلوا سجائرهم قبل أن يتركهم «محمد» لشراء ساندوتشات شاورمة، ليعود إليهم شاحبًا وفي يديه إحدى الصُحف الفرنسية. بدا الامتعاض مطبوعًا على وجهه قبل أن يرفع الصحيفة أمام «حسين» قائلًا:

تصوروا. لقد مات صبي صغير كان يمُرّ خارج المعبد من جراء الانفجار. هذه الصحيفة نشرت صورته.



ثُم قال:

هو طالب بالإعدادي اسمه إلياس حسان، وهو ليس يهوديًا.

مُسلم؟

سأل «مصطفى»، فأجاب «محمد» قائلًا:

نعم.

هز «حسين» رأسه وقال:

هذا الولد لص. كان يسرق التوت، وتسبب في تأخير موعد العملية لعدة دقائق.

نعم.

قالها «عبدالقادر»، وأضاف:

ترددت كثيرًا قبل إطلاق الرصاص بسببه، لكن في النهاية كان لابد من حسم الأمر.



فكَّ «حسين» لفة الطعام ليتناول ساندوتشًا قبل أن يقول موجهًا حديثه إلى «محمد»:

اسمع يا محمد. في بعض الأحيان، تضعك الظروف في مواقف صعبة، لا تختارها لكنَّها تُفرض عليك فرضًا. وما حدث للصبي حرامي التوت وارد التكرار في عمليات أخرى، ولابد من عدم الالتفات لأي شيء يُهدد بفشل العملية أو سقوط مُنفذيها.

ثُم قال بثقة الخبير:

في عمليات بطولية عديدة فقد الفدائيون أرواحهم بسبب النُبل الزائد والشهامة.

هزَّ «محمد» رأسه تسليمًا، وقال «عبدالقادر»:

أوافقك الرأي.

وأنا أيضًا.



قالها «مصطفى كمال»، وهو يلتهم ساندوتش الشاورمة الساخن.

***

فتح «حسين» باب شقته بعد أن عاد من احتفال بنجاح العملية في أحد البارات القديمة بصُحبة «عبدالقادر»، والذي أخبره بنبأ اغتيال الشيخ «حسن البنا» في القاهرة. دلف إلى الداخل مُستعيدًا قول صاحبه بأنَّ فلول الإخوان في سوريا يقولون إنَّ الشيخ البنا قُتل بواسطة أحد الأجهزة السرية التي يُديرها الملك فاروق، وفكّر للحظات أنَّه ربما نفذَ عملية اغتيال «أمين عُثمان» لصالح الملك دون أن يدري. حدّث نفسه بأن قتل زعيم الإخوان المُسلمين بهذا الشكل يؤكد أنَّه لا أمان للملك أو رجاله أو المُتصلين بالسراي، وأنه ربما يُضحي بأي شخص في سبيل تحقيق آماله. أضاء نور الصالة فلاحظ مظروفًا تم دفعه من تحت الباب، فسارع لفضِّه متوجسًا خيفة. قرأ خطابًا بدون توقيع من مناضل عربي إلى المناضل «حسين توفيق» يُثمّن بطولته وشجاعته ويُحيي فيه إقدامه على



الانتقام لدماء الفلسطينيين في دير ياسين. وقال مُرسل الخطاب إنَّ طريق العملية القادمة مرسوم بعناية، وأنَّه يترك تحديد موعد التنفيذ له، موضحًا أنَّ هُناك جاسوسا بريطانيا يقطُن في الناحية الشرقية من جبل قاسيون في منزل فخم، واسمه سترلينج، يعمل مراسلًا لجريدة «التايمز». وذكر الخطاب أنَّ الرجل يستيقظ في السابعة صباحًا ويذهب إلى مكتب الجريدة في الثامنة ويظلّ مُتنقلًا بينه وبين الهيئات الحكومية والسفارة البريطانية حتى السادسة مساء حيث يعود إلى البيت. أضاف الخطاب أنَّه لا يوجد لدى الجاسوس أي حُراس، وكُل مَن يعيشون معه هُم سائق وخادمة وسُفرجي، وأنَّ لديه بُندقية سريعة الطلقات في منزله، فضلا عن مُسدسات متنوعة.

واعتبر «حسين» الخطاب دليلا على صحة استنتاج «عبدالقادر» بشأن وجود تنظيم مُشابه ومُقارب في التوجهات، لكنَّه شعر بالحيرة عن السبب الذي دفع ذلك التنظيم إلى إهداء المعلومات حول سترلينج له بدلًا من القيام مباشرة بالاغتيال مباشرة.



في الصباح وعلى مقهى الصالحية الأكبر جلس «حسين» مع «عبدالقادر» يُناقش مكاسب العملية الجديدة، مؤكدًا أنَّ الهجوم على الجاسوس البريطاني سيحقق ردعًا للمخابرات البريطانية، وسيُسعد الشارع الرافض للتدخل الأجنبي في شئون البلاد، وسيوفر للتنظيم أسلحة عديدة ومتطورة يمتلكها سترلينج. إنَّهم في حاجة أيضًا للمال، ومثل هذا البيت سيكون غنيًا بالذهب والأموال اللازمة لتمويل المزيد من العمليات. ودعا «حسين» صديقه إلى أن يحاول التحقق من صحة المعلومات الخاصة بالصحفي البريطاني وفي حال ثبوتها، سيتم التنفيذ في أقرب وقت ممكن.

في اليوم ذاته لم يرفض «حسين» طلب «سُعاد» أن يصحبها في نُزهة نحو حديقة الحيوانات، ليتلقى سيلًا من الأسئلة الساذجة عن أهله، ووالدته، ومدرسته، وأصدقائه، وملابس الفتيات في القاهرة، والمطاعم والمتنزهات. سألته إن كان أحب، فروى لها قصصًا



عديدة عن مغامرات وهمية، ونساء جميلات، وأحلام طوتها الغُربة، وأمانٍ خنقها القلق.

ما آمالك؟

ردّ بأنَّه موجوع بتحرير الشعوب العربية من الحُكام الخونة، والمُحتلين.

قالت له:

ألا تخاف؟

صارحها بما يشعر به، وكان مُحقًا بأنه لم يخف قط. قال إنَّه كان مُنذ الصغر يشعر بأنه مُختلف، لا تستهويه لعب الأطفال الساذجة، ولا يخاف من حكايات الغول الخارق للطبيعة، يُنكر وجود العفاريت، ولا يأبه بتهديد الكبار له. دار بخلده أنه أقسى مما تتصور، وقال لنفسه دون أن يُطلعها على ذلك أن الشفقة كلمة لم يحملها تجاه إنسان. إنَّه صلب كالصخر، بارد كالثلج، خاوٍ من أي مشاعر حُب إلا للأوطان والأبطال.



لامست كفه يدها الدافئة ليتسلل شعور صارخ بالإثارة نحو جسده، مُتذكرًا أنَّه ما لامس أُنثى مُذ فارق بجسده بلده الأم. فكَّر أنَّ الأبطال والزعماء التاريخيين في حاجة لكبت أحاسيسهم ومحو ملامح الضعف الإنساني عن أجسادهم. سحب يده ببرود، وسأل فتاته في استعلاء عن حقيقة مشاعرها تجاهه. بدت مُرتبكة وهي تتلعثم مؤكدة أنَّه أول رجُل في حياتها تخرج إلى جواره. قالت له إنَّ شعورًا مُتعاظمًا بالأمان ينتابها كُلما وقفت إلى جواره. أفضت إليه بأنَّها تشعر بالحياة تبتسم كُلما نظرت نحو وجهه، إنَّه رجُل كما ينبغي للرجولة أن تكون، فيه سمات الشهامة، وكبرياء القوة، وصرامة الشُجعان. امتن لمديحها وسألها في برود:

هل تتزوجينني؟

بدون تردد أجابت:

طبعًا.



مرَّت الأيام رتيبة في انتظار رد «عبدالقادر» قبل أن يُقرر بصحة المعلومات حول عنوان مُراسل التايمز. في الليلة الموعودة، كسر «عبدالقادر» نافذة سترلينج ليدلف «حسين» ومن معه إلى غرفة النوم الهادئة، لم يُبد الصحفي المُتهم بالتجسس أي مقاومة، إذ طعنه «حسين» بسكين حاد في جانبه الأيمن، قبل أن يُفتش دولابه بحثًا عن الأسلحة والأموال، دون طائل. نضح الدم غزيرًا فوق الفراش، وغادر «حسين» وزُملاؤه بعد أن أحسوا بالقلق بعد سماع صوت سيارات قادمة.

***

فاتح «حسين»، «شاكر الحميدي» في طلب ابنته للزواج، فلم تُفاجئه ابتسامته ولا ردّه السريع بمُعانقته وتقبيله، وكأنَّ الرجل ينتظر أمرًا كهذا، فيما أطلقت الأُم زغاريد قالت إنها تعلمتها من مشاهدة الأفلام المصرية. بكت «سُعاد» فرحًا وهي ترنو لكف والدها محتضنة كف «حسين» يقرآن معًا الفاتحة، مُحددين الجُمعة الأولى من شهر مارس موعدًا للزواج.



سُر «عبدالقادر» بالنبأ، وقال ل«حسين» إنَّ إقدامه على الزواج في الشام يعني بأنَّه يُخطط للاستقرار فيها وتأسيس أسرة بها. وأخبره بأنَّه علم أنَّ مُراسل التايمز لم يمُت، وأنَّه قرر مُغادرة البلاد لعدم شعوره بالأمن، في الوقت الذي ألمح فيه «عبدالقادر» لضرورة التريُث والحذر في تنفيذ عمليات جديدة لأن هُناك اختراقا واضحا لعملياتهم. شعر «حسين» بضرورة التشاور مع كتيبة الفداء للتأكد إن كانت على علم بعملياته أم لا، والتعرف على كيفية كشف الاختراق لمجموعته، وبالفعل «رتب عبدالقادر» لقاءً بين «حسين» وطالب سوري بالجامعة الأمريكية اسمه «هاني الهندي» في أحد المطاعم النائية بأطراف العاصمة. كان «هاني» طويل القامة، أبيض البشرة، مُسترسل الشعر، هادئ الملامح، كثير التلفُت، رخيم الصوت، وهو ما جدّد في ذهن «حسين» لقاءه الأول ب»أنور السادات». سأله «حسين» عما فعله تنظيمه فأجاب بأنَّ ما فعلته كتيبة الفداء يبقى سرًا من أسرارها لا يجوز الحديث عنه، ثُم أضاف إنَّه لولا معرفته ب»عبدالقادر عامر» ما وافق على لقائه خاصة



أنَّه يعرف جيدًا أنَّه مرصود من أجهزة الأمن. بدا «هاني» مُدققًا في وجه «حسين»، مُستقرئا له قبل أن يستمع منه لملخص عملياته في دمشق. ابتسم «هاني» ابتسامة ساخرة قبل أن يصدم «حسين» بقوله:

لقد كُنت من البداية أعمل في خدمة الأمن السوري.

الأمن؟

سأل «حسين»، مُستنكرًا، فأجاب «هاني» بهدوء:

نعم. الأمن. وتحديدا في خدمة مدير الأمن العام حُسني الزعيم.

انعقد حاجبا «حسين»، فواصل مُحدِّثه شارحًا:

حُسني الزعيم من أذكى ضباط الجيش السوري، وهو رجل عمل مع الأتراك، والفرنسيين، وحارب في الحربين، وحقق أموالًا طائلة، وله أتباع ومُخبرون في كل مكان، وهو من أولئك الذين يُنفّذون عملياتهم



بأيدي غيرهم، وقد استفاد بقوة من حادث الاعتداء على المعبد اليهودي بنشر قواته في جوبر، واستفاد أيضا من حادث الاعتداء على الصحفي البريطاني سترلينج لأنه كان أحد الذين يفضحون أفعاله وعملياته القذرة، لذا فقد قدمت له خدمة عظيمة بما فعلت.

انزعج «حسين» وقال:

هل يعني ذلك أنَّ رجال حُسني الزعيم هُم مَن قاتلوا إلى جوارنا يوم المعبد.

ابتسم «هاني الهندي» ابتسامة ثقة وقال:

نعم، هم بلا شك. واضح أنَّه كان يُراقب تحركاتك مُنذ دخلت دمشق، وسينقلب عليك إن شعر أنك خارج سيطرته. رُبما تنفجر قُنبلة تحت منزلك فتكون نهايتك، أو يدُس عليك مَن يقنصك عن بُعد، أو يُلقي القبض عليك اشتباهًا ويُسلمك لشرطة بلادك أو أي شيء آخر.



صمت سائلًا نفسه إن كان موعودًا بالاستغلاليين القادرين على توجيهه عن بُعد، واعتبر نفسه ساذجًا بين ثعالب وذئاب. سأل طالبًا النصيحة، فقال له «هاني»:

لا تُفكر بمجابهته أو تحديه. هو أصعب من أن يتحول إلى هدف. إنَّه شخص ماكر وحريص وواسع النفوذ. أفضل شيء أن تحاول مُلاطفته. قدّم له نفسك باعتبارك صديقا، وابحث عن نقاط التقاء مع توجهاته. امنحه شعورًا بالثقة إن كُنت ترغب في استمرار العمل بسوريا، وأتصور أنَّه يمكن عقد اتفاق معه.

مزيد من الخوض في الوحل. ما لأحلام البطولة والنضال تتحطم على صخور الانتهازيين؟ «محمود موسى» ساعدك لأنَّك قتلت غريم الملك، و«السادات» بنى مجده وشهرته على مغامراتك وخرج من القضية كالشعر من العجين.

وفلسطين؟



سأل «حسين» بحماس، فقال «هاني»:

ستواصل عملك ما دمت بعيدًا عن مصالحه. سيُخبرك بأنَّه يُدعمك ويؤيدك، لكن في حقيقة الأمر فإنَّ الأمر لا يعنيه كثيرًا.

شُكرًا على النصيحة.

غادر «حسين» مُسرعًا بعد أن أخفى مُسدسه في بنطاله. لم يُهدر وقتًا، إذ أوقف تاكسيًا وطلب منه أن يوصله لمركز الأمن العام في قلب العاصمة. طرق الباب، ففتح أحد الحرس المُتجهمين الذي سأله بغلظة عما يُريد، فقدَّم نفسه بهويته الفلسطينية مُطالبا بلقاء العقيد «حُسني الزعيم»، مُكررًا أنَّ لديه معلومات مهمة جدًا يجب عرضها عليه. سلَّمهم مُسدسه بعد عملية تفتيش دقيقة، ودخل إلى غُرفة صغيرة ظلَّ فيها ثلاث ساعات استجاب خلالها أحد الحراس لنداءاته المُتكررة لتقديم الماء له، قبل أن يدخل إليه رجل ضخم الجُثة ليعيد تفتيشه مرة ثانية، ثُم قاده إلى بهو مُتسع مؤثث بأثاث فخيم، ومزدان بصور طبيعية لقلعة



حلب وسور دمشق القديم والمسجد الأموي. نظر أمامه فوجد رجلا أبيض سمينا مُتسع العينين، يحمل ابتسامة باردة، وله عينان صاحيتان، فوجئ به يمد يدُه بالمُصافحة.

أهلا وسهلًا أخ حسين.

قالها بصوتٍ أجش، ضاغطًا بيدٍ قوية على كف «حسين»، الذي ابتسم وجلس مُضطربًا.

أنا لاجئ مصري ولست فلسطينيًا.

هزَّ حُسني الزعيم رأسه وقال:

نعم. أعرف ذلك.

أنا المُتهم الهارب في قضية قتل أمين عثمان.

هاااا. عظيم. كان هذا الرجل من أعدى أعداء الملك. لقد أحسنت بما فعلت.

احتفظ «حسين» ببروده وقال:



أطمع في رعايتك وتأمينك.

لك ذلك. نحن نعلم بوجودك، ومع ذلك لم يتعرض لك أحد.

غمز الرجل بطرف عينٍ سائلًا:

قُل لي لماذا قتلت أمين عُثمان؟

لأنه خائن.

تمام.

الساسة مُخادعون وليس سوى رجال الحرب من أبطال.

صحيح.

أنا أمقتهم وآمل أن تنجح في إيقاف مهازل الأفاقين من رجال الأحزاب ونواب البرلمان وتُعيد لهذا البلد أمنه وقوته، خاصة أنَّه أول حائط صد ضد الصهيونية.



سأفعل إن شاء الله. الشباب هُم الأمل، وسأعمل لهم من أجل سوريا عظيمة قوية ومُتقدمة.

عندي معلومات عن صحفي بريطاني أظن أنَّه جاسوس على بلادكم.

هااااااااااا، لقد أحسنت صُنعًا.

لقد حاولت إنقاذ البلاد من شره، لكن...

لا عليك. لقد خرج خائفًا يترقب.. ها ها ها. قُل لي يا حسين: ماذا تشرب؟

ابتسم «حسين» قليلًا قبل أن يقول:

قهوة.

أخرج الرجل سيجارًا غليظًا منحه لحسين الذي سارع بإشعاله، مُنصتًا للرجل:

وصلت رسالتك يا حسين. لا تخش شيئًا. امض وسنؤمنك. لكن لا تأخذ مُسدسك من الحارس. لا سلاح

لك بعد اليوم.

هزَّ «حسين» رأسه، فكرر الرجل:

مفهوم؟

مفهوم.

وخرج مذهولًا من سطوة الرجل وقوة شخصيته.

***

اسم على مُسمى. خُلق ليحكُم. مع الخطر عاش، مُقدّرًا أنَّ المُغامرين ينالون ما يحلمون به، وأنَّ الخائفين لا يصنعون مجدًا. عبر بسيارته غير المسقوفة صفوف جُنوده المُحاصرين لقصر الرئاسة، رافعًا يمينه بالتحية، كبطل أسطوري، مُنطلقًا نحو ممر قاعة الاستقبال ليُبلغ سيده السابق، والرئيس كسير الأجنحة شُكري القوتلي نبأ عزله. تذكر «حُسني الزعيم» ما تعلمه في الجيش الفرنسي الذي وصل فيه لرُتبة العقيد بأنَّ مَن يملك القوة يملك كُل شيء ومَن يعرف اللحظة المواتية

للتحرك يكسب المعارك. كان كُل أمله أن يحكُم سوريا، أرض الكرز والمُشمش، ساحرة الألباب، وحصن بني أمية، بيت الثقافات ومُلتقى العقائد والأفكار والمواهب. قال يومًا لوالده الذي كان مُفتيًا دينيًا إنَّ السلطة هي أجمل ما في الوجود، لكن والده كان فظًا وهو يُقرر أنَّها تقود إلى التهلُكة، مما دفعه للرد عليه بأنه على استعداد أن يقتل بشرط أن يحكم سوريا ولو ليومٍ واحد. لم تُحبطه نظرات الانكسار والخضوع البادية من عيني «شكري القوتلي» الذي كان يهز رأسه خوفًا وهو يستمع لبيان الانقلاب، وتذكر أنَّه لم يجبُن يومًا أو ينكسر حتى في أقسى المحن التي واجهها في حياته سواء مُعتقلًا من خلال البريطانيين في الحرب العالمية الأولى، أو مُعتقلًا من جانب الفرنسيين في الحرب الثانية.

أمر «حُسني الزعيم» بسجن رئيس الجمهورية، ورئيس الوزراء في مُستشفى المُزة، كما قام باعتقال كبار الضباط الموالين لهما، فضلًا عن الصحفيين المُنتمين لحركات اليسار والقوميين. كما قام بالقبض على



«ميشيل عفلق» مُنظّر حزب البعث العربي وبدأ حملة تشويه وملاحقة واسعة للمسئولين الحكوميين واحدًا وراء الآخر، قبل أن يُعلن حلَّ البرلمان رسميًا. في الوقت نفسه نظَّم من خلال عملاء للمخابرات مُظاهرات عارمة جابت شوارع دمشق للمُطالبة بترشحه لرئاسة الجمهورية وتعطيل العمل بالدستور، وإعلان حظر التجوال.

كان السوريون حائرين بين الخوف والأمل، يُقدمون قدمًا ويؤخرون أخرى، ولا يدرون إن كان ما جرى خيرًا أم شرًا. البعض مثل هاني الهندي كان واضحًا بأنّ ما جرى هو انقلاب من ديكتاتور صغير على ديكتاتور أكبر منه، بينما كان «شاكر الحميدي» يرى أنَّ سوريا في حاجة لرجل قوي قبل أي شيء، وأنَّ الصرامة ضرورية لبناء دولة قوية، وتحقيق نتائج طيبة.

في تلك الأجواء تزوَّج «حسين» في حفل بهيج ضم عددا محدودا من الأصدقاء وأقارب العروس، التي بدت كالبدر يوم اكتماله. استغلَّ «حسين» أموالًا بعثتها إليه والدته في شراء أثاث حديث حرصت «سُعاد» أن

تختاره بنفسها، بينما أهدت إليها والدتها ملاءات أسرّة وشراشف ملونة وملابس نوم رجالي وحريمي، ومزهريات، وعددا من قوارير العطر. حرص «عبدالقادر» على المشاركة في جميع الأمور ليظهر بمثابة الشقيق لحسين، مُهديًا إياه أكياس سُكر وشايا أسود، أما «محمد» و«مصطفى» فقد دخلا إلى الحفل ومعهما عدد لا بأس به من صناديق الويسكي الفاخر، وعُلب السجائر الكِنت. جلس المدعوون في شقة «شاكر الحميدي» التي تزينت باللمبات والورود، وغنَّى أحد المُطربين أغنية «يا أم العباية» لسهام رفقي، ثُم غنَّى بعد ذلك أغنية محمد عبدالوهاب «ولما قالوا لي غايب». طبخت السيدة أُم «سُعاد» صينية مكمورة وملوخية وعددا لا بأس به من المحاشي ثُم قدمت للمدعوين بقلاوة وكُنافة نابلسية استطابها أصدقاء حسين. في نهاية الحفل دخل هاني الهندي ببذلة سوداء أنيقة يحمل بوكيهًا من الورد، ثُم قدَّم للعريس ولاعة من الفضة منحوتا عليها رسم لقلعة حلب.



عندما اختلى بزوجته نهل «حسين» من سحرها مؤكدا أنَّ عطشه للنساء لا آخر له، وقوته بلا حدود، حتى سمت «سعاد» بروحها ومشاعرها فوق السحاب، لتُكرر القول له أكثر من مرة بأنَّه أجمل شيء حدث لها في حياتها. قالت إنَّ سبعة عشر عاما من الحياة لم تعرف فيها سعادة كما عرفتها بزواجها، وأنَّها تشعر أنَّ اللّٰه يُكافئها بحنانه ودفئه وإخلاصه.

مرَّت الأيام الأولى للزواج هانئة وسعيدة رغم انقباض ألمَّ بالناس تخوفًا من إرهاصات الانقلاب العسكري لـ«حُسني الزعيم»، الذي بات أكثر حدَّة في التعامل مع خصومه. كانت الشوارع تزخر بلافتات التأييد التي أعدَّها تُجار وأعيان الشام للرجل، كما كانت الصُحف مُمتلئة بقصائد المديح ومقالات التفخيم، حتى أنَّ «هاني الهندي» قرأ بكل غيظ على «حسين» في إحدى زياراته له قصيدة مديح في الرجل للشاعر إلياس طرابيه تقول: «بشخصك ساد العرب وافتخر القطر/ فقدرك فينا لا يعادله قدر/ بلغت مقامًا دونه الشمس رفعة/ ومنزلة عن مثلها قصر البدر». أما «حسين»



فكان لا يعبأ كثيرًا بأفاعيل الرجل، فكل ما كان يهمه هو الشعور بالأمان والاستقرار، خاصة عندما أبلغته زوجته بحملها.

***

ركبت أحلامها قبل الطائرة. كانت تنتظر بشوق شديد اليوم الذي تحتضن فيه صغيرها بدفء وحنان وراحة بال. كانت تراه صغيرًا رغم أنَّ عمره اقترب من الخامسة والعشرين. مازال «حسين» في عينيها الوليد الزاحف الذي يتحرك كثيرًا، وينظر باستغراب لكُل مَن يُناديه، مازال الطفل الشقي المُعتز بأبناء بلده، الكاره لتكبر وغطرسة الأتراك، يلعب مع أقرانه فيختار دور الفلاح لا السيد، وينتصر له من ظُلم يراه مغموسًا فيه. مازالت تراه الصبي الخجول المُعتزل للرقص والرافض للهو، والباحث عن دور حقيقي يخدم به بلاده، حتى لو كان ذلك الدور يحمل خطرًا على حياته.

زارت السيدة «سميرة» ابنها المسجون «سعيد»، فسألها عن «حسين»، وزارتها ابنة خالتها، فسألتها عن



حُسين، وقابلت في النادي إحدى الفتيات اللاتي تعرفنَّ به فسألتها عن «حُسين»، وكانت كُلما رأت «محمد إبرهيم كامل» يسألها كأنَّها تراه كُل يوم، تُحادثه، وتحتضنه، وتشعر بأمومتها تجاهه. قبل أيام قال لها زوجها إنه يشعُر باعتلال صحته، وأنَّه يخشى أن يموت قبل أن يطمئن على حال «حسين»، وأنَّه لولا علمه بأن خصومه في الوزارة يتتبعون حركته لسافر إلى دمشق لرؤيته. دعاها أن تُسافر سرًا إلى هُناك لتلتقي به، وتمكث معه شهرًا أو اثنين لتطمئن على أحواله وتطمئنه.

سجائر عدة قتلتها خلال رحلة الطائرة من القاهرة إلى دمشق تنفيسًا عن أشواق مُستعرة للقاء صغيرها، الذي مهما كبُر سيبقى صغيرًا. فتحت الورقة المُدون بها العُنوان لتُعيد قراءتها مرة واثنتين، وهي تستمع لصوت الطيار مُخبرًا السادة الرُكاب بقرب الهبوط. فكَّرت في رباطة جأش «سعيد» المحبوس بالسجن، وقالت إنَّ «حسين» المُطارد أكثر صلابة، وأنَّ من حقها أن تفخر بابنيها الرجلين. تذكرت أنَّ عائلتها في تركيا



ضربت المثل في القوة والصلابة وتحدي الخطر، وخمَّنت أنَّ السمات الموروثة في العائلة تظهر بوضوح في «حسين» و«سعيد».

خرجت من المطار بسرعة بسبب قلة أعداد المسافرين، لتستقل تاكسيًا أعطته عنوان ابنها في الصالحية وطلبت توصيلها إليه. فكَّرت في وقع المُفاجأة على وجه «حُسين»، وتصورت أن يحملها ويدور بها فرحًا، أو يحتضن كفها لاثمًا، أو يبكي من شدة الفرح، ثُم تذكرت أنه قليلًا ما يبكي، بل نادرًا أو مُستحيلًا، وقالت لنفسها أنَّها لم تضبُطه يومًا يذرف دمعة. سألت السائق عن الأحوال في سوريا فرمقها بنظرة توجس قبل أن يرُد قائلًا:

ستعود سوريا مملكة قريبًا بإذن اللّٰه.

استغربت كلامه فسألت:

كيف؟

إنَّهم يتحدثون عن تتويج حُسني الزعيم ملكًا.



مصمصت شفتيها، وشعرت أنَّ الرجل يسخر من الأحوال، ولاذت بالصمت.

كانت الشوارع مُزدانة بلافتات من القماش تحمل عبارات التأييد للزعيم المحبوب من الناس، مع صور لا حصر لها ملصقة على معظم الحوانيت. لاحظ السائق نظراتها المُستغربة فقال:

الناس حزانى على سوء الأحوال وغلاء الأسعار، وهزيمة العرب في فلسطين، وحسني الزعيم قبض على نصف السياسيين وأودعهم السجن، ومع ذلك فالجميع يؤيده ويُهلل له.

تصورت أنَّ الحال لديكم أفضل من القاهرة.

مصمص شفتيه وقال:

لديكم ملك شاب، وزُعماء طيبون، لو كان لدينا رجل مثل النحاس باشا لما وصل بنا الحال لما نحن فيه.

هزَّت رأسها وتمتمت:



الجميع لا يعجبه حاله، ولو كُنت لدينا للعنت كُل شيء.

وصل الصالحية، الحي القديم مُبهر بعمائره ومآذنه العُثمانية. أوقف السيارة إلى جانب ضريح محيي الدين بن عربي ليسأل عن البناية رقم 334، ثُم تحرّك مُجددا بضعة أمتار قبل أن يتوقف تمامًا ويهبط ليحمل حقيبة السيدة ذات الشال الأسود. سألت «سميرة» طفلًا صغيرًا يقف أمام البناية عن «حسين المصري»، فأشار إلى الدور الثاني قائلًا:

هُنا. عم حسين.

صعدت «سميرة» لتطرُق الباب طرقات خفيفة رغم بحار الشوق المتلاطمة في قلبها مُنذ تسعة شهور من الغياب. انتظرت لحظات، ثُم طرقت الباب مرة أخرى دون مُجيب، ثُم لامت نفسها أنَّها لم تتصل بحسين لتُخبره بوصولها. وقفت حائرة قبل أن تُقرر أن تطرق باب الشقة المقابلة لتفتح لها سيدة نحيلة، بدت شبه ناعسة، لكنَّها رمقتها بتركيز شديد، قبل أن تحتضنها بشدة.



أنت أم حُسين؟

سألت سيدة الشقة المقابلة، فأجابت «سميرة» مُبتسمة:

نعم. كيف عرفتِ؟

الدم واحد، ونفس لون الشعر.

شُكرًا لك.

ابتسمت أم «سُعاد»، ودعت الضيفة للدخول إلى الصالون لحين عودة «حسين»، ولم تكد قدما «سميرة» تخطو قليلًا داخل الشقة حتى شهقت عندما لمحت صورة ابنها وإلى جواره عروس بفستان الزفاف مُعلقة على الجدار المواجه للباب.

جلست مُستغربة، وشعرت بالدم يغلي في رأسها. كيف فعلها؟ تزوَّج دون إذن؟ ومن أين؟ من دمشق؟

انتشلها من دهشتها صوت أم «سُعاد» تقول:

هذه سُعاد. ابنتي. تزوجت حسين الشهر الماضى، وهُما الآن عند الطبيب.

ثُم قالت بسعادة حقيقية:

إنَّها حامل، ستُنجب لك أول حفيد إن شاء اللّه.

صدمتان مُتتاليتان. اختطاف مُفاجئ. حُضن جديد. امرأة أخرى تقتنصه. ستجعله أبًا. طفل يحمل طفلًا. ستسحبه بعيدًا بعيدا مُستغلة ظروف الهروب ليبتعد عن أمه الحنون.

ماذا تشربين؟

ردَّت باشمئزاز:

لا شيء. سأدخن.

ومضت تستمع بحنق مكتوم لحكايات السيدة عن ابنتها والمحبة الغامرة التي يغمرون بها ابنها، وواصلت التدخين بعصبية زائدة مُنتظرة قدوم الولد المُنفلت.



***

لا أستسيغ طعامكم ولولا الجوع ما ذُقته.

قالت السيدة «سميرة» لـ«سُعاد» على مائدة الغداء بمشاركة «حسين» الذي لم يتفاجأ كثيرًا بزيارة أمه. قبل ساعات لم تنجح الأم في منع حُضنها من احتواء ابنها رغم غضبها من زواجه دون إذن، واكتفت بمنح الزوجة نظرة استعلاء. قُبلات مُتتالية منحتها السيدة لابنها فور رؤيته داخلًا برفقة امرأته قبل أن تصر على أن ينام تلك الليلة إلى جوارها حتى الصباح لتحرم الزوجة من شريكها في الفراش.

قالت «سُعاد» التي بدت مُزدهرة الوجه:

حسين اعتاد أن يأكل من يدي، وصار لا يتناول غداءً دون زعتر.

عقدت «سميرة» حاجبيها، وبدا وجهها مُتجهمًا وهي ترُد:



عندما يعود إلى مصر سينسى الزعتر وسيرجع لأكلات بلده.

ابتسمت «سُعاد» في برود قبل أن تقول:

نحن نقول عندنا إن بلد المرء هي مَن فيها امرأته.

ردَّت «سميرة» في عصبية:

هااا... ونحن عندنا نقول إنَّ المرأة تتبع الرجل إلى أي مكان، ووطنها هو ما يختاره هو وطنًا له.

وأضافت في فخر:

أنا في الأصل تُركية، لكن بعد أن تزوجت توفيق باشا صرت مثله مصرية.

ضحك «حسين» بصوتٍ عال، ونظر إلى أمه سائلًا:

هل حصل الوالد على الباشوية؟

ردَّت بغيظ:

هو على وشك ذلك، ثُم لا تتحدث عن والدك إلا بُكل احترام.

حاضر.

مدَّت «سُعاد» يدها بقطعة دجاج قائلة:

جربي يا خالة أكلي.

هزَّت «سميرة» رأسها، وقالت:

شبعت.

ثُمَّ قامت من المائدة، وجلست على الأريكة، ونظرت إلى «سُعاد» وقالت آمرة:

اعملي لي شايا.

جلس «حسين» إلى جوار أمه يسألها عن أحوال القاهرة، والأصدقاء، والأقارب، والنادي، وابن خالته «إبراهيم كامل»، و«سعيد» و«مدحت» و«محمود مراد» و«سيد» وباقي المحبوسين. أنبأته أنَّ المُحامي



بشّر والده بأنَّ قرارًا ملكيًا من مولانا سيصدر بالعفو عن المُدانين في القضية، وسيسقط الحُكم الصادر بالحبس ضده ليعود إلى أرض مصر مرة أخرى. قالت له إنَّ مُستقبله محفوظ في إدارة أملاكها الزراعية المُمتدة في محافظتي الشرقية، والبحيرة، وأنَّه سيكون رجل أعمال ناجحًا.

وأخبرته أمه أيضًا أنَّه صار عقب هروبه فتى أحلام مُعظم فتيات العائلات الراقية، حتى أنَّها قرأت في إحدى المجلات أنَّ كثيرات منهُن يُخبئن صوره تحت مخداتهن. أسعده النبأ وشعر بالراحة أنَّ «سُعاد» غابت في المطبخ لإعداد الشاي. ثُم سأل أُمه هامسًا:

هل سمعت أخبارًا عن ميمي؟

حاولت التذكُر، ثُم أخرجت سجائرها يُشعل لها «حسين» واحدة، قبل أن تسأل:

ميمي. مَن؟

لاحظ «حسين» قدوم زوجته، فهمسَ ثانية:



ميمي صديقة إحسان. ألا تذكرينها؟ فتاة النادي التي كانت أمها صديقة خالتي.

آه. آه. عرفتها. لقد أنجبت ولدًا. هي مُتزوجة الآن من البكباشي محمود موسى.

ياااه.

نعم لقد زار والدك ليطمئن على أحوالك بعد صدور الحُكم، وكان لطيفًا.

مُفاجأة. قالها في سرّه، قبل أن يُشعل سيجارة استغراب، لتواصل أُمه الثرثرة في موضوعات شتى لم تدخل رأسه، والذي كان مشغولًا بتساؤلات جمة حول قانون الصدفة الذي يحكم كثيرا من الأمور حوله.

في الأيام التالية كرّرت أمه عبارات اللمز والمُكايدة «لسُعاد» التي بدت صبورة أكثر مما توقَّع، والتزمت الصمت. في إحدى المرات قالت لها إنَّ المصريين لا يحبون النساء النحيفات، وفي مرة أخرى قالت إنَّ خفة دم المصريات أكثر جاذبية للرجل من أي جمال،



ومرة ثالثة حكت قصصًا وهمية عن صراع فتيات حي المعادي الراقي على «حسين». كانت «سُعاد» تبتسم وتهز رأسها دون رد مُنتظرة أن يتكلم زوجها لوضع حد للهجة التجريح التي تتحدث بها حماتها، لكنَّه لم يفعل، ورغم ذلك تظاهرت «سُعاد» أمام والديها بالسعادة لزيارة حماتها لهما، حتى انقضى شهران كاملان، امتلأ فيهما جسد «حسين» قليلًا، بينما انتفخ بطنها، وجهزت السيدة «سميرة» حقيبتها للمُغادرة.

***

ازدادت الأوضاع توترًا مع بدء حركة اعتقالات شملت كثيرًا من القوميين العرب، في الوقت الذي وصلت فيه الأنباء عن هروب عدد كبير من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين من مصر إلى سوريا بعد ضربات قاصمة تعرضت لها الجماعة. وعلى إثر شائعات حول اعتزام «حُسني الزعيم» تسليم حقول النفط السورية لإحدى الشركات الأمريكية الكبرى، وقبوله عمولات من شركات ومؤسسات غربية، دعت كتيبة الفداء العربي إلى اجتماع شامل يضُم جميع الفصائل والتنظيمات



العاملة ضد المصالح الصهيونية والغربية، واختارت أحد البيوت القديمة في مدينة حمص مكانًا للاجتماع.

كان «حسين» ممثلًا للمجموعة المصرية قد فوجئ بوجود مجموعة أخرى من مصر يقودها ضابط جيش سابق تابع للإخوان يُدعى «مُصطفى راغب» حاضرًا معه، بينما حضرت مجموعة سورية بقيادة شاب وسيم يُدعى «جهاد ضاحي»، وأخرى بقيادة صديقه السابق «هاني الهندي»، ومجموعة فلسطينية يُمثلها رجل كث اللحية يُدعى «أبا عدنان».

عرض «هاني» ضرورة استكمال عمليات الاعتداء على منشآت يهودية في اللاذقية وحمص وبيروت، مُحبذًا فكرة الابتعاد قليلًا عن العاصمة، حتى لا يُثير ذلك «حسني الزعيم» ويعتبره موجهًا ضده شخصيًا، فيما طرحت المجموعة الفلسطينية ضرورة تنفيذ عمليات اغتيال ضد الساسة والمسئولين العرب الذين تقاعسوا عن نجدة فلسطين خاصة الملك عبدالله ملك الأردن، ونوري السعيد رئيس الحكومة العراقية. ورأى «مُصطفى راغب» أنَّ الإخوان في مصر نفذوا اغتيال



النقراشي باشا باعتباره مسئولًا عن ضياع فلسطين، ودفعوا أغلى ثمن وهو حياة «حسن البنا» المرشد العام للجماعة، فضلًا عن تشريد وملاحقة أعضاء الجهاز فردًا فردًا، وهو ما يعني أنَّه ينبغي على باقي كتائب الفداء العربي تنفيذ عمليات اغتيال شبيهة ضد الساسة العرب.

قدرُنا أن نحيا وسط حشود من الخونة.

قالها «حسين توفيق»، وهو يقرأ على وجوه زملائه تعبيرات مُحرضة ضد جميع الساسة العرب.

لقد باعوا فلسطين دون مقابل.

ردَّ «جهاد ضاحي» ساخرًا، ليُضيف «هاني الهندي» قائلًا:

إنَّ علينا الضرب بشكل قاسٍ وُمُتكرر كُل المصالح اليهودية والغربية حولنا.



وفرد «هاني» خريطة للقُطر السوري واللبناني أمامه، ليُحدد عليها أماكن الأهداف المُقررة في المُدن السورية واللبنانية، موزعًا المهام على كُل مجموعة من المجموعات المكونة لكتائب الفداء العربي.

ولاحظ «حسين» عدم تكليفه بأي عمليات فاستفسر غاضبًا، فقال له «هاني»:

إنَّ نطاق مجموعتك هو دمشق، ومن غير الصواب استفزاز حُسني الزعيم خاصة بعد ما فعله مع القوميين، ولا تنس ما فعله مع انطوان سعادة، والذي سلمه بدمٍ بارد إلى الأمن اللبناني ليقوموا بإعدامه.

ثُم أضاف قائلًا:

لا تتصور أنَّ الزعيم يعبأ بأحد، هو خائن، والخائن يبيع كُل مَن حوله في سبيل استقرار نظامه.

لكن أنا قادر على تنفيذ عمليات دون لفت نظره أو استفزازه.

قالها «حسين»، وملامح الضيق تعتري وجهه، فأجاب «هاني»:

ما نعرفه تمامًا من مصادرنا أنَّ مخابرات الزعيم تضع جميع اللاجئين والفدائيين تحت الرقابة المُشددة، وقد نقل لنا ضابط شهم اسمه العقيد أديب الشيشكلي معلومات حول قرب استهداف بعض مقرات الكتائب الفدائية لنقوم بتهريب أعضائها خارج البلاد سريعًا.

أليس من المُمكن أن تكون تلك الفعلة مُجرد خدعة من الزعيم نفسه؟

سأل «حسين» ببرود، فقال «هاني»:

مُستحيل. هذا ضابط حارب في فلسطين، وهو أحد ضباط كثيرين حول الزعيم يشعرون باستياء من خيانته لانطوان سعادة، وقبوله عمولات من الغرب، ودعوته لمُهادنة إسرائيل.

هزَّ «حسين» رأسه تسليمًا قبل أن يقول:



كُل ما تقوله يدفعني في ناحية واحدة لا بديل عنها.

ما هي؟

سأل «مصطفى راغب» في فضول، فأجاب «حسين» قائلًا:

القتل.

وأضاف:

يجب أن نُسرع بتخليص الأمة من هذا الخائن.

ونظروا مُندهشين إلى الفدائي ذي القلب الميت، الذي طالما أدهشهم بجرأته. وربت «هاني» على كتفه وقال:

آمل أن تنجح أيُها الرفيق. لكن كُن حذرًا. حُسني الزعيم ليس أمين عُثمان.

***



توالت التفجيرات. تحوَّلت مدرسة الأليسانس ببيروت إلى أنقاض بعد تفجير سيارة نصف نقل إلى جوار أسوارها العالية. لم يمُت أحدٌ، غير أنَّ رياح الفزع طالت العائلات الأجنبية في العاصمة اللبُنانية. في اليوم التالي ألقت سيارة مُنطلقة بسرعة شديدة قُنبلتين على مقر القُنصلية البريطانية في اللاذقية لتصيب شظايها حارسين تابعين للأمن السوري، ثُم تم إلقاء قُنبلة شبيهة على مقر المفوضية الأمريكية ببيروت في اليوم نفسه، ثُم ألقيت أخرى على مقر الشرطة في طرطوس بعد يومين، قبل ساعات من انفجار مقر وكالة «غوث» للاجئين على الحدود السورية لتنشُر الصُحف بيانًا منسوبًا لكتائب الفداء يُحذر منظمة الأمم المتحدة والحاضنة للوكالة من مشروع توطين الفلسطينيين في الدول العربية.

فى تلك الأثناء كان غياب «حسين» عن المنزل يتكرر كُل مساء تحت دعاوى مُتابعة أعمال تجارية يقوم بها مع «عبدالقادر»، وكانت «سُعاد» على يقين بأنَّ زوجها يُكرر مغامراته الخطرة، مُحبذة الصمت عملًا بنصيحة

أمها الطيبة. قالت لنفسها إنَّ الإصرار على التدخل في أعمال زوجها قد يدفعه دفعًا إلى الانفصال عنها خوفًا من إفساد مهامه. كانت تؤمن بأنَّ زوجها بطل حقيقي وأنَّه يُعرّض حياته للخطر من أجل حرية وكرامة العرب. في يومٍ ما سمعت والدها يتحدث مع زوجها هامسًا بأنَّ السلاح المطلوب موجود مع تاجر فلسطيني يقطُن في حي السيدة رقية، وعرفت وقتها أنَّ والدها يُساعد «حسين» بشكل سري في أعماله الفدائية، مُقدرة عظمة تلك الأعمال التي لا تعرف عنها شيئًا سوى أنَّها موجهة ضد اليهود والخونة.

قالت لنفسها إنَّه لولا أعمال «حسين» الفدائية لما سافر إلى دمشق، وما عرفته وما أحبته، واقترنت به. لقد ساءتها زيارة حماتها، ونظراتها المُشمئزة تجاهها، لكنَّها كانت على يقين بأنَّ تلك الزيارة مُجرد حدث عابر، وأنَّ زوجها لن يعود إلى القاهرة مرة أخرى.

بدت «سُعاد» مُبتهجة بعودة شقيقها «عاصي» من الأسر بعد غياب عام كامل في حرب فلسطين. عوضها الولد الضاحك كثيرًا عن غياب «حسين» المُتكرر،



حيث كان يقضي الساعات تلو الساعات إلى جوارها حاكيًا عن قصص غرام زُملائه من الجنود، الذين لم يُحاربوا بشكل مُباشر نتيجة تمركزهم بعيدًا عن نطاق الاشتباكات. كان «عاصي» ساخرًا، ومُغرمًا بترديد النكات عن المصريين، وكان كثيرًا ما يقول لشقيقته بأنَّ «حسين» يشبه «جوبلز» وزير الدعاية لدى «هتلر». بدا «عاصي» بعينيه الخضراوين وشعره المُسترسل أشبه بمُمثلي الكوميديا الشوام، وهو يُقلد حركات وتعبيرات «حسين» ساخرًا من عصبيته البادية وجديته الدائمة. سأل «عاصي» شقيقته يومًا، وهو يضحك إن كان وجه «حسين» يحمرّ حال جلوسه معها وحيدين؟ وكان أكثر سُخرية، وهو يسأل في تبجح كيف حملت منه؟

وصارح «عاصي» شقيقته بأنَّ أفضل ما يتمناه هو الهجرة لأوروبا، مُقدرًا أنَّ البلد وما فيه لا يُبشر بمستقبل يحمل أي سعادة، وأنَّه يحلُم بأن يُصبح مُمثلًا على أحد المسارح الأوروبية، لذا فقد كان حافظًا عشرات النصوص المسرحية باللغة الفرنسية التي

أجادها إجادة تامة. كانت تراه رغم أنَّ فارق العُمر بينهما لم يتجاوز العامين، ذا عقل حالم، بريء، وكانت تتمنى أن يُفكر بجدية في البحث عن أي عمل مُناسب ليُساعد والدها في مصروفات البيت بعد أن رسمت عجلات الشيخوخة آثارها على وجهه.

كانت «سُعاد» تنظر باهتمام أكبر إلى شقيقتها الصامتة كثيرًا، مُقدرة أن تركها للدراسة، ونحول جسدها، وقلة جمالها يُقلل من فرص زواجها، خاصة في ظل الظروف المُضطربة بالبلاد. قالت يومًا ل«حسين» أنَّها غير قلقة على أحد من عائلتها سوى «فاطمة» التي تشعر بأنَّها تُخفي في داخلها تلالًا من الحُزن، وكان من الواضح أنَّ زوجها غائب عنها في عالم آخر تتلاطم فيه موجات التفكير في أفضل وسيلة لتخليص البلاد من خائنها الأعظم. لم يرُد كعادته، وواصل وضع تصورات قتل الرجل الأحوط في دمشق. قال لنفسه إنَّ «حُسني الزعيم» لم يعُد يمر بسيارة مكشوفة كما كان يفعل في الماضي،



وتذكر كيف ناقش مع «عبدالقادر» و«مصطفى» عادات الرجل وتحركاته، وخلصوا إلى صعوبة الوصول إليه أو استهدافه بقُنبلة أو رصاص قناص من بعيد، ثُم تذكر اقتراح «مصطفى» بدس السم للرجل في بعض زجاجات الويسكي الموردة إلى القصر الرئاسي، لكن «عبدالقادر» استبعد ذلك بسبب إجراءات الكشف والمتابعة التي يقوم بها حُراس الزعيم كل صباح. لقد فكروا في كُل سيناريو لقتل الرجل، حتى أنَّ ذهن «حسين» دفعه إلى التفكير في محاولة مقابلته وقتله مُباشرة بأي وسيلة، لكنَّه عاد ورفض أن يُضحي بنفسه من أجل قتل خائن واحد. فكَّر «حسين» بأنَّ أمامه طابورا طويلا من الخونة، ولابد أن يُخلص العالم العربي منهم، والقبض عليه مرة أخرى سيُنهي حلمه في أوطان حُرة بلا خونة وتابعين.

في تلك الجلسة استجابت أذناه لقول زوجته بأنَّه رجلهم القوي، وهو القادر على فك عُقدة «فاطمة»، وإيجاد العريس المُناسب لها. فكر سريعًا في كلام



«سُعاد»، لتلمع عيناه ببريق آخاذ، وترتسم ابتسامة فخر فوق شفتيه، قبل أن يُقرر في حسم:

أريدك أن تسألي أمك إن كانت فاطمة تقبل الزواج من صديقي عبدالقادرعامر أم لا. أخبريها أنَّه سيستأجر شقة قريبة من هُنا، وسيجهزها خلال شهرين، وهو من أسرة ميسورة تُرسل له ما يكفيه تمامًا.

غمرت السعادة قلب «سُعاد»، حتى أنَّها أحسَّت بتحرك الجنين ببطنها، كأنَّه يرقص فرحًا. قبّلت «حسين» فوق شفتيه وقالت له:

سأسألها، وستوافق بكل تأكيد.عبدالقادر رجل شهم، ومُهذَّب، ويكفينا أنَّه صديقك.

ابتسم في غرور، وغاب مرة أخرى في التفكير في هدفه الصعب. حُسني الزعيم.

***



مُفاجأة لم ينتظرها الشباب الغاضب على القائد المُستبد. في ساعات قليلة سمع الناس بنبأ محاصرة المُقدم «سامي الحناوي» لقصر الرئاسة، قبل أن تُذيع إذاعة دمشق بيانًا مُقتضبًا عن خلع رئيس الجمهورية وإصدار حُكم سريع بإعدام «حُسني الزعيم» ورئيس وزرائه «مُحسن البرازي» وتنفيذه. كانت الحكايات قد تناثرت أنَّ «الزعيم» قُتل بواسطة ضابطين قوميين كانا مُكلفين بالقبض عليه، ثُم اضطرت السُلطات إلى القول بالحكم سريعًا بإعدامه حتى تُجنبهما أي محاكمة.

حكى «هاني الهندي» لـ«حسين» وجمع من الأصدقاء اجتمعوا في مقهى بإحدى ضواحي العاصمة أنَّ «حسني الزعيم» كان يقهقه بصوتٍ عالٍ وهُم يطلقون عليه الرصاص، وأنَّه نظر إلى «مُحسن البرازي» ووجده يبكي خوفًا فصرخ فيه بأن يهدأ ليموت كرجل لا كسيدة.

ونشرت الصُحف نص بيان المجلس الحربي الذي ذكر أنَّ «حسني الزعيم» اتُهم بتبديد ثروة البلاد وانتهاك



حرمة قوانينها وحرية أبنائها، وأنَّ حكمه اتسم بالفوضى والتعسف، وأنَّ المجلس الحربي الأعلى وبعد محاكمة عادلة ثبت له أنَّ «الزعيم» مجرم، فنفّذ فيه وفي رئيس وزرائه حكم الإعدام.

هلَّل الناس فرحًا بسقوط «الزعيم»، وعلّق تُجارالأقمشة والملبوسات بسوق الحميدية لافتات التأييد للمقدم سامي الحناوي، فيما كتبت الصُحف عن مخازي الرئيس الطاغية الذي رحل غير مأسوفٍ عليه، وتبرأ الشُعراء من مدائحهم السابقة للرئيس القتيل، ذاكرين أنَّها ولدت تحت سيف الخوف. وعلى المقاهي أطلق الناس في محاوراتهم صفات الخسّة والوضاعة على الرجل المعدوم، مؤكدين أنَّه نال ما يستحق، وأنَّ ربك لا يظلم أحدًا.

عرض «حسين» على «هاني» استئناف أنشطة مجموعته، لكنَّ «هاني» رفض طالبًا منح السُلطة الجديدة الفرصة لتصحيح الأوضاع، مُشيرًا إلى أنَّ أحد القادة العسكريين الكبار وهو «أديب الشيشكلي» على علاقة ود مع الأحزاب القومية.

من الضروري أن ننتظر قليلًا حتى لا يحسبوننا في الجانب المُضاد أو يظنوننا غاضبين على إعدام الزعيم.

قالها «هاني»، الذي كان من الواضح أنَّه الأكثر سيطرة على قادة الفصائل والتنظيمات العاملة في إطار مواجهة الصهيونية. وأضاف قائلًا:

إنَّ الدكتور جورج حبش طلب منَّا وقف تنفيذ أي عمليات جديدة، والتركيز على العمل السياسي.

سياسي؟

أجاب «حسين» ساخرًا، قبل أن يُقرر:

إنَّ السياسيين هُم سبب نكبتنا.

وأضاف:

إنَّ جورج حبش يحلُم بعيدًا عن الواقع.

كُل النجاحات بدأت كأحلام.



إنَّه يتصور أن الجماهير ستتحرك يومًا وستثور لتحقيق ما يُنادي به، وهذا أبعد ما يكون عن الواقع.

لم تلق كلمات «حسين» قبولًا لدى ممثلي التنظيمات المُجتمعة، مما دفعه للسكوت، والمُغادرة غاضبًا.

عاد «حسين» إلى أعضاء مجموعته، مُحبذا فكرة العودة للعمل السري بشكل مُنفرد وبدون تنسيق مع أحد. كان يرى أنَّ الوقت هو الأنسب لاستكمال الأعمال الفدائية، خاصة في ظل حالة الصراع على السُلطة في دمشق.

في غضون ثلاثة أيام حدد «حسين» الهدف، ورسم لزملائه خريطة بالعملية الجديدة، حيث هاجمت المجموعة مركزًا ثقافيًا أمريكيًا بالعاصمة، وتم إلقاء قُنبلتين داخل المبنى لتنفجرا دون سقوط أي ضحايا. فيما بعد نجح «حسين» في استقطاب شاب فلسطيني غامض يُدعى «نوار» كان يعمل مع «هاني الهندي»، وله علاقة وثيقة بصناعة الديناميت من خلال تحضير النيتروجلسرين في معمل صغير ببيته. كان «حسين»



يُريد أن يُبرهن ل»هاني الهندي» و«جهاد ضاحي» وقائدهما الروحي «جورج حبش» أنَّه قادر على العمل دون مساندتهم.

ورغم حالة من القلق انتابت «سُعاد» عندما استمعت لحديث بين زوجها و«عبدالقادر عامر» عن نجاح عملية التفجير، واتساع حالة القلق بين الموظفين الأمريكيين في دمشق، لكنَّها صمتت تمامًا، خاصة عندما بدأت عائلتها في إجراء ترتيبات زفاف شقيقتها «فاطمة» إلى «عبدالقادر». وقفت «سُعاد» إلى جوار شقيقتها مُساعدة، وناصحة، ورافضة لاعتراضات شقيقها «عاصي» غير المُبررة على تلك الزيجة. كانت تقرأ بصيص السعادة على وجه «فاطمة »، مثلما عرفته في وجهي والديها. قالت وقتها لشقيقتها:

إنَّ عاصي دائمًا له رأسه وفكره المُختلف، ويكفي أنَّه لا يريد العيش في سوريا، وليس لنا بعد والدنا من رجال سوى أزواجنا.



في الوقت نفسه اعتبر «حسين» زواج «عبدالقادر» من شقيقة زوجته بمثابة توطيد لعلاقة الولاء المُباشر له. لقد افتقد بالحبس والسفر إخوة مُخلصين ورفقاء أوفياء مثل «محمد إبراهيم كامل»، و«سعيد»، و«مدحت »، و«سيد»، و«محمود مراد»، وها هو القدر يُقدِّم له البديل في شخص عبدالقادر. لقد كان يراه نقيًا حالمًا، يحمل ذات أفكاره، ويؤمن بضرورة التغيير بالقوة، ويكن كُل كراهية وعداء للأجانب ويعتبرهم وراء كُل بلاء ابتليت به الأمة.

سأُسمي ابني باسمك، وستُسمي ابنك باسمي.

قالها ل«عبدالقادر» وهو يحصي الأيام المُتبقية على دخول زوجته مرحلة الوضع. كان يُفكر في ابنه القادم باعتباره امتدادا لنضاله ضد الخونة والمُخادعين، مُقررًا أنَّه لن يُربيه مثلما تربى، بل سيُعلّمه الكفاح وسيزرع فيه الجرأة والإقدام. «لن تكون مُدللًا يا عزيزي. ستولد رجُلًا». قالها بصوتٍ هامس وهو يتحسَّس بطن «سُعاد» المُنتفخ.

***

دقَّق الرجل النحيل ذو العينين المسحوبتين، المُحاصرتين بسُحب داكنة تكوَّنت بفضل النيكوتين والكحول والسهر الطويل، في ملف أحمر موضوع أمامه قبل أن يتصفَّح في صمت أوراقه الصفراء. وقفت عيناه عند صورة شخصية كُتب تحتها اسم «حسين توفيق أحمد» ليستنطق تفاصيلها مُكررًا تجربته السابقة في توقع تصرفات الإنسان طبقًا لملامحه. كان «عبدالرحمن ناصر» الرجل الخطير، الذي يُدير أهم جهاز أمني في العاصمة السورية، يقول دائمًا إنَّه قادر على رسم تحركات الناس، واستنباط سلوكهم الشخصي طبقًا لأوصافهم الشخصية، مُقررًا أنَّ هناك نظرية في علم الإجرام تربُط تصرفات معينة بأوصاف شكلية. وكثيرًا ما ذكر «عبدالرحمن» لتلامذته من ضباط الاستخبارات أنَّ القاتل إمّا أن يكون مُفرط الطول أو واضح القصر، وأنَّ الرجل قاسي القلب له في الأغلب جبهة عريضة، وذقن صغير. وزاد على ذلك أنَّ الإنسان الذي لا يعبأ بمشهد الدم وربما يُطرب له



***

دقَّق الرجل النحيل ذو العينين المسحوبتين، المُحاصرتين بسُحب داكنة تكَّونت بفضل النيكوتين والكحول والسهر الطويل، في ملف أحمر موضوع أمامه قبل أن يتصفَّح في صمت أوراقه الصفراء. وقفت عيناه عند صورة شخصية كُتب تحتها اسم «حسين توفيق أحمد» ليستنطق تفاصيلها مُكررًا تجربته السابقة في توقع تصرفات الإنسان طبقًا لملامحه. كان «عبدالرحمن ناصر» الرجل الخطير، الذي يُدير أهم جهاز أمني في العاصمة السورية، يقول دائمًا إنَّه قادر على رسم تحركات الناس، واستنباط سلوكهم الشخصي طبقًا لأوصافهم الشخصية، مُقررًا أنَّ هناك نظرية في علم الإجرام تربُط تصرفات معينة بأوصاف شكلية. وكثيرًا ما ذكر «عبدالرحمن» لتلامذته من ضباط الاستخبارات أنَّ القاتل إمّا أن يكون مُفرط الطول أو واضح القصر، وأنَّ الرجل قاسي القلب له في الأغلب جبهة عريضة، وذقن صغير. وزاد على ذلك أنَّ الإنسان الذي لا يعبأ بمشهد الدم وربما يُطرب له



ويستعذبه، يعاني في الغالب من قصور ما في أحد حواسه مثل السمع أو النظر أو الكلام.

فكّر رجل المعلومات الأول في شخصية «حسين توفيق»، وأمامه تقرير بتحركاته ولقاءاته وأنشطته مُنذ دخل الأراضي السورية وحتى لحظة اطلاعه، وأعاد النظر في صورته المُلتقطة قبل أيام، ليخلُص إلى أنَّه شخص مُناسب لأعمال الجهاز غير الرسمية. رشفَ رشفات قليلة من قنينة ويسكي أخرجها من أحد أدراج مكتبه الفخم قبل أن يطرق الباب أحد حُراسه ليُخبره أنه جلب المدعو «حسين توفيق»، وأنَّه الآن ينتظر في الخارج.

ماذا يفعل؟

لا شيء. يجلس صامتًا.

دعهُ ينتظر.

قالها وعاد إلى أوراقه، ثُم قال لنفسه إنَّ السُلطة لم تستقر بعد بانقلاب «الحناوي»، وأنَّ الأيام القادمة



ستشهد صراعات جديدة خاصة بين مجموعة الضباط الذين حاربوا في فلسطين، والذين يعتبرون أنفسهم الأحق بالقيادة. إنَّ «حسين توفيق» نموذج مثالي لخادم مُطيع. مثال جيد لقاتل مُحترف، سهل التوجيه، والمُتابعة، لا يعرف الخوف، ولا ينتابه القلق، مُتبلّد المشاعر، مُنعدم الأحاسيس، يعشق القتل ويستمتع برؤية الأرواح وهي تغادر الحياة. عيناه تشعَّان بريقًا مُفزعًا، وجبهته تُدلل على قسوة قلب لامُتناهية، أما فمُه فيفيض لامبالاة غير محدودة. هو الشخص المُناسب في التوقيت المُناسب، لأنَّ كل مُتصارع عليه أن يستعرض أدواته اليوم.

نظر إلى حارسه وسأله:

هل طاوعك هذا المصري في المجيء سريعًا؟

هزَّ الحارس رأسه، فسأل رجل المُخابرات مرة أخرى:

هل سألك عن وجهته، وعمَّن يُريده؟



نعم، وقلت له إنَّ ذلك ليس من شأنه، وأن عليه أن يأتي معي دون كلمة، ففعل.

عظيم. أدخله الآن.

وأخرج قنينة الويسكي مرة أخرى ليدلق بعضها في جوفه، ثُم تظاهر بالنظر في أوراق الملف، عندما دلفَ «حسين» مُلقيًا السلام، ليشير له بيده ليجلس على أحد كُرسيين أمامه، قبل أن يقول لحارسه:

لا داعي لأي إزعاج. لا أحد يدخُل علينا.

نظر رجل المخابرات المُخضرم لوجه «حسين»، مُراجعًا أوصاف «لومبروز» للشخص المُجرم، جبهة عريضة، أذنين كبيرين، شعر غير مُتناسق،عينين زائغتين، وأنف بارز، ثُم لاحظ رباطًا من الشاش حول كف «حسين» الضخم، فسأله مُبديًا القلق:

قُل لي ما بك؟ ماذا أصاب يديك؟

لا شيء. مجرد حادث بسيط.



رفع «عبدالرحمن» حاجبيه وقال:

أي حادث؟

نظر «حسين» في عينيه وقال إنَّهما تُذكرانه بعيني «إبراهيم إمام». ليس كـ«حُسني الزعيم» في صرامته، هو مُجرد مُبتدئ في عالم الخوف. ابتسم قليلًا وهو يقول:

صينية بطاطس. كانت أم عبدالقادر تُعدّ لي صينية بطاطس، وحملتها عنها فأحرقت كفي.

يااااه. ألف سلامة عليك.

ثُم قال بنبرة غموض:

كيف حالها؟

مَن هي؟

أم عبدالقادر.

هزَّ حسين رأسه وقال:

هي بخير.

عاد رجل المُخابرات إلى النظر إلى الملف الموضوع أمامه، وفتحه لتظهر صور عديدة لـ«حسين توفيق»، منها صور له في مصر، وصور في عمان، وصور في دمشق. التقطت أصابعه صورة «لحسين» ومعه «عبدالقادر» و«مصطفى صدقي» و«محمد المرصفاوي» جالسين على أحد المقاهى، وضعها أمام جليسه، وقال:

لم تُنجب زوجتك بعد. لكنَّك ستُسمي ابنك القادم عبدالقادر حُبًا في صديقك.

كرر حسين هز رأسه، وهو يقول:

هذا صحيح.

أخرج الرجل الذي يظُنّ نفسه دماغ السلطة الجديدة في دمشق عقب إسقاط «حُسني الزعيم» قنينة



الويسكي ليرشف منها قليلًا قبل أن يقول ل«حسين»:

وهل تعرف السيدة أم عبدالقادر أنَّ عبدالقادر هذا مُجرم؟

مُجرم؟

كررها «حسين» مُستغربًا، ثُم قال:

عبدالقادر ليس مُجرمًا حضرة المُقدم. إنَّه بطل.

بطل؟

نعم بطل. ألم تقرأ ملفه؟

ثُم قال وابتسامة ناعمة تتراقص على شفتيه:

أنا أعرف أنَّك تعرف عني كُل شيء. وتعلم يقينًا طبيعة المُهمة التي أصيبت فيها يدي. وأتوقع أنك تُلم بكُل شيء عني وعن زملائي، لأنَّك ببساطة ورثت ملفاتي الموجودة في خزائن حُسني الزعيم.



قام «عبدالرحمن» واقفًا، وصفَّق بيديه، ثُم وضع ذراعه على كتف «حسين»، وقال له:

يااه. لقد قصّرت عليّ الطريق. أنا أُقدّر التعامل مع الأبطال العظام أمثالك. أنت واضح وصريح، ولا تعرف لفًا أو دورانًا.

ابتسم «حسين»، وقال:

إنَّني أعلم مُنذ اليوم الأول لي هُنا أنَّكم تراقبونني.

وأخرج علبة سجائره، قائلًا:

هل تأذن لي بالتدخين؟

بالطبع بالطبع.

أشعل «حسين» سيجارته، وهو يقول:

تصوَّر أيها الضابط النبيل أنَّ ضابطًا مصريًا حرمني من التدخين وهو يُحقق معي. قمة التجبر والوحشية.

ياااه. لابد أنَّه شخص موتور، ليس لديه أخلاق.

نفثّ «حسين» دُخانه وقال:

لا يا حضرة الضابط لا تسبه. إنني أحبُّه وأحترمه. كان ذكيًا للغاية، لكن في النهاية، فهناك ذكي وهناك أكثر ذكاءً.

ربت «عبدالرحمن» على كتِف «حسين»، ثم عاد مرة أخرى إلى مقعده، قبل أن يقول:

اسمع. أنت رجل عظيم. ويُشرفني أن تكون واحدًا من رجالي.

أنا على استعداد للتعاون معك.

عظيم.

ستسمح لنا بعملياتنا الفدائية ضد إسرائيل والخونة وستجد منا كُل مساعدة.



طبعًا. لكننا يا صديقي سنعمل ضد الخونة فقط، أما إسرائيل فسنتركها للقادة والزعماء والجيوش المُنظمة.

ابتسم «حسين» وقال:

إننا في حاجة للمال.

بالطبع.

والسلاح.

هذا ضروري.

ودلق رجل المخابرات بقية قنينة الويسكي في فمه، وقال:

سأوفر لكم كُل ما تحتاجونه. العملية القادمة ستكون في طرطوس. ضابط سابق من أتباع الخائن حسني الزعيم هرب واختبأ هُناك، ونُريد إعدامه. تصوَّر كان هذا الضابط هو حلقة الوصل بين الزعيم وإسرائيل، وظنَّ أنَّه يُمكنه أن يُفلت بما فعل.



ومد يدُه بملف للضابط المذكور وصورة شخصية له. مدَّ «حسين» يده ثُم هزَّ رأسه موافقًا.

***

سُرَّ «حسين» بعمله الجديد كقائد لخلية مُحصنة أمنيًا من جانب المُخابرات، ووجد هو وزُملاؤه أنفسهم في العودة لاحتراف الخطر، وقنص الأهداف المُتحركة، وزرع الفزع في القلوب، ورسم الهلع على الوجوه. رصاصة هُنا وأخرى هُناك يتبعها شعور طاغٍ بالبطولة يدفعهم دفعًا للسهر والغياب في نُعاس الكحول، ليرى كُل منهم نفسه فارسًا مغوارًا. كان «حسين» يعود كُل مرة لزوجته منتصب القامة كأحد قادة الحروب القروسطية، مُمارسًا حقوقه الزوجية في قوة واعتزاز وفخر.

وضعت زوجته، وهو في إحدى المُهمات خارج العاصمة، وعندما عاد شاهد ولدًا مُطابقًا في الشبه له، وفوجئ بحميه قد أسماه «خالد». فكَّر في وعده ل»عبدالقادر»، فقرر أن يُغيّر الاسم في بطاقة الميلاد



بعد العودة إلى القاهرة. نظر في عيني ابنه وقال له «ستكون رجلًا صلبًا»، وتذكر والده ونظرته المُشفقة تجاهه والتي كان يكرهها للغاية. اشترى لِعب أطفال عديدة كان من بينها مُسدس صغير يرُش ماء، وهو ما أثار حالة من الضحك لدى «سُعاد» التي كانت في قمة جبل السعادة بالمولود الجديد. كما كانت سعيدة أن ترى «حسين» ذا مال وفير في الفترة الأخيرة إذ تعددت هداياه للبيت، والزوجة، والطفل الصغير.

فى يومٍ ما صحا الناس على موسيقى عسكرية في إذاعة دمشق، ليعرفوا سريعًا أنَّ انقلابًا عسكريًا جديدًا قد وقع، وأنَّ ضابطًا بارزًا يُدعى «أديب الشيشكلي» قبض على «سامي الحناوي» وأجبره على التنازل عن الحكم، وأصدر قرارًا بنفيه إلى بيروت. لم يُفاجأ «حسين» هذه المرة، وشعر ببعض التفاؤل لعلمه أنَّ المُنقلب الجديد على صلات جيدة بكتائب الفداء والحركات القومية، وهو ما قد يمنح النضال ضد الصهيونية دفعًا للأمام.



وردت الأخبار من مصر مُزعجة خاصة عندما عرف «حسين» بفوز حزب الوفد في الانتخابات التي جرت باكتساح، وقيام «مصطفى النحاس» بتشكيل الحكومة. ذلك الداهية العجوز مازال قادرًا على الاستحواذ على محبة الناس، والسير معهم في نفس الطريق مُدعيًا أنَّه يستمد منهم القوة. قالها لنفسه، وهو يُفكر كيف أفلت الرجل من موتٍ مُحقق نتيجة فارق لا يتعدى الثواني الثلاثة فقط. هو محظوظ لاشك في ذلك، هكذا حسب، وهو يشعر بصعوبة نجاح جهود أسرته للحصول على عفو ملكي في ظل وجود «النحاس» والوفديين على رأس الحُكم. لن يغفروا له أبدًا. هكذا كرر وهو يُفكِّر في أصدقاء الماضي الأوفياء. تذكر «السادات» واستغرب ما عرفه من «عبدالقادر» حول عودته إلى الجيش مرة أخرى. كيف عاد المُحرّض الأكبر، والقاتل في الظل إلى عمله في المؤسسة العسكرية؟ ألم يُحسب يومًا على الألمان؟ ألم يعمل مع الإخوان؟ ألم يُتهم بالعُنف والإرهاب؟ ألم يُفجّر ويُطلق النار ويستحل الدماء؟ لِم تمت تبرئته الآن، بينما صار هو طريدًا للعدالة، صيدًا سهلًا



للمُستغلين من رجال المُخابرات وميليشيات الحركات السياسية في كل مكان؟

جلس «حسين» ليلعب الشطرنج مع حميه، عندما حكى له الرجل في هدوء الزاهد أنَّه مُصاب بمرض خطير قد يُنهي حياته خلال شهور قليلة، وأنَّه يُحمّله مسئولية مُراعاة «أم سعاد» ، والاهتمام بها وبابنتيها، وأن يكون لهم بمثابة الراعي، خاصة بعد سفر «عاصي» إلى لبنان للعمل هُناك لفترة حتى يتمكن من إتمام حلمه بالهجرة إلى الخارج. قال «شاكر الحميدي» لصهره إنَّه ترك لابنه مُكافأة نهاية الخدمة، بينما أوصى بشقته لابنتيه سُعاد وفاطمة. لم يشعر الرجل بجزع صهره مما حكاه كأنَّه يُحدث نفسه، وسمعه بعد فترة يقول في برود غريب:

كِش ملك.

كان «حسين» وقتها يُفكر في أمر مُختلف، فقد رنّت في أذنيه كلمات المُقدم «عبدالرحمن ناصر» له قبل أيام بضرورة التخلُص من «أديب الشيشكلي». لقد

حكى رجل المخابرات ل»حسين» كيف خدع هذا الرجل الأحزاب الوطنية والقومية، وادعى المُشاركة في حرب فلسطين، بينما لم يُطلق رصاصة واحدة، واستهدفت مشاركته الحصول على أكبر كم من الأسلحة لتخزينها لصالحه واستخدامها وقت الحاجة. واستغرب «حسين» حكايات سردها مُحدثه عن اتفاقات ل»الشيشكلي» مع بعض الساسة خاصة بعد أن أعاد «هاشم الأتاسي» رئيسًا شكليًا للجمهورية، بهدف عمل صلح مع إسرائيل.

«لقد حقق الرجل ما يريد مرحليًا وهو الوصول لمنصب رئيس الأركان وسيصبح خلال شهور قليلة الحاكم الأوحد لسوريا، ووقتها سيأمرني بالقبض عليك وعلى أصحابك المُناضلين ليُسلمكم للمخابرات البريطانية التي تطلب رؤوسكم». كررها «عبدالرحمن» على مسامع «حسين» حتى بات يُرددها مع نفسه.

للأسف مات الملك.



قالها «شاكر الحميدي»، وهو يُمسك بأصابع مُرتعشة ملكه الخشبي، بينما سرح دماغ «حسين» في خطة اغتيال أديب الشيشكلي.

***

قال «حسين» وهو يشرح تفصيليًا على خريطة ورقية رسمها له «عبدالرحمن ناصر» أخطر وأهم عملية مُنذ لامست قدمه أرض الشام:

سنقتل الطاغية. سنأكله غداءً قبل أن يتعشى بنا جميعًا. غدًا في المساء سيمُر الهدف من ميدان المارجة للاجتماع في مجلس الحكماء مع «أكرم الحوراني». سيتكون موكبه من ثلاث سيارات جيب في كُل منها أربعة جنود، فضلًا عن سيارته الكاديلاك. ستكون هناك سيارة حراسة في المقدمة وواحدة على اليمين وواحدة على اليسار. فور دخول الموكب إلى الميدان وقبيل التوقف بثانيتين سيُلقي نوار الفلسطيني قُنبلته على سيارة المُقدمة، بينما سيكون «مصطفى كمال» و«المرصفاوي» خلف الموكب ليلقيا قنبلتين على



السيارتين المجاورتين، في اللحظة نفسها سأخرج أنا و«عبدالقادر» من العمارة المجاورة لمجلس الحُكماء لنطلق النار على الرجل فور انفجار القنابل. بعد إصابة الهدف سننسحب بهدوء نحو مبنى الفنادق الجديدة لنقفز من سطحه إلى المبنى المجاور، وهُناك سنُغيّر ملابسنا ونرتدي ملابس الشرطة لنبدو كباحثين عن القتلة، وستقلنا بعد ذلك سيارة عسكرية خاصة بعيدًا عن الموقع.

كانوا خمسة يتحلقون حول مائدة مُستديرة بشقة صغيرة استأجرها «حسين» قبل شهور لتُصبح مقرًا لاجتماعاتهم. بدا «عبدالقادر عامر» مُقتنعًا بجدارة الخطة التي وضعها «حسين» أو وُضعت له. كان على يقين بأنَّ هُناك جهة ما أو حركة قوية وراء عمليات «حسين» ومكافآته السخية، لكنَّه رضي ألا يسأل ما دامت تلك العمليات تُحقق طموحاته في الفداء والمُغامرة، فضلا عن استقراره في دمشق وحياته الهانئة بعد الزواج من «فاطمة». وشعر «مصطفى كمال» بميل شديد نحو أعمال القتل وإطلاق الرصاص،



مُكررًا فكرة عبثية الحياة الطبيعية، وضرورة العيش مع الأخطار. أما «محمد المرصفاوي»، فكان لا يُفكر إلا في الحصول على أموال وفيرة تكفيه شراء صناديق من الخمور المُتنوعة واستئجار أجساد الفاتنات من المومسات. وجاء انضمام «نوار» الفلسطيني إلى المجموعة نكاية في مجموعة «هاني الهندي» التي مالت إلى السلمية بأوامر من «جورج حبش».

قلب «حسين» كرتونة من الأسلحة المتنوعة فوق الطاولة، وقال لزملائه:

سيكون مع كُل واحد منا مُسدسان محشوان في جيبيه، وثالث مربوط في ساقه وستوضع القنابل في حقيبة صغيرة يتم تعليقها فوق الكتف.

وأضاف:

ساعة الصفر هي الواحدة ظُهرًا، حيث سنتحرك إلى مواقعنا وسنبقى فيها مُختبئين حتى السابعة مساء موعد وصول الهدف.



ماذا نفعل لو تأخر وصوله أو ألغي اجتماعه؟

سأل «مصطفى» في اهتمام، فردَّ «حسين» قائلًا:

لا تقلق. لو تأخر سننتظره، أما إذا ألغي الاجتماع وهذا احتمال مُستبعد، فسنضع له خطة أخرى.

نظر «حسين» مرة أخرى إلى أفراد جماعته واحدا تلو الآخر، وعلا صوته قليلًا وهو يقول:

خذوا بالكم. لو خرج أكرم الحوراني لاستقبال رئيس الأركان، علينا قتله هو الآخر، ووقتها ستتضاعف المُكافأة. ستصبحون جميعًا أثرياء إلى الأبد.

وتفحصهم بنظرات سريعة قبل أن يسأل مرة أخيرة:

هل لدى أحد أي سؤال؟

هزّوا رؤوسهم، وانصرفوا، فعاد «حسين» إلى البيت ليجد امرأته تُهدهد طفلها وهي تبكي، فاستفسر مُتظاهرا بالاهتمام، فأجابت بأنَّ حرارة الطفل مرتفعة

مُنذ الصباح، وتشعر بالخوف الشديد عليه. طمأنها مُقبلًا، وأخبرها بأنَّ كل الأطفال يمرون بحالات مرض مشابهة، قبل أن يتركها ليجلس وحيدًا في شرفة بيته يُدخن في هدوء. كان يُفكر في العملية القادمة التي قيل له إنَّ دولًا كُبرى في المنطقة يهمها نجاحها، وأنَّه سينال ما لم ينله شخص من تكريم، خاصة أنَّه سيُنقذ العرب من عار جديد سيلحقه بهم الضابط الطاغية. تخيّل «حسين» جسد رئيس الأركان وهو يتراقص تحت زخات الرصاص المُنهمر، ثم يسقط صريعًا لتسقي دماؤه أرض الميدان الأشهر بالمدينة القديمة. مرّ بخاطره مشهد «أمين عُثمان»، وهو يهوي على الأرض بعد أن غرس في جسده عدة رصاصات قاتلة. ابتسم، وهو يفكّر كيف تهرب الروح مُفارقة جسدًا يُحاول حبسها! ما أجملها مُهمة، تلك الموكولة لملك الموت، أن يسحب نفسًا من عالم الأكاذيب ليُلقي بها عارية في عالم الحقيقة. تصوَّر لو مات هو، لو اختاره القدر هدفًا بدلًا من صيده، لو تلقفه الملاك الحازم لينقله من مكان إلى لا مكان، ومن زمان إلى ما لا يعرف. لو رفرفت روحه مُفارقة، وعاصية لإرادته. لو

أخطأ هدفه وأصابته أيدي الأوغاد الأشرار. ساعتها ستبكي «سُعاد»، رُبما أكثر من الآن، وسيكبُر ابنه مُدللًا رخوًا ناعمًا كما النساء، ضعيفًا مثل «عاصي»، ورُبما جبانًا مثل «نجيب». سيقف أمام ضحاياه دون محام. سيقتصون منه. ستلعنه كُتب التاريخ، وسيشوهون أعماله.

طرد وساوسه، وقام ليغسل وجهه ويُغيّر ملابسه، ويتمدد على الفراش بعد أن منح ابنه قُبلة نادرة، دفعت زوجته للدهشة.

***

فى مقرّ الشركة العربية للتجارة بحي المارجة جلس «حسين» و«عبدالقادر» يتابعان إجراءات تحويل بضائع لمصر عبر البحر. كانا قد ادعيا أنَّهما تاجران يرغبان في بحث تفاصيل نقل عشرات الصناديق من الأقمشة والمنسوجات إلى ميناء الإسكندرية، واستهلكا وقتًا طويلًا في أسئلة بلا مغزى سوى إطالة الوقت، حتى موعد اقتراب ساعة الصفر. استئذنا بعد



مشاورات طويلة وظلا عدة دقائق يُدخنان على السلالم انتظارا لصوت الانفجار موعدا لبدء العملية. تجاوزت عقارب الساعة الموعد المُحدد، ولم يجرِ أي شيء، مما دفع «حسين» للخروج إلى الشارع، مُقتنعًا أن سوء الحظ كثيرًا ما يُفلت منه ضحاياه. نظر خلفه فوجد «عبدالقادر» قلقًا وهو يخطو خارج المبنى، فرفع كتفيه بعلامة عدم معرفة ما دفع «أديب الشيشكلي» إلى إلغاء موعده. سار «حسين» بضع خطوات إلى جوار مجلس الحُكماء ليتبعه «عبدالقادر» في تسليم، لكن لم تمض نصف دقيقة حتى ظهرت سيارات الموكب بادئة على غير المُعتاد بالسيارة المُقلة للهدف، والتي توقفت سريعًا ليهبط منها بضعة جنود مُدججين بالبنادق صانعين دائرة شبه مُكتملة، ثُم ترجّل قائدهم عابرًا بخطوات سريعة نحو المبنى، مما دفع «حسين» للالتصاق سريعًا بحائط المبنى، قبل أن تتقابل عيناه مع عينى أحد الحراس المُتحفزين ليقرأ فيهما الاستعداد التام. رمى «حسين» بعينيه إلى زميله سائلًا عما أعاق بقية الأفراد عن القيام بمهامهم، ثُم غمزه غمزًا فهمه «عبدالقادر» فاتخذ موضع الاستعداد،



ليبدآ معًا في اللحظة ذاتها إطلاق ذخيرة أربعة مسدسات نحو «أديب الشيشكلي» الذي توقف مكانه غير عابئ بالرصاص، مُثبتًا لنفسه قبلهم أنَّه ذو قلبٍ ميت. عشرات الرصاصات انهمرت على موقع وقوف الهدف، قبل أن يبدأ حُراسه في الرد بعصبية وتوتر مما أصاب القنّاصين بالارتباك، وتقهقرا رويدًا وظنَّ «حسين» أنَّ بضع رصاصات أصابت هدفه وحارسه الشخصى. جريا بظهريهما نحو مبنى الفنادق، لكنَّهما فوجئا أن بابه مُغلق من الداخل بإحكام، فواصلا الركض نحو المبنى المجاور، لكنَّه كان مُغلقًا كذلك، فتابعا الهرب والرصاص يُدوي فوقهما ليؤكد إصرار الحرس على الإيقاع بهما.

من حائط إلى آخر تنقلا، وبحث «حسين» عن شقٍ في الأرض أو سلمًا إلى السماء دون فائدة، في الوقت الذي سمع فيه عواء مكتومًا خلفه عرف منه أنَّ «عبدالقادر» أُصيب. نظر إليه فرآه رافعًا ذراعيه لأعلى في وضع الاستسلام، فأيقن أنَّه مهما فرّ فسيصلون إليه، وتذكر يوم القبض عليه بعد ساعات من قتل «أمين عُثمان».



فكَّر للحظات، قبل أن يُقرر أنَّه ليس من الحكمة مواصلة الركض، ليُلقي بمُسدسيه على الأرض، ويهبط على ركبتيه رافعًا يديه مثل زميله.

قُيّدا، وضُربا، وصُبت عليهما الشتائم، واقتيدا نحو إحدى سيارات الحراسة لتنطلق بهما بسرعة جنونية مرَّت خلالها عبر شوارع عديدة، ثُم توقفت أمام حاجز عدة دقائق قبل أن تنطلق مرة أخرى في طريق خارج العاصمة، في الوقت الذي سمع فيه «حسين» أنين صاحبه، ثُم بُكاءه، فالتفت إليه مُعاتبًا بنظراته ليرى يُسراه تكتم دمًا مُتدفقا من جانبه الأيمن. هزَّ رأسه وقال لنفسه: إنَّها الخيانة.

وقفت السيارة فجأة ليجد «حسين» مَن يلف عصابة حول عينيه، ثُم يدفعه لأسفل، فسقط على الأرض، لكنه تماسك ووقف مرة أخرى ومضى أمام يد تدفعه بقوة، حتى وجد نفسه في غرفة مُظلمة، أيقن أنَّها إحدى زنزانات رئيس الأركان المتطلع إلى الحُكم. رفعوا العصابة ليشعر بألم حاد في عينيه أعاد لذهنه آلام ما بعد عملية إصلاح الشبكية. تذكر ما سمعه من



حميه يومًا عن كيفية تعامل العسكريين مع بعضهما بعضا. هُم لا يعرفون الرحمة. رصاصات سريعة يتلذذون بإطلاقها نحو ضحاياهم، ورُبما شاهدوا خصومهم يتعذبون أمامهم طلبًا للموت الرحيم فأبوا. لقد قتلوا «حُسني الزعيم» بدمٍ بارد، قبل أن يدوسوا جُثته بالأحذية يوم غدروا به، ثُم قتلوا «سامي الحناوي» بعد أيام قليلة من نفيه لبيروت دون أي مُبرر سوى الانتقام. وها هو «الشيشكلي» ينجو من رصاص كاد أن يمحو طموحاته نحو الانفراد بالسُلطة.

فكَّر «حسين» إن كان عليه أن يحكي كُل شيء عن رجل المُخابرات، الذي حرَّضه ورسم له الطريق، ودفع، وموّل، وطمأنه بالسلامة ما دام حيًا. قال إنه سيكون إلى جواره دائمًا، ولن يسمح لأحد بايذائه، وصدَّق «حسين» لأنَّه كان يُريد أن يُصدق، أو لأنَّه كان في حاجة لمال وفير، بل لأنَّه كان في حاجة لرصاص يُطلق، ودمٍ يسيل، وروحٍ تُزهق. هل يعلم «عبدالرحمن ناصر» أين هو الآن؟ وهل سينقذه بالفعل؟ أم يكون هو



الذي وشى به؟ لكن لِمَ؟ لو أراد القضاء عليه لفعل ببساطة وبدون مثل هذه الأفلام الساذجة.

قال لنفسه، إنَّه أقوى من الخوف، وأصلب من التوتر، وأشدّ من أي تعذيب. جلس على ركبتيه، واضعًا وجهه بين كفيه، مُغمضًا عينين احمرتا من أثر الضربات ودُخان الرصاص، لينام. رأى «ميمي» تُقبّله باهتمام وهي تُصارحه بأنَّها لا تشعر بأي نشوة مع زوجها الضابط. قالت هامسة بميوعة: «إنَّه يرتعش كُلما نظر نحو نهداي». احتضنته «سناء»، وهي دامعة العينين، لتطلب منه أن يُسامحها. أوضحت كم كانت على خطأ عندما فضّلت عليه «نجيب» قارئ الكُتب وعاشق الأفلام: «إنَّنى أريد رجلًا قويًا مثلك. رجلًا حقيقيًا». سمع «سعيد» يُناديه بصوتٍ عال: كم أفتقدك يا مُعلمي. اشتمت جيوبه الأنفية عطر «سُعاد» الهادئ، وشعر بجلدها الأبيض يُلامس جلده. كانت كما عرفها دومًا طائعة، ساكنة، توافقه على أي فعل، وتلتمس له ألف عُذر.



فتحت له ذاكرته نافذة على شوارع نظيفة هادئة، وعساكر لهم بشرة بيضاء يسيرون بأفخاذ عارية، وطلبة أشقياء يلقون عليهم الطوب ثم يختبئون خلف أشجار سامقة. شاهد وجه أبيه مُحمرًا وهو يُتابع مشهد إطلاق الرصاص على قاضي دُنشواي بسعادة غامرة، ثُم رآه باردًا بعد أن غمرته راحة المنصب وأسكتته سكينة النفوذ. أطلّت أمه بسمتها المُتعالي وملامحها التُركية لتقول له إنَّه باشا لأنَّ والده باشا وخاله باشا وجده باشا وأنَّه لا يجب ألا يلعب مع «سيد» قريب «عثمان الجنايني».

قُم.

أيقظه صوت ارتطام الباب الحديدي بجدار الزنزانة ليجد ماردًا مُخيفًا يرتدي ملابس عسكرية يأمره بالسير أمامه، ليقوده عبر دهليز مُعتم إلى حجرة مكتب فخم شديدة الشبه بتلك التي التقى فيها حُسني الزعيم في العام الماضي. دُفع داخل الغرفة ليجد هدفه جالسًا ببذلة عسكرية مُزدانة بالنياشين وفوق رأسه بيريه لائق برجل حرب. وقف «حسين»



صامتًا وهو لا يكاد يُصدق أنه واقف أمام الرجل الذي بات يحلُم بقتله. كان ذا وجه نحيل تماما مثل «إبراهيم إمام»، وكانت عيناه تشعان بريقًا غامضًا. سأله بجدية:

هااااا. لحساب مَن تعمل؟

صمت كثيرًا، وفكّر في مُحرِّضه، لكنَّه خشى أن يخلع ثوب البطولة أمام زُملائه، وتذكر قول رجل المخابرات بأنَّه آمن. استجمع شجاعته، وقال بعد أن رسم على وجهه ملامح الثائر:

لصالح فلسطين.

فلسسطيييييييييييييين.

كررها رئيس الاركان ساخرًا، قبل أن يصرُخ قائلًا:

وهل هُناك من أعطى فلسطين مثلي؟ لقد حاربت، بينما كان القادة يتصارعون على الحُكم، ومن أجلها خلعت حُسني الزعيم، ثُم من أجلها خلعت الحناوي.



وخبّط بيمينه على المكتب، وواصل:

أي مجنون أنت لتتصور أنني مع أعداء فلسطين. لقد غامرت بحياتي من أجلها وسأجعل سوريا كُلها تنتفض ضد الصهاينة لنطردهم مرة أخرى.

نظر رئيس الأركان بغيظ شديد إلى «حسين»، وقال له:

اسمع أيها المعتوه. لقد أصبت حارسي المُخلص برصاصة في الرأس، وهو الآن في المستشفى العسكري يعالج. لو مات، سأقتلك بيدي هذه، ولو لم يمُت سأجعله يقتُلك بمسدسه. هل تفهم؟ في الحالتين أنت ميت تتنفس أنفاسك الأخيرة.

وأشار للحارس ليأخذه من أمامه.

***

من القاهرة إلى دمشق قطع رحلته بالطائرة في ساعتين ليؤدّي واجبه في الترافع عن «حسين توفيق»



بعد اتفاقه مع والده على ذلك نظير أتعاب ألفي جنيه. كان «أحمد الناحي» المُحامي أحد الذين شاركوا في انتزاع رقاب قتلة أمين عُثمان من قبضة عشماوي بعد أن قدّم إلى المحكمة شهادات طبية تفيد عدم مسئولية «حسين» عن أفعاله نتيجة اضطراب نفسي يُعاني منه.

قال له «توفيق بك»:

إنَّ مُهمتك أن تُفلت حسين من الإعدام مثلما فعلت في السابق. أنت أفضل مَن يقوم بذلك.

ذهب إلى المحكمة العُليا بدمشق طالبًا الإذن بالترافع، قبل أن يبعث أحد أصدقائه من المحامين السوريين لجلب أوراق القضية. كانت القضية قد حوّلت للنيابة العسكرية التي أثبتت اعتراف «حسين توفيق» بإطلاقه الرصاص على رئيس الأركان أثناء هبوطه من سيارته مما تسبب في إصابة حارسه الشخصي بإصابات خطيرة. وقرأ المُحامي اعتراف عبدالقادرعامر بمشاركته في محاولة الاغتيال اعتقادًا منهما أنَّ رئيس



الأركان يسعى لعمل صلح مع الدولة الصهيونية، فضلا عن اعتراف «مصطفى كمال» باعتزامه المشاركة في العملية، إلا أنَّه قُبض عليه قبل ساعة من تحركه نحو موقع التنفيذ. أما «محمد المرصفاوي» فأنكر تمامًا أي صلة له بالعملية، بل إنَّه أنكر أن يتورط صديقاه «حسين توفيق» و«عبدالقادرعامر» في إطلاق رصاص على أديب الشيشكلي لأنهما يعرفان وطنيته، ثُم أنكر «المرصفاوي» معرفته ب»نوار» الفلسطيني الذي كان واضحًا أنه مَن وشى بهم جميعًا.

قدَّم المُحامي طلبًا للاجتماع برئيس الأركان قبل الترافع في القضية، خاصة أنَّه يعلم أنَّ القضاء العسكري بات وحاسم ويرفض ألاعيب المحامين وحيلهم. قال إنَّ إقناع الرجل بعدم سلامة المُتهم الأول كفيل باستدرار عطفه، وهو ما قد ينجح معه في الحصول على عفو عنه أو سجن مؤبد. فوجئ «أحمد الناحي» بسرعة تحديد الموعد ليجلس أمام رجل مهيب، تبدو عليه الحكمة رغم بعض العصبية البادية



على ملامحه. في البداية حاول المُحامي كسب ود الرجل فقال له:

تهانينا على الثورة ضد الحناوي. آمل أن تجد البلاد في ظل قيادتكم الاستقرار والرفعة.

لكنَّ «أديب الشيشكلي» ردَّ سريعًا:

لا ثورة ولا شيء. إنَّه انقلاب عسكري، ثُم أنا لست القائد كما ترى. هناك رئيس جمهورية.

تمام. لكنَّك كُل شيء.

ادخل في الموضوع أيها المُحامي الكبير. أنا لا أستطيع مجاراة المصريين في الحوار. أنتم ماهرون في كُل شيء، وأنا رجل عسكري لا أعرف اللف والدوران.

ابتسم المُحامي، وقال للقائد:

إنَّ مصر دولة كبيرة في المنطقة، ومن الضروري لأي سُلطة في دمشق أن تعمل على تحسين علاقاتها مع...



قاطعه الرجل سائلًا:

هل أنت مبعوث جلالة الملك فاروق؟

هزَّ المُحامي رأسه نافيًا، فكرَّر مُحدّثه:

هل أنت موكل من السيد مُصطفى باشا النحاس للتحدث باسم الحكومة المصرية؟

هزَّ المُحامي رأسه مرة أخرى، فصاح «الشيشكلي»:

إذن ادخل في الموضوع سريعًا.

حسين توفيق.

ما له؟

إنَّه ولد مريض نفسيًا وهذه شهادات طبية تؤكد....

قاطعته إشارة من كف الرجل، ورنَّ جرسًا أمامه ليطلب من الحارس أن يجلس أمام أحمد الناحي ثُم قال:

هل ترى أذنه؟



وأشار إلى بقايا أذن مبتورة، فوق جرح مازال واضحًا، قبل أن يضيف:

هذا رجل من أخلص رجالي. أطار الولد المريض الذي تدافع عنه أذنه فلم يعُد يسمع سوى بواحدة. ولولا ستر اللّه لقضى نحبه.

هزَّ المُحامي رأسه اقتناعًا، قبل أن يعود الهدوء إلى وجه رئيس الأركان ليسأله عما يشرب، ثُم قال له في أدب جم:

أنا أقدر موقفك أيها المحامي القدير. أنت تؤدي واجبك. لكن، صدّقني، لقد قررت المحكمة بالأمس أن يكون حكمها بإعدام حسين وزميله الآخر. أما الولدان الآخران فسيتم سجنهما عشر سنوات.

باتت خيبة الأمل مرسومة على وجه المحامي، الذي قال:

هل لي أن أسألك سؤالا؟



تفضل.

لِمَ قبلت لقائي وأنت تعرف أنني سأتحدث إليك في هذا الموضوع؟

ابتسم «أديب الشيشكلي» قليلا قبل أن يقول:

لقد انتظرت أن تُقنعني بأن حسين توفيق لا يستحق الموت. لكن هذا لم يحدُث.

شكره المُحامي بدبلوماسية قائلًا لنفسه إنَّ الرجل يريد أن يؤكد له أنَّ الأبواب لم توصد بعد.غادر مُفكرًا، ليلتقي «سُعاد» في منزلها، ناقلًا لها رسالة من «حسين» بأنَّ تأخذ وليدها وتسافر إلى القاهرة. كانت ذابلة العينين، وبدا وجهها شاحبًا من طول السهر والبكاء حُزنا على والدها الذي رحل بعد ثلاثة أيام من سقوط زوجها في أيدي الشرطة العسكرية، فضلًا عن رفض السلطات العسكرية رؤيتها ل«حسين»، والذي تظن أنَّه صار قريبًا من نهايته. قالت للمُحامي:



ما الذي يدفعني لترك الشام؟ والدي رحل، لتبقى أمي وشقيقتي وحدهما. وزوجي ينتظر الإعدام في أي لحظة. سأبقى هُنا.

انهمرت دموعها لترسم خطين أسمرين على خديها الجميلين. نظر لها المحامي بعطف قبل أن يقول:

أنتِ حُرة بالطبع. لكني أرى أنَّه ليس لك دخل الآن، ومعاش والدك بسيط جدا، وهو بالكاد يكفي احتياجات أمك. وشقيقتك هي الأخرى بلا عائل. وأفضل اختيار في تصوري هو القدوم معي إلى القاهرة. هُناك ستجدين كُل ما تحتاجينه ويحتاجه ابنك. هُناك ستجدين التربية المناسبة لخالد، والعائلة الأصيلة، والبيت الكبير. فكّري جيدا يا بنتي. وجودك هُنا بلا فائدة. وسنحاول الضغط سياسيًا للإفراج عن حسين.

لم تزُد، وشكرته دامعة، ثم ودَّعته، وهي تُفكَّر في الانتقال إلى القاهرة.

***



وصلته الرسالة واضحة: لا تقلق. صدر الحُكم بإعدامه، فاستعاد مشهد خروج الروح من أُناس وقّع شهادات النهاية لهم. كانوا حينئذ يرتجفون، وتجحظ عيونهم، ويُرددون حوارًا هامسًا مع لا أحد. أما هو فلم يشعر بأي خوف، لم تهتز لديه شعرة واحدة، ولم يخفق قلبه هلعًا انتظارًا لإنهاء حياته. كان يشعر بالسكون التام، واللامبالاة المُعتادة، وهدوء الأعصاب الغريب.

ظلّ «حسين» في محبسه يرتدي بذلة الإعدام، وإلى جواره عبدالقادر ببذلة شبيهة، وقد ربط ذراعه نحو عُنقه، تأثرًا بإصابته بالرصاص يوم الحادث. علما ببراءة «مصطفى كمال» و«محمد المرصفاوي» وترحيلهما إلى القاهرة قبل ساعات من علمهما بالحُكم الذي تُلي غيابيًا.

مرّت الأيام دون عد، واختفى المُحامي تماما بعد أن انتهى إلى لا جدوى من نقض الحُكم باعتباره عسكريًا باتًا، حتى فوجئ «حسين» ذات مساء باستدعائه إلى غرفة مُدير السجن العسكري ليتركه المدير مع رجل المُخابرات المُخضرم «عبدالرحمن ناصر». استعاد



السجين حيويته، وفتح الأمل نوافذه مرة أخرى على قلبه، عندما قال له الرجل إنَّه يُقدر ثباته وصلابته، وأنَّه لن يُعدم وسيبقى طي النسيان حتى يأذن الله له بالخروج. أخبره الرجل أيضًا أنَّه بعث بمبلغ من المال لزوجته، قبل أن تُسافر إلى القاهرة بصُحبة ابنها، وأنَّه فعل الأمر نفسه مع زوجة «عبدالقادر». حكى الرجل سريعًا أنَّ أكبر خطأ ارتكبه «حسين» هو ثقتة الزائدة في «نوار» الفلسطيني الذي كان يعمل لحساب جماعة أخرى على صلة ود ب«أديب الشيشكلي» نفسه. أخبره «عبدالرحمن» أنَّ القاهرة تشهد زخمًا شديدًا بعد أعمال شغب عديدة تم خلالها حرق المنشآت العامة والمباني الأجنبية، وتم إقالة الحكومة بعد تحميلها المسئولية. سأل حسين مُحدثه عن الوقت المتوقع لبقائه في السجن، فردّ «عبدالرحمن» بأنَّه رهين بقاء «الشيشكلي» على كرسي الُحكم، لكنَّه أكد مرة أخرى أنَّه لن يُعدم لأنَّ رئيس الأركان الذي أطاح برئيس الجمهورية لينفرد بالحكم سيبقيه ليتفاوض به مع القاهرة بغية تحسين العلاقات. اقتنع «حسين»



بحديث الرجل، وقام بطمأنة زميله في الزنزانة، والذي كان يعاني من هُزال شديد واكتئاب حاد.

تلقى «حسين» رسالة من زوجته أبلغته فيها بصدور مرسوم ملكي بالعفو عن جميع المحبوسين في قضية مقتل «أمين عُثمان» واستثنائه بسبب هروبه. أخبرته أنَّها التقت زُملاءه «محمد إبراهيم كامل»، و«مدحت»، و«سيد»، و«عُمر»، و«محجوب»، وأنَّهم رأوا «خالد» وقالوا إنَّه نسخة من «حسين»، وتوقع «سعيد» ساخرًا أنَّ يصبح «خالد» ضابطًا للشرطة. حكت له أنَّ خالته أصرَّت على تعليق خرزة زرقاء في سلسلة من الفضة في رقبة الولد الصغير، لتقيه شر الحسد. وألمحت الزوجة بأنَّ حماتها مازالت تنظر إليها نظرات لوم مُرددة دائمًا أمامها أن الزوجات حظوظ، وأنَّ هُناك زوجات تجلب الخير وأخريات تأتي معها المصائب. قالت إنَّ حماها يبدو أكثر ودًا رغم غيابه المتكرر عن البيت، وإنَّه ينظر دائمًا بمحبة وعطف إلى «خالد»، قبل أن تغلبه دموعه سريعًا.



«محمد إبراهيم كامل» بعث برسالة أخرى إلى «حسين» أكد له فيها أنَّ جميع الأصدقاء فخورون به، وبنضاله ضد الصهيونية، وأنَّه قرأ تحقيقًا صحفيًا في مجلة روزاليوسف سألوا فيه بعض الشباب عن قدوتهم، فنطق أحدهم باسم «حسين توفيق»، ولما سُئل عن سبب اختياره، أجاب بأنَّه أطلق الرصاص على خادم الاحتلال، وطارد جنود الإنجليز واعتدى عليهم، ثُم سافر للحرب ضد إسرائيل، وتتبع الخونة في كُل مكان. «لقد صرت أبًا روحيًا للمناضلين الجُدد» قرأها «حسين» في رسالة صديقه وابن خالته، والذي زفَّ نبأ تخرجه وعمله بالمحاماة. كان من اللافت أنَّ أحدًا لم يُخبر «حسين» شيئًا عن «محمود مراد»، لكنَّه توقّع ما سبق أن قدم له «إبراهيم كامل» في رسالة سابقة بأنَّه طلّق السياسة تمامًا، وتفرَّغ للهندسة ولا شيء آخر.

مرَّت الأيام رتيبة، باهتة، ومتشابهة على السجينين المحكوم عليهما بالإعدام مع وقف التنفيذ. خفّت شحومهما، وتآلفا سريعًا مع العساكر والحُراس، قبل أن يتعرفا على بعض السُجناء الآخرين خلال ساعات



التريُض. كان من المُثير أنَّ أحدًا من السُجناء لا يعرف جناياتهم أو حتى العقوبات التي ينبغي عليهم تنفيذها، خاصة أنَّ بعضهم أدين بأحكام صادرة من «حُسني الزعيم»، ثُم تم إلغاؤها من خليفته، ثُم أعيدت مرة أخرى بعد انقلاب «أديب الشيشكلي» الأول. تعرّف «حسين» و«عبدالقادر» على عدد من شباب جماعة الإخوان الفارين من مصر، والذين أكدوا لهما أنَّ السجن في سوريا أهون كثيرًا من سجون «إبراهيم عبدالهادي» الذي قمع الإخوان بعُنف وسادية عقب اغتيال «النقراشي باشا».

ذات صباح صيفي قصَّ عسكري سوري على السجناء المصريين قصة تحرك الجيش في القاهرة للاستيلاء على السلطة وإعلان خلع الملك. كان من المُفاجئ لحسين أن يعرف أنَّ قائد الانقلاب هو «أنور السادات»، والذي أذاع بيان الحركة. سرحت ذاكرته في صاحب الوجه الأسمر وتذكر كيف كان مُرشده الأول، واستبشر أن يرى النور قريبًا، ما دام «الحاج



محمد» على رأس الحركة الجديدة. قال لزميله في الزنزانة وهو يُدخّن بنهم:

استعد. سنخرُج قريبًا.

وظل يُكررها خمس سنوات.

***

لم تجد «سُعاد» في بيت «توفيق بك» في مصر الجديدة السعادة المُنتظرة خاصّة في ظل تحكم حماتها في كُل شيء. كانت «سُعاد» لا تستطيع الخروج من البيت إلا بإذن خاص، وبصُحبة السيدة الكبيرة أو شقيق زوجها «سعيد»، وكانت تجد شُحًا بالغًا من سيدة البيت في مصروفها الشخصي الذي اقتصر على بضعة جنيهات كُل شهر.

لم تر الفتاة الحالمة قاهرة الصخب، حاضنة الفن والجمال التي طالما قرأت عنها في الصُحف والمجلات. لم تسر في شوارع وسط البلد، ولم تسهر على أي من مقاهيها، ولم تلتق بمبدع أو فنان شهير في أي



احتفال. كان كُل شيء حولها يتغير بسرعة جعلتها لا تكاد تُصدق سُرعة التحولات المُترتبة على ثورة يوليو.غابت الطرابيش رويدًا، مع إلغاء الألقاب، وصدرت قرارات كثيرة بالعفو عن سجناء سابقين في قضايا سياسية.

كانت العائلة الثرية تفتح بيتها لزيارات بعض العائلات الأخرى أو الأقارب، وكانت النظرة التي تتلقاها «سُعاد» دائمًا من الزائرات تحمل مزيجًا من الازدراء والاستغراب، ازدراء من فتاة تزوّجت شابًا وسيمًا ثريًا، فُحكم عليه بالإعدام، واستغراب من ملابسها البسيطة، ولهجتها الشامية. كذلك حمّلت سيدات العائلة الفتاة السورية مسئولية إصابة وليدها «خالد» بمرض عصبي خطير نتيجة ارتفاع درجة حرارته عندما كان صغيرًا. كان من الواضح أنَّ الولد قريب الشبه ب«حسين» يُعاني من صعوبة شديدة في الكلام، وكثيرًا ما كانت تنتابه حالة ارتعاش مُتكرر، وبكاء دون سبب رغم بلوغه الثالثة من عُمره. فكَّرت «سُعاد» أكثر من مرة في عرض الولد على كبار الأطباء، لكن تحكم حماتها

في جميع أمور الولد أصابها باليأس، ودفعها للتفكير أكثر من مرة في العودة إلى دمشق، إلا أنَّ اعتلال صحة حميها حال دون ذلك، فضلا عن عدم السماح لها بزيارة «حسين» في سجن المُزة الذي نُقل إليه بعد وقف إعدامه بقرار من رئيس الجمهورية الذي سعى لمد علاقات ود مع القاهرة.

فى يومٍ ما زارها «محمد إبراهيم كامل»، وقال إنَّه زار السيد أنور السادات عضو مجلس قيادة الثورة ووعد بالتدخل للإفراج عن «حسين»، خاصة أنَّ الثورة في حاجة لجهود الشباب الوطني لخدمة بلده. وأخبرها ابن خالة زوجها بأنَّ «جمال عبدالناصر» عرض عليه العمل في الحكومة فاختار العمل الدبلوماسي، حيث تم تعيينه في وزارة الخارجية، وسيسافر قريبًا للعمل في إحدى السفارات. ورجاها أن تُكرر الاتصال ب»أنور السادات» لتذكيره بموضوع «حسين»، لكنَّ حماتها منعتها واختطفت رقم الهاتف من أصابع ابن أختها مؤكدة أنَّ النساء ليس لهن الحق في الاتصال بأحد في غياب أزواجهن، وأنَّ «سعيد» سيقوم بالمهمة على خير



وجه. ورغم مرور أسابيع طويلة على اللقاء، فإنَّ «سعيد» لم يتمكن من لقاء «السادات» بسبب كثرة مشاغله.

فيما بعد قررت «سُعاد» الاعتماد على نفسها وزارت الصحفي «إحسان»، الذي أخبرها بأنَّ «السادات» أكد صعوبة التدخل لدى دمشق بسبب ثورة الجبل الجارية ضد حُكم أديب الشيشكلي وأن أفضل شيء هو الانتظار، وهو ما دفع «سُعاد» لاتخاذ قرار العودة إلى سوريا. وأدى إصرار حماتها على بقاء «خالد» في القاهرة إلى سفرها وحيدة لتجد شقيقتها في انتظارها بالمطار تُخبرها بأنَّها رأت منامًا يؤكد أنَّ الإفراج عن زوجيهما بات قريبًا. كانت «فاطمة » تؤمن إيمانًا شديدًا بأن الأحلام تحمل كثيرًا من البشارات والعلامات، وكانت مولعة بتفسيرها، وهكذا قصّت على شقيقتها أنها رأت رجُلا مهيبًا يفتح قفصًا لتطير منه عدة عصافير وهي تزقزق فرحة.

كانت دمشق قد اتشحت بالسواد، بعد سقوط عشرات القتلى من الدروز في ثورة الجبل، وبدا واضحًا على



وجوه التجار والباعة هموم الكساد والفاقة، في ظل نظام القمع القائم، الذي سبق نظام ثورة يوليو في حلّ جميع الأحزاب والبرلمان واعتقال الساسة وحظر المُظاهرات. ومع تعاظم الثورة ضد الحاكم الحديدي اضطر «أديب الشيشكلي» إلى مغادرة سوريا وطلب اللجوء إلى بيروت ليُعلن في خطاب رسمي تخليه عن السُلطة نهائيا، مما أعاد الفرح مرة أخرى إلى وجوه الناس في أرجاء الشام.

ولم تمض أيام على الواقعة حتى سُمح ل»سعاد» و«فاطمة» بزيارة زوجيهما، مما جعل «فاطمة» تفخر أمام شقيقتها بصدق أحلامها، وزاد من فرحتهما خطاب أرسله «سعيد توفيق» قال فيه إنَّه نجح أخيرًا في لقاء «السادات»، وأنَّه وعد بالتدخل لدى السُلطات السورية للعفو عن «حسين» وزميله «عبدالقادر».



الفصل الثالث

القاهرة مرة أخرى

جلس عضو مجلس قيادة الثورة بمكتبه الجديد بدار التحرير مُفكرًا في كيفية تجنب الدخول كطرف في الصراع الدائر على السُلطة والنفوذ داخل النظام الجديد. كان «أنور السادات» يعي جيدًا أنَّ موضع الثِقل داخل مجلس قيادة الثورة يميل ناحية الضابط الأسمر الذكي القادم من أسيوط الذي اشتهر اسمه بعد حرب فلسطين كأحد الضباط الوطنيين. فكَّر أنَّ «جمال عبدالناصر» بسمته البسيط وعقليته المُتشككة قادر على حسم الأمر لصالحه. تيقن «السادات» بعد الأزمة العاصفة التي كادت أن تودي بالبلاد في مارس الماضي أنَّ الأسد العجوز الموضوع كرئيس للجمهورية ليس سوى واجهة يتحكم فيها «جمال عبدالناصر» المُحرِّك الحقيقي لكل شيء حوله. إنَّ «محمد نجيب» في تصوره رجل نبيل لديه أخلاق، لكنه يُفكّر بذات الطريقة التي يُفكر بها السياسيون القدامى، ويتصور



أن الجماهير قادرة على حمايته وإنصافه في صراعه ضد باقي أعضاء مجلس القيادة. قال إنَّ إهمال تنفيذ قرارات الرجُل أكد للجميع أنَّ «عبدالناصر» هو الأقوى والأجدر على القيادة، فهو الذي استطاع إنهاء تمرد سلاح الفرسان، وهو الذي نجح في التلاعب بجماعة الإخوان، وبفلول الأحزاب البائدة ليُسيطر على الأوضاع ويُديرها لصالحه.

بعد استقالة «نجيب»، ثُم عودته تحت ضغط غريب من «عبدالناصر» و«عبدالحكيم عامر» صار من الواضح لكل قريب من الأحداث أنَّ الأيام القادمة ستشهد تحولات خطيرة، تؤكد أنَّ ما جرى في دمشق يُمكن أن يتكرر في القاهرة. لذا فقد قرر الضابط الذي تمرّغ في سجون مصر قبل سنوات، وشارك في أكثر من مؤامرة ومغامرة أن يُبدي زُهدًا وترفعًا عن أي منصب أو مكانة تجعله طرفًا في الصراع.

قال لنفسه محاولًا إقناعها بصدق نواياه أنَّه أكبر من التورط في صراعات رفاق السلاح بعد حياة حافلة بالمغامرات والأخطار دفع فيها الثمن سجنًا وتشردًا



خارج عمله، ومُطاردًا من البوليس السياسي. كان يعتقد أنَّ القدر يُخفي له جوائز مُستحقة، خاصة أنَّ الصدفة دفعت به ليُلقي بيان الحركة المُباركة رغم قيامه بالذهاب إلى السينما ليلة التحرُك بصُحبة زوجته والتشاجر مع أحد المُشاهدين وتحرير محضر لإثبات براءته حال فشل الحركة. كما أوكلت له بعد أيام من نجاح الحركة مُهمة القبض على «إبراهيم إمام» غريمه اللدود ليبدو وقتها أحد قادة النظام الجديد الذي سيمحو تمامًا كُل ما سبقه. تذكر كيف قرأ في عيني غريمه رباطة الجأش والاستسلام البارد لمصير مجهول، ثُم مرَّت برأسه سنوات المُلاحقة وأيام التتبع المُثير من رجل يلتزم بالقانون ويُبدي تعاطفًا صامتًا مع شباب العمل السري. قال لنفسه إنه كان يحترم إبراهيم إمام رغم أنَّه فكّر مرارًا في قتله، لأنَّه كان خصمًا شريفًا، وضابطًا نبيلًا.

واصل رأسه تقليب مشاهد حياته ليتذكر كيف نجح في قتل «أمين عُثمان» دون أن يضغط على الزناد. لقد حقق مُراده في الانتقام من «مُصطفى النحاس» الذي



طرده من الجيش، ونفّذ رغبة الملك في قطع رأس عدوه اللدود دون أن تتلوث يداه بالدماء. كانت كلماته وشخصيته وقدرته على الإقناع كفيلة برسم نهاية وسيط الوفد والإنجليز من خلال صبية أشقياء يتصورون أنَّهم يد العدالة. تذكر «السادات» إلحاح «محمد إبراهيم كامل» و«عُمر أبو يعلى» للتدخل لدى الحكومة السورية للإفراج عن «حسين توفيق»، وخلُص إلى أنَّ رميه الكُرة في ملعب زميله «عبدالحكيم عامر» سيضرب عصفورين بحجرٍ واحد، حيث سيتجنب شكوك «جمال» في تكوين شلَّة من الأشقياء والمغامرين، وسيُرضي كبرياء وشهامة «عبدالحكيم عامر» الباحث عن أي ظلال ضوء في ظلّ تضخم اسم صديقه الحميم.

فكَّر «السادات» وهو يُدخّن بتلذُذ في ضرورة تجنُب الدخول في أي مُغامرات جديدة قد تؤثر على مُستقبله، وهو ما دفعه مرارًا إلى أن يقف إلى جوار «جمال عبدالناصر» في جميع طروحاته، مُعضدًا ومؤيدًا، حتى ذلك اليوم الذي اقترح فيه «جمال» حلّ



مجلس قيادة الثورة وإعادة الأحزاب والدعوة للانتخابات، رفض بحدّة لأنَّه يعرف أنَّ اقتراح زميله مُجرد اختبار لكشف مَن يقفون معه ومَن يقفون ضده. قال لنفسه إنَّ وظيفة مُدير لجريدة الثورة، تُلائم ميوله، وتُناسب قناعاته في الوقوف خلف الستار لمُشاهدة عصف الرفاق بعضهم ببعض، وتذكر أنَّ قدوته في السياسة ومحبوبه الأثير «مصطفى كمال أتاتورك» لم يتحرك نحو موقع القيادة إلا بعد أن صفا له الأمر بخروج المُنافسين واحدًا تلو الآخر.

سيسقط «محمد نجيب» قريبًا، وسيخلو المجال أمام «جمال» ليستحوذ على السُلطة مُنفردًا، وسيشتبك مع البعض وسيقصيهم لاستعادة لقب الفرعون مرة أخرى. هكذا تصوَّر، وهو يرنو بعينين ماكرتين إلى ماكيت الجريدة التي اختار لها اسم «الجمهورية» والتي صار مسئولًا عنها.

***



داست عجلات الأيام مشاعره، وحفرت كآبة الجُدران الأربعة شُقوق روحه، وهو يُتابع انقلابات الصحاب وتحولات الناس في بلاده. أيقن «حسين» أنَّه دفع ثمن جرأته وإقدامه عُمرًا من الوجع، وسنوات من الوحشة، والاغتراب. علم بوفاة والده وهو قابع ينتظر عفوًا لا يجيء ليزداد حنقًا على حنق، ويستعر غلًا تجاه بطولات توزع، وزعامات تُمنح زورًا وبهتانًا. قال لزوجته في إحدى الزيارات إنَّ «جمال عبدالناصر» الذي صار ملء السمع والبصر، كان مُنهمكًا في القراءة عندما كان هو يقتل الإنجليز في شوارع القاهرة. أخبرها بأنَّ ذلك البطل الذي صار عنوانًا للبلاد بعد فشل العدوان الثلاثي على مصر ليس سوى بائع كلمات، وتاجر مواقف. أكد لها أنَّ المُنقذ الذي يرنو له الناس باعتباره مُخلصًا ومُنقذًا لم يُطلق رصاصة ولم يقترب من الموت. آلمه ما نُقل له من وضع أراضي والدته تحت الحراسة، وشعر بالجحود لنسيانه ونسيان جهاده، وعدم ذكر اسمه في الصُحف كواحد من أبطال الوطن. اجتاحه الحُزن على ابنه المريض الذي لم يره وهو يخطو أولى خطواته.



في السجن قرأ عن خيانات التاريخ لأبطال عظام، ورجال شُجعان، تحولوا إلى مُجرمين شواذ تحت وطأة صناعة التاريخ للقادة الجُدد. راجع كيف كانت السُلطة في كُل عصر تمحو أي بطولات لم تُشارك فيها. ذكّر «حسين» صديقه «عبدالقادر» بما جرى للقائد العسكري «روميل» على يد «هتلر» الذي اعتبره خائنًا ودفعه للانتحار خوفًا من افتتان الناس به. قال له إنَّ خليفة المسلمين «سليمان بن عبدالملك»ّ عذّب «موسى بن نُصير» القائد العظيم وباعث الفتح الاسلامي للأندلس ورماه في السجن إلى أن مات.

فكّر «حسين» مرارًا في الهرب، لكنَّه كان يعلم أنَّ خصومه في الخارج يترقبون اللحظة المُناسبة للفتك به. كان يوقن أنَّ جماعات الفداء العربي ورجال هاني الهندي وجهاد ضاحي الذين صاروا نجومًا ورموزًا في بلاد الشام لن يغفروا له محاولته قتل «أديب الشيشكلي». في الوقت نفسه، كان يعلم أنَّ رجل المُخابرات السوري الذي أوغر صدره يومًا على رئيس



الأركان السابق لن يحميه، وأنَّ أقصى ما كافأه به هو إيقاف تنفيذ الإعدام به حتى ينساه الجميع.

راجع «حسين» بمرارة خيانات عديدة طعنت ظهره، مُتذكرًا ما فعله «نوار» الفلسطيني به وبصُحبته رغم كُل ما قدّم لفلسطين من حُب وقتل وتفجيرات هُنا وهُناك. استعاد يوم أن رفض زُملاؤه ضم «نوار»إلى الجماعة تحت دعوى عدم الثقة، وتذكر كيف قال لهم أنه قادر على قراءة عيون البشر، وأنَّه على يقين أنَّه مُخلص وأمين، وأنَّهم في حاجة لدوره باعتباره مصنع ديناميت مُتنقلًا. لقد كان «حسين» مفتونًا بالديناميت ويعتبره وسيلة قهر رائعة وأداة قتل سريعة نظرًا لما يُلقيه من حِمم مُلتهبة على أجساد البشر. أخبره «نوار» وقتها أن صناعة الديناميت مهنته، وأنَّه مُتخصص في تجهيز أدوات النسف عن بُعد من خلال مادة النيتروجلسرين التي درس وتعلم تركيبها، لذا فقد تمنَّى «حسين» أن يتعلم كيفية صناعة النيتروجلسرين، لكنه كان على موعد مع درس آخر هو درس الخيانة.

قال يومًا لنفسه إنَّ ذلك الصمت يقتله، يستنفد ما بقي لديه من إقدام، يمتص دم التحدي في خلاياه. كُل يوم يأكل من عُمره لحظات كان يعتقد أنَّ الدنيا خسرتها ببقائه ممنوعا من الحركة، محدود الخطوات. أحداث لن تقع، وأحوال لن تتغير، وكلاب ستظل تنبح ما دام حبيسًا. هكذا فكّر، وهو يتذكر لقاءه ب»الحاج محمد» في غُرفة مُنعزلة قُرب مسجد قيسون.

***

لم يكترث «حسين» كثيرًا عندما استدعاه مُدير سجن المُزة ليُبشِّره بقرار الإفراج عنه. كان يشعر أنَّ الإفراج تأخر طويلًا، وأنَّه دفع أكثر مما ينبغي نتيجة وطنيته وحماسه. قدّم له مُدير السجن ضابطًا مصريًا قال إنَّه مبعوث من سيادة المشير «عبدالحكيم عامر» شخصيًا، الذي احتضنه كصديق، وقبَّله كأخ قبل أن يبارك له على خروجه من السجن وينقل له تحيات القيادة العسكرية في مصر. عاد الدفء إلى شرايين «حسين» عندما حادثه الضابط الشاب باعتباره بطلًا قبل أن يقول له إنَّه يعرف عنه الكثير من مقالات «إحسان



عبدالقدوس». طبع الرضا بصماته على وجه «حسين»، وهو يستمع لصوت الضابط وهو يقرأ له مقالة كتبها «إحسان» عنه تقول كلماتها:

«إنَّ العلاقة بيني وبين «حسين توفيق» هي أغرب علاقة قامت بين كاتب وقارئ، فمنذ أن أطلق «حسين توفيق» النار على «أمين عثمان»، وأنا أحسّ كلما أمسكت قلمي لأكتب مقالًا أنَّي أكتب له، وأنَّ صورته تلاحق كلماتي وتسألني معانيها وما أقصده من ورائها. كان «حسين» يبادلني نفس الشعور، ويعتبر مقالاتي خطابات شخصية له، وكان يجد أنَّ من حقه أن ينتقدني فيما أكتب ويناقشني فيه ويغضب مني ويغضب لي، ولكنَّ «حسين توفيق» لم يكن يمثل أمامي شخصه فقط، بل كان يمثل جيلًا كاملًا أنتمي إليه، ويعاني مثل ما أعانيه من حيرة وكبت، جيلا يحقد على التاريخ لأنه لم يعش فيه، ويحقد على الحاضر لأنَّه لا يؤمن به، ويحقد على المستقبل لأنَّه لا يستطيع أن يطمئن إليه، جيلًا ينظر إلى زعماء بلده فلا يجد خيطًا واحدًا يصل بينه وبينهم، أو بينه وبين



واحد منهم، ويحاول أن يسمع في أقوالهم أو يرى في أعمالهم صدى لآرائه وترجمة لعاطفته فلا يسمع ولا يرى شيئًا يقربه».

تذكر وجه «إحسان» الهادئ الخجول وهو يُطمئنه بأنه آمن ما دام معه، وقال لنفسه إنَّه رفض المُكافأة المرصودة للإبلاغ عنه، ثُم تذكر الضابط «محمود موسى» الذي رافقه من مخبأ إلى مخبأ، قبل أن يفتح له باب القفص ليطير بعيدًا عن مُطارديه. حاول إيجاد ملامح شبه بينه وبين ذلك الضابط الواقف أمامه، لكن البون كان شاسعًا، ف«محمود موسى» كان باردا كقاتل مُحترف، صلبًا كصخر، لديه عينان نفاذتان، بينما الضابط الواقف يبدو طيبًا، مُطيعًا. سأله عن ترتيبات الخروج فأخبره أنَّه سيحل ضيفًا على مدير مكتب الاتصال العسكري في فندق فخم بالعاصمة، قبل أن يصحبه مع زوجته إلى القاهرة. سأله عن «عبدالقادر عامر»، فقال الضابط إنَّه علم بحكايته من مدير السجن، وأنَّه سيعد تقريرًا عنه لكي يشمله الإفراج ليلحق بهم في أقرب وقت.



في الصباح ودّع «حسين» زميله بوجه بشوش، مُطمئنًا بأنه سيخرجه خلال أيام، ورافق ضابط الاتصال العسكري، الذي كان يُناديه باسمه مصحوبًا بلقب أستاذ، قبل أن يجد نفسه خارج بوابات السجن أمام زوجته الوفية، التي انتابها بُكاء هيستيري وهي تحتضنه غير مُصدقة. استمتعت عيناه بمُتابعة الطريق الخاوي من المارة، قبل أن تقترب السيارة من ضواحي دمشق. راجع بذاكرته مشاهد القباب والمآذن والبنايات القديمة والشوارع الضيّقة، وتذكر جلسات المقاهي، وفناجين الشاي، وأوراق التبغ. مرّت برأسه رائحة البارود وُدخان القنابل، وهو يعبر إلى جوار مبنى القُنصلية الأمريكية، واستعاد لقاءه ب»هاني الهندي» و«جهاد ضاحي»، قبل أن تلوح له صورة «نوار» في زي ضابط بوليس إنجليزي. لمح شارع الحدث الأخير ليقول لنفسه: هُنا أطلقنا الرصاص على «أديب الشيشكلي» لنمنع صعوده إلى كرسي الحُكم، لكنَّه صعد، والآن أتنفس أنا الحرية، بينما يتخفى هو في منفاه بالبرازيل كجروٍ هارب.



شبكت «سُعاد» أصابعها بأصابعه، ورغم دفئها فإنَّه لم يحس نعومة جلدها، لأنَّ عقله وقلبه ومشاعره كانوا مُتعلقين بمشهد دخوله إلى القاهرة كبطل مُنتصر. تساءل إن كان الناس سيقيمون الزينات لاستقباله، وهل سينتظره «جمال عبدالناصر»، و«عبدالحكيم عامر»، و«السادات» فى مطار القاهرة؟ هل سيطلقون اسمه على أحد الشوارع أو الميادين الرئيسية؟ هل ستحضنه أمه وتُخبره بأنَّ أباه مات وهو فخور به؟ وهل سيجد «سناء» في انتظاره تبكي ندمًا وتطلب الغفران؟ ثُم هل سيعرفه ابنه الوحيد؟

التفت إلى زوجته وسألها إن كان عليهما شراء لعب أطفال وملابس لخالد قبل السفر، لكنَّها لم ترُد. سكتت طويلًا قبل أن تسأله عن موعد الإفراج عن «عبدالقادر»، ليهز رأسه مُرددا: قريبًا. أشعل سيجارة ونفثّ منها دُخانًا طويلًا وقال لها:

كل ما أخشاه يا سُعاد أن يتأثر خالد بتربية أمي. آمل ألا تكون قد زرعت فيه حُب الأتراك.

هزَّت رأسها دون كلام، فاستطرد قائلًا:

لكن. هل تعرفين. إنَّ سعيد لن يترُكه. سعيد ليس أخي، إنَّه ابني، وسيعرف كيف يزرع في خالد الشجاعة والجرأة والقوة.

سعيد يحبك بشدة.

أشتاق له، ولمدحت وابراهيم كامل، ولبيتنا. أشتاق لمصر وشوارعها وحواريها وناسها. لكن هل تعرفين يا سعاد كلي شوق لخالد. لقد كنت أنتوي تسميته عبدالقادر، وكنت سأعلمه السباحة في سن الرابعة، وسأجعله يركب خلفي على الحُصان و...

لم يكمل بعد أن قاطعته «سُعاد» بحدّة وهي تقول:

كفى يا حسين. كفى.

أنكر صوتها، ومنحها نظرة استفسار قبل أن يصيح سائلًا:



ماذا جرى يا سُعاد؟

قرأ في عينيها نظرة تحسر قبل أن تستجمع شجاعتها وتقول:

خالد مات. مات يا حسين. مات مُنذ سنوات بعد أن أصابه مرض عصبي غريب.

أسكتته الصدمة، وعاد ظلام الزنزانة يتراءى أمامه، وضغطت أصابعه بحدَّة على السيجارة ليطفئها بين راحتيه، مانحًا العالم زفرة احتجاج وغضب.

***

تغيرت البلاد ومَن عليها. صارت الشوارع أكثر ازدحامًا، وبدا الجد والحيوية ناضرًا على وجوه الناس، وتعرَّت الرؤوس من طرابيش كانت يومًا دليل هيبة واحترام. رأى «حسين» مقاهى وسط البلد تتسع لشباب يافع ببذلات أكثر أناقة، ولمعت أحذية الجالسين وهم يُدخنون ويثرثرون في اهتمام، بينما ازدان كثير من المحلات التُجارية بصور الزعيم «جمال عبدالناصر»،



وصار من المعتاد أن يجتمع الناس حول الراديو لسماع خطاباته. شاهد الترام غاصًا بالركاب والموظفين الذين تم تعيينهم في عشرات المصالح والهيئات الحكومية، وندرت وجوه الأجانب رويدًا في المطاعم والبارات وعلى المقاهي، في حين أغلقت معظم محلات اليهود أبوابها بعد هجرة أصحابها إلى الخارج. كما اختفت من جُدران الشوارع الرئيسية ملصقات وأسماء الأحزاب، ومُحيت شعارات حركة «مصر الفتاة» والإخوان المسلمين في الوقت الذي تقاطعت فيه اللافتات القماشية تلهج بالتأييد والثناء للزعيم العظيم وقائد حرب بورسعيد المجيدة.

استعاد «حسين» روحه الفُكاهية وهو يجلس بجروبي مع «سعيد» و«مدحت» و«عبدالقادر عامر» يتحدثون ويُدخنون. كان «حسين» قد تعرض لصدمة قاسية عندما وصل إلى القاهرة والتقى مُدير مكتب المشير «عبدالحكيم عامر»، حيث فوجئ بهم يُعينونه موظفًا بشركة شِل للبترول براتب ثمانين جُنيها. اندهش «حسين» أن تكون مكافأته التي قدمها له الرجل



الثاني في مصر هي تعيينه موظفًا صغيرًا في شركة بترول، بدعوى عدم حصوله على شهادة جامعية، في الوقت الذي وضعت فيه أراضي والدته تحت الحراسة. أبدى انزعاجًا من القرار، لكنَّ مدير مكتب المشير أنبأه أنَّ قرار تعيينه في الشركة لم يكُن مقبولًا لولا تدخل المشير شخصيًا خاصة أنَّه ليس لديه شهادة جامعية. كما شمل قرار التعيين زميله «عبدالقادر عامر»، الذي وصل إلى القاهرة بعد أسبوع واحد من عودته، لكنَّه اختار أن يكون عمله بالإسكندرية إلى جوار أسرته.

قال «حسين» لجلسائه في سُخرية:

إن عبدالناصر ضحك على الجميع. خدع الناس بوظائف وأراضٍ ومناصب وأحكم قبضته على البلاد شرقًا وغربًا، فصار الحاكم الأوحد، وقدّم نفسه كزعيم عظيم.

نظر «مدحت» يمينًا ويسارًا، ثُم قال:

لكن لا تنس أنَّه حقق الجلاء، وألغى الأحزاب، والألقاب، وانتصر على ثلاث دول في بورسعيد.

ضحك «حسين» بصوتٍ عال، وقال مُفندًا:

أي جلاء ذلك الذي حققه، وكان الثمن ضياع السودان وانفصالها عن مصر. ثُم مَن قال لكم إنَّه ألغى الألقاب، لقد ألغى لقبًا، ليستبدل بدلا منه عدة ألقاب. كُل واحد من أعضاء مجلس الثورة صار باشا بل أعظم من الباشا. أما الأحزاب فقد أعدمها تمامًا ليس من أجل مصر، وإنما من أجل نفسه، حتى لا يصبح له بديل. وما تقوله عن العدوان الثلاثي نكتة «بايخة»، لأنني أعرف منذ كنت في دمشق كيف كانت الهزيمة ثقيلة على مصر، وأنَّه لولا تدخل أمريكا مباشرة لما انسحبت قوات العدوان. إنَّ عبدالناصر هذا عميل أمريكي مُستتر.هو ممثل فاشل، وسيقود البلاد نحو الخراب.

بدا «عبدالقادر» مُتفقًا مع «حسين» فيما يقوله عندما تدخل شارحًا:



لقد نحى نظام عبدالناصر الثوار القدامى لصالح رجاله وخدمه. وها نحن نعمل ولا نعمل. مجرد موظفين بالاسم في شركة كُبرى، لكنَّنا نجلس على المقاهي كل يوم، لأنَّه مطلوب منا أن نسكت صونًا لأكل العيش. حسين معه كُل الحق.

ألم تتسلم عملك بعد بالاسكندرية؟

سأل «حسين»، فأجاب «عبدالقادر»:

قالوا لي أنت مُعين ولك راتب شهري، لكن لم يطلبوا مني انتظاما أو يعهدوا إليّ بأي مهام. ألم أقل لك يا حسين إنها رشوة.

ردّ «حسين» بحنق:

ليست رشوة. إنَّها أقل من حقنا على هذا البلد وعلى هؤلاء الانتهازيين. لقد اختطفوا الحُكم منا. تركونا ندفع الثمن، وحازوا هُم السلطة.

ثُم رمى «سعيد» بنظرة ذات مغزى مُضيفًا:

ألم يُعينوا إبراهيم كامل في وزارة الخارجية. وعيَّنوا سيد في هيئة الاستعلامات. أما أنا وأنت وعبدالقادر فألقوا بنا في شركة بترول حكومية. إنَّهم يقصدون ذلك. هل تعرفون أين تم تعيين عبدالرحمن السندي قائد الجهاز السري للإخوان المسلمين؟ لقد عينه عبدالناصر في هيئة قناة السويس لأنَّه كان صديقه وقاتله السري.

نظر «مدحت» إلى الخارج، مُتابعًا سير السيارات بشارع 26 يوليو، الذي مازال الناس يطلقون عليه اسم شارع فؤاد، وتذكر كيف سافر شقيقه «نجيب» إلى أوروبا ليستكمل دراسته، بعد أن تزوج «سناء» شقيقة «محمود مراد» ثُم غاب رويدًا حتى صار كغريب أو خواجة. تذكر أيضا كيف اعتزلهم «محمود مراد» تمامًا، ثُم تزوَّج وسافر للعمل في الصعيد. قال «مدحت» ل»حسين»:

أنت مُحق يا حسين. لقد أخصى نظام عبدالناصر جيل الشباب كلُه، إما بالوظيفة أو بالسجن مثلما جرى مع الإخوان والشيوعيين والوفديين. وها هي السودان



ضاعت، وقبلها فلسطين، ورغم الهزائم أصبح عبدالناصر هو الزعيم المحبوب، والبطل العظيم.

نظر «حسين» إلى جُلسائه باهتمام، قبل أن يقول هامسًا:

هل تعتقدون أننا قادرون على العودة للعمل الفدائي؟

ترقب المُحيطين به، ورمى نظرات مُتشككة نحو رواد «جروبي» ثُم تابع ردود أفعال أصدقائه، فلمح قلقًا بالغًا على وجوههم.

قال «مدحت» بعد لحظات من الصمت:

للأسف يا حسين هذا مستحيل. محجوب وعمر وعبدالعزيز والشافعي وجميع أفراد شلة الهندسة انسحبوا تماما واعتزلوا السياسة، معتبرين أن الثورة حققت آمالهم، وها هو نجيب وسيد سافرا للخارج، ومحمود مراد هجرنا إلى الأبد. ومحمد إبراهيم كامل أصبح جُزءا من النظام، ولا أحد سوانا نحن الثلاثة.



أربعة.

علّق «عبدالقادر»، فهزَّ «مدحت» رأسه قائلًا:

أربعة.

لكن «عبدالقادر» أضاف سائلًا «حسين»:

والحاج محمد؟ السادات يا حسين؟

ابتسم «حسين» ساخرًا قبل أن يقول:

هذا الرجل فاق الجميع. لقد حاولت لقاءه، وفشلت. هل تتخيلون أن يبعث لي السادات مدير مكتبه ليسألنى حاجتي. تصوروا. هل يعتقد هذا الانتهازي المغرور أنَّني أتسول منه؟

وأضاف بنبرة حُزن:

لقد اشتهر على حسابنا. أكل عيش على قفانا.

وضحك في سخرية، ليضحكوا معه.



***

«عزيزي إبراهيم كامل..

أكتب لك بعد شهور طويلة من عودتي إلى القاهرة التي كُنت أعتقد أنَّني لن أراها مرة أخرى. جميع الصحاب تفرَّقوا، وأشعر بوحشة شديدة، بعد أن مُحيت أعمالنا ونُسبت كل البطولات لضباط الحركة المُباركة وحدهم. هُم يقولون الآن أنَّهم قاوموا الإنجليز، ونظموا حرب الفدائيين في القناة، وأنَّ الإخوان والشيوعيين ورجال العمل السري كانوا مُتفرجين. إنَّهم لا يُريدون لأي صوت أن يعلو فوق صوت خطيبهم المفوّه الذي ملأ الدُنيا صياحًا، ولا يقبلون لصورة شخص أن تصعد إلى جواره. هو البطل الأوحد، والشجاع الأول، والقائد المُلهم، والزعيم العبقري. هو رسول الفقراء، ونبي العُروبة، وصلاح الدين العصر الحديث.

لقد وُضعت أراضينا جميعًا تحت الحراسة، ووزَّع «عبدالناصر» ما لا يملك على مَن لا يستحق، ومنح



رجاله قصور الباشاوات وفيلاتهم شرقًا وغربًا ليحوز ولاءهم، بعد أن طرد الثوار الحقيقيين بعيدًا عن مصر، واشترى صمت الآخرين بثمنٍ بخس. إنَّني لا أزال أتلمَّس فيك الأمل وأحسن بك الظن باعتبارك الأكثر إخلاصا ووفاء بين أصحاب الطفولة والصبا. أنا على يقين أنك لست ممَن تم شراء سكوتهم، لأنَّ رجلًا بفكرك، ووطنيتك، وشجاعتك، وجرأتك لا يقبل أن يعمل تحت إمرة انتهازي، ومُخادع، وتاجر كلام مثل «عبدالناصر». سأنتظر لقاءنا فور زيارتك القادمة لمصر، التي أعلم أنها ستكون قريبًا. ولك خالص المحبة.

أخوك: حسين».

طوى «محمد إبراهيم كامل» خطاب ابن خالته، وقام إلى المطبخ ليشعل عود كبريت في الخطاب الذي وصله في الصباح على مقر عمله بالسفارة المصرية في لندن. كان يعتقد أنَّ الخطاب المُرسل قد يكون فخًا له للإيقاع به من خصومه وحُساده في وزارة الخارجية، الذين اعتبروه دخيلًا على العمل الدبلوماسي بسبب

صلاته وعلاقاته ببعض أصحاب النفوذ في النظام القائم. تذكر «إبراهيم» لقاءه قبل تعيينه في الوزارة ب«جمال عبدالناصر»، الذي صارحه خلاله بأنَّ البعض وشى به مُدعيًا قيامه بوضع خطة لقتل الرئيس، وهو ما دفعه أن يقسم للرئيس عدة مرات بأنَّه ابن بار للثورة. قال إنَّه على استعداد للعمل في أي موقع يخدم به الثورة، ويخدم به «جمال عبدالناصر»، لكنَّه يُفضل العمل الدبلوماسي خاصة لاستثمار إتقانه للغة الإنجليزية وأصول الإيتيكيت في خدمة بلاده، وعلى الفور أصدر الرئيس قرارًا بإلحاقه بسفارة مصر في لندن. «بريطانيا؟» قالها وقتها مُمتعضًا مُتذكرًا أنه شارك في إشعال النار في معسكرات الجيش البريطاني وفي الاعتداء على جنوده في الشوارع والطرقات، لكنَّه في النهاية امتثل لإرادة «عبدالناصر» في وضعه في موقف المواجهة اليومية المُباشرة مع أعداء الأمس. فكَّر للحظات أنَّ خطاب «حسين» له قد يكون قد وقع في أيدي المُخابرات، وأنَّ عليه إثبات حُسن نواياه وولائه التام أمام الأجهزة التي يعلم أنَّها ترى أكثر مما ينبغي، وتتنصت على الشاردة والواردة، وتعد



تقارير يومية عن الكل بلا استثناء، لذا فقد قرر أن يرُد على خطاب «حسين» بحدّة تُناسب قراره بحرق مراكب الماضي تمامًا. جلس على أريكة وثيرة تتوسط صالة منزله، وأمسك بورقة وقلم وكتب بخطٍ مُتأنق:

«أخي العزيز حسين..

حمدًا لله على سلامتك وعودتك لأرض الوطن، وشكرًا لله على اهتمام الدولة بتوظيفك براتب مناسب في شركة كبرى. إنَّك لاشك تستحق كُل خير، لذا فقد سخر لك الله رجالًا مُخلصين ليسعوا لدى الحكومة السورية للإفراج عن واحد من الأبطال والرموز الوطنية بعد أن تسرب اليأس إلينا جميعا بأنَّنا لن نراك مرة أخرى.

تُحزنني أيها الأخ العزيز تلك النبرة السوداوية في خطابك بشأن العهد الجديد، والحركة المباركة، وأتعجب كيف لا تجد لديك احتفاء بما جرى وما يجري. ألم تكن تلك آمالنا وأحلامنا معا؟ أن نطرد الإنجليز خارج البلاد، ونشعل النار في الأحزاب القديمة، ونقضي على الإقطاع، ونعيد للفقراء وأبناء



البلد حقوقهم المنهوبة؟ ألم نعمل معًا على صون كرامة المصريين، ورد العزة والكبرياء لهم؟ إنني أتصور أنَّ ذلك هو ما حققه «جمال عبدالناصر» ورجاله، الذين خرجوا يحملون أرواحهم على أكفهم ليلة 23 يوليو لإحداث تغيير جذري في البلاد، وإصلاح الأحوال، فلهم كل الشُكر والامتنان على تضحياتهم وجهدهم الذي كان دائمًا جُهدًا مستترًا.

إنني أعرف أنَّ المحنة القاسية التي تعرَّضت لها أثرت على رؤيتك للأشخاص وتقديرك للأحداث، لذا سأذكرك. هل نسيت يا «حسين» إعجابك الشديد بأفكار وآمال «أنور السادات» عندما التقيته لأول مرة وحدثتنا عنه وعن جرأته وذكائه وطموحاته الواسعة؟ إنَّه واحد من هؤلاء الذين تظنهم انتزعوا البطولات، ولا يريدون لأحد أن يُذكر إلى جوارهم.

لقد جانبك الصواب يا صديقي وابن خالتي عندما تصورت أن «جمال عبدالناصر» يتاجر بالكلام، إنَّه يحترق كُل يوم من أجل الناس، يصحو مُبكرًا وينام مُتأخرًا، ويعيش كموظف متوسط الحال، يأكل مما



يأكله البسطاء ويلبس ملابس صُنعت في بلاده. «عبدالناصر» ليس كما تظُنّ أو يُهيأ لك ولولا هيبته وقوته لما تم الإفراج عنك من محبسك بسوريا. لقد رسم لنا الرجل طريقًا جديدًا للصعود وللبناء وآمل ألا يخونك تقديرك، فتصبح حجر عثرة في الطريق.

والله أسأله أن يُلهمك الصواب، ويُيسر لك طريق الخير. والسلام ختام.

محمد إبراهيم كامل

لندن. أبريل 1959»

***

استردت «سُعاد» تصالحها مع الأيام بعد شهور قليلة من الاستقرار في القاهرة، ورغم قسوة وبرود حماتها في التعامل معها، فإنَّها صنعت لنفسها عالمها الأسعد، خاصة بعد أن أنجبت فتاة جميلة تُشبهها، أطلقت عليها اسم كوثر. رأت «سعاد» في القاهرة وأحيائها القديمة، وشوارعها، ومطاعمها، ودور السينما فيها انتعاشًا



روحيًا غطى على انقطاع أخبار شقيقها تمامًا. كما أنَّ اتصالاتها الدائمة، وزياراتها المتكررة لشقيقتها «فاطمة» في الإسكندرية أزاحت أستار الغُربة عن حياتها. لم تعُد تشعر أنَّ مصر ليست بلدها، خاصة بعد أن صارت القاهرة ودمشق مدينتين في دولة واحدة اسمها الجمهورية العربية المتحدة، ورغم عدم رضا زوجها عن اتحاد الإقليمين الشمالي والجنوبي وإلغاء التأشيرات بينهما، فإنَّها كانت تعتقد أنه سيعتاد ذلك بحلول الوقت، وسيحب الزعيم «جمال عبدالناصر» مثلها، الذي لم تر منه ما يُزعجها.

لقد سألت يومًا زوجها عما يأخذه على «عبدالناصر» بخلاف مصادرة أراضي والدته، فقال لها بحدّة إنَّه أداة للدول الكبرى يلعبون به كلما أرادوا. ثُم أسرَ لها بأنَّه لولا أمريكا لما صار «عبدالناصر» حاكمًا على مصر. قالت «سُعاد» ردًا على كلام زوجها الذي بدا غير مقنع:

إنني لا أظن أبدًا أنَّ هذا الرجل عميل لأحد. أنا أعرف العملاء جيدا. أولًا هو لا يُشبه حُسني الزعيم في شيء، ولم يبدر منه ما يُشير إلى أنه قريب الشبه



بأديب الشيشكلي. الناس عندكم يحبونه وأتصور أنهم على حق، فهو بليغ ومُقنع عندما يتحدث، وهو قادر على التأثير في الآخرين، وله عينان تشعان طموحًا.

بدا «حسين» عصبيًا وهو يرد:

أنت لا تعرفين شيئًا. إنَّه أكثر شراسة واستبدادًا من أديب الشيشكلي، وأشدّ حمقًا من حُسني الزعيم. لقد فصل مصر عن السودان ليمد عُرى الوحدة إلى بلادكم، رغم أنَّه لا توجد حدود مُشتركة. هو يتاجر بكل شيء، حتى بالعروبة، ويبيع للجماهير أوهام البطولة.

قالت «سعاد» بعد أن شعرت بتوتره:

حسين. أرجوك انس السياسة وتفرغ لبيتنا. كفى ما جرى. نريد أن نعتني بكوثر ونُعلمها تعليمًا جيدا، وها أنا حامل وآمل أن أنجب لك ولدًا يشبهك.

هزَّ رأسه في برود وقال لها:



يا سعاد قلت لك مرارًا. السياسة هي أنا. حياتي. رأسي. فكري. عائلتي. كُل ما له علاقة بالوطن مغروس في قلبي وروحي ولا أستطيع أن أتخلص منه. لقد تزوجنا وأنت تعلمين أنَّني هارب من قضية سياسية، وعشنا معًا وأنا منخرط في تنظيم سياسي، وحوكمت وسجنت ومازلت أعمل بالسياسة.

نعم. لكنني تعذَّبت بغيابك في السجن. قُتلت قتلًا عندما انتزعوا حبيبي من أمامي لأنتظر سبع سنوات كي يجمعنا بيت مرة أخرى. أنا بدونك لا شيء، وبنتك بدونك لا شيء، وابننا القادم كذلك. أريد أن أعيش في سلام وأمن مثلما يعيش الناس. أريد أن أنام دون قلق، أمسك كفك في اطمئنان، أريح رأسي فوق كتفك، أسير إلى جوارك في الطريق دون خوف.

بدا الامتعاض على وجهه، وقام مُنزعجًا وهو يهمس في لامبالاة وغضب مصطنع:

إذن ابحثي لك عن رجل آخر.



كان «حسين» مُستنفرًا بعد أن صدمه خطاب «محمد إبراهيم كامل» المُعاتب، وقال لنفسه إنَّ تلميذ الأمس يحسب أنَّه صار مُعلمًا. باعه واتهمه بقصور الفهم ونكران الجميل، بعد أن كان يسير وراءه دون مناقشة. تغيَّر الزمن وانقلب الأتباع إلى أصحاب رأي، وصار الصغار كُبارًا، وها هو بات شخصًا جانبه الصواب، وحاد عن طريق الثوار. تذكر «محمود يحيى مراد»، وكيف كان دخوله للتنظيم بداية حقيقية للتوسع، ومرَّ بذهنه كيف أطاحوا ب»عبدالهادي أفندي»، وكيف راوغا مفتش الأمن ومخبري المعادي، كيف خططا معًا، وفكرا معًا، ونفذا معًا أعمال الخطر. شعر بوحشة غريبة لابتعاده، ثُم تذكر فجأة «عبدالقادر عامر»، وقال لنفسه إنَّه لم يره مُنذ فترة طويلة. نظر بعينين ماكرتين نحو زوجته، وقال لها في هدوء:

عُذرا عزيزتي. أنا متوتر، ولكن لا تناقشيني في السياسة مرة أخرى فما أعرفه لا تعرفينه. عموما من الممكن أن نقضي يومين إجازة في الإسكندرية. هل تودين أن تزوري فاطمة؟



ابتسمت ومسحت نصف دمعة منزلقة على خدها وهزَّت رأسها موافقة.

***

في الصحراء أمام الهرم الأكبر التقيا، «حسين» و«محمود موسى»، بعد غياب طال عشر سنوات. كان «حسين» قد اتصل بالضابط السابق ليسمع صوت زوجته «ميمي» تسأل في اهتمام عمن يريد زوجها لتسمع آخر اسم تتوقعه في الوجود وتصمت على إثره لحظات قبل أن تسأله عن أحواله وزوجته وأبنائه، ثم تنادي له زوجها.

رأى «حسين» نفس الوجه الذي ودّعه في الميناء بعد أن أقله في الماضى من مخبأ إلى آخر، بنفس البرود، وذات النظرات الفاحصة المُدققة، والابتسامة المطبوعة على شفتين صغيرتين، بينما بدا رأسه أكبر قليلًا وقد ارتد شعره إلى الوراء مُستجيبًا للزمن. ونظر «محمود» إلى وجه «حسين» ليقرأ فيه عجلات الزمن، وآثار المحن، ولمح في عينيه ذات النظرات اللامبالية



التي تهتف كُل لحظة أنَّ صاحبها لا يعرف الخوف، وبدا جسد «حسين» مُمتلئًا عند البطن، بينما منحه شاربه المفتول مظهر الجدية والصرامة. تذكر الضابط السابق ذلك الولد المُضطرب، المُندفع الذي كان واقفًا أمامه لا يعي شيئًا قبل عقد من الزمان، كيف تبدل به الحال ليبدو كزعيم سياسي مُحنّك! وكيف تحولت هيئة الشاب المتدفق حماسًا وتطرفًا إلى هيئة قائد مُخضرم قادر على الحفاظ على ثباته الانفعالي في كُل موقف وحين!

صافحه، وسار إلى جواره فوق رمال صفراء هادئة بعيدًا عن الناس ليتناجيا في سلام، ويتناقشا في اطمئنان. قال «حسين» وهو يضع يُمناه في جيبه:

أوحشتني يا رجل. بانت عليك السن. كبرت يا حضرة البكباشي.

ابتسم «محمود»، ورفع حاجبيه اعتراضًا وقال:



انتهت هذه الألقاب الآن. لقد خرجت من البوليس عميدًا. والآن أقضي معظم الوقت في النادي أو في سهرات الأصحاب نلعب ونشرب.

ثُم أضاف وهو يهزُّ رأسه:

تعرف يا حسين. الزمن لم يعُد لنا. الثورة قامت، والملك خرج، والأحزاب انتهت، وحتى النحاس باشا صار مُنعزلًا عن الجميع، تغير كُل شيء. يا حسين لم يعد لائقًا أن نبقى في أماكننا خاصة أنهم اعتبرونا مع الملك.

تمام.

قالها «حسين»، وهو يُزيح بحذائه زلطة صغيرة بدت بارزة على الطريق الرملي، ثُم قال:

لكن ألا تعمل الآن؟

ضحك «محمود» وقال:

كيف أعمل؟ وماذا أعمل؟ لقد خرجت إلى المعاش. والحمد لله، لم أتهم في شيء مثلما جرى الحال مع محمد وصفي والجزار.

وإبراهيم إمام؟

إبراهيم إمام لا يريد أن يطل. كبُر وزهد في كُل شيء. لقد اعتزل تماما، وابتعد عن الجميع، وقابلته قبل سنوات فقال لي إنَّه يستمتع بتأمل الكون والناس والأحداث.

ولا شيء آخر؟

نعم. لا شيء آخر.

ابتسم «حسين»، وقال:

أتمنى أن أراه.

لا تفعل. هو لن يُرحب.



أخرج «حسين» سجائره، وقدَّم واحدة للعميد «محمود موسى»، لكنَّه اعتذر قائلًا:

أقلعت عن الدُخان تمامًا. أما الشراب فمازلت أشرب قليلًا.

والنساء؟

ضحك «محمود» قائلًا:

تعرف يا حسين. أنا زوج مثالي وأب طيب.

عظيم. عظيم.

مشيا ببطء يتنسمان هواءً مُنعشًا، وأشعل «حسين» سيجارته، رانيًا نحو السماء الواسعة، ليسمع السؤال المُنتظر من رفيقه:

قُل لي يا حسين. ما الذي دفعك لطلب لقائي؟ لعلَّ الأمر خير.

نعم. كُل خير. أنت تعرف أنني أثق بك كثيرًا. لقد ساعدتني من قبل وأمنتني رغم أنَّه كان يمكنك أن تقبض عليّ وتحصل على المكافأة المرصودة وهي بالطبع أعلى كثيرًا من مكافأة نهاية الخدمة، وكانت ستضمن لك حياة رغدة.

ابتسم «محمود»، وقال بنبرة صدق:

لا تظن أنَّني فعلت ذلك من أجلك.

وقف حسين فجأة مُستفهمًا، فأردف مُحدثه قائلًا:

كانت أوامر. وأنا مخلص لرؤسائي.

سكت «حسين»، وكأنَّما أنكر ما سمعه. كان يعلم من قبل أنَّ مساعدته على الهرب لم تكن لوجه الوطن. كانت هُناك أغراض وأهداف لم يفهمها حينها، وها هي تنفتح نوافذها أمامه بعد ردحٍ من الزمن.

سأله «محمود» مرة أخرى:

ها، ما الذي تُريده مني؟

نفث «حسين» دُخان سيجارته بعصبية بادية، وقال:

عظيم. سأصارحك. أنا أخطط للثورة على عبدالناصر.

سكت «محمود موسى» للحظات قبل أن ينفجر ضاحكًا بصوتٍ عالٍ، أثار حنق «حسين» الذي وقف عن السير فجأة، ونظر بغضب سائلًا:

ما الذي يُضحكك؟

واصل «محمود» ضحكه المُتقطّع، وهو يقول:

ما قلته.

وقال بعد أن توقفت نوبة الضحك:

هل جُننت يا حسين؟ هل أصابتك لوثة؟ الآن لا أحد يستطيع الثورة على عبدالناصر. لو قلت لي ذلك في 54 أو حتى 56 لقلت أنَّه ممكن. لكن الآن سيطر الرجل على البلد تمامًا. وما أريد أن أقوله لك هو أنَّه لا



بديل له سوى الجيش، وصاحبه هو المُسيطر عليه، ولا يُمكن أن يخذله. لقد حاول مَن هُم أقوى منك وأكثر إمكانيات وأوسع انتشارًا، وها هم الآن موزعون على سجون مصر، البعض في السجن الحربي والبعض الآخر في طرة والواحات.

تقصد الإخوان؟

نعم. لا توجد قوى مُسلَّحة في مصر سواهم. وأعتقد أنَّ كوادرهم سُحقت تمامًا في 54 بعد حادث المنشية.

هزَّ «حسين» رأسه مُفكرًا، وقال:

دعك من الثورة عليه. لكنني أستطيع أن أقتله.

لا أعرف. لكنَّ قتله لن يؤدي إلى تغيير. لا تظُن أن مصر مثل سوريا. مَن يقتل أحدًا يأتي مكانه، لو قُتل عبدالناصر فإن مَن سيتولى الرئاسة هو الشخص الأقوى، وهو في الغالب سيادة المشير عبدالحكيم عامر.

تذكر «حسين» ما فعله المشير من أجله، وكيف حرره، وتدخل لتوظيفه، فقال:

إنه بلا شك أفضل، وأوضح، ولا يعرف اللف والدوران.

تمام. هل معك رجال؟

هزَّ «حسين» رأسه هامسًا:

طبعًا.

وسلاح؟

ردَّ «حسين» قائلًا:

هذا ما أريده منك.

لم أعد على اتصال بأحد، لكن على أي حال يمكنك شراء أسلحة بسهولة ما دام لديك أموال كافية. في الإسكندرية هُناك عدة تجار معروفين يجلبون بنادق ورشاشات عن طريق ليبيا.



وأضاف سائلًا:

هل لديك أموال كافية؟

امتعض «حسين» قليلًا، وأجاب:

سأجهز مبلغًا مناسبًا خلال ستة شهور، لكني أريد أن أسألك بوضوح إن كان لي أن أثق فيك أم لا.

ابتسم «محمود» وقال:

بكل صراحة لا أعتقد. ابحث عن غيري. من أجل اعتزازك بي وحُسن ظنك، سأعتبر أننا لم نلتق وأنني لم أسمع منك شيئًا، وآمل أن تنجح فيما تُخطط فيه.

توقف «حسين» عن السير مادًا يده بالمصافحة، وقال:

شُكرًا على وقتك.

***



نظرت «سُعاد» في المرآة مُراجعة وجهًا خاليًا من المساحيق، وتمتع بالجمال الرباني، مُتناسية معاملة حماتها الباردة لها، ورميها بين الحين والحين كلمات ذات مغزى عن الحظ والنصيب والوجوه المشئومة التي يحل معها الخراب والفقر. كانت والدة «حسين» تُلمّح إلى إنجاب «سعاد» بنتين متتاليتين بعد ولد غير طبيعي لم يُقدر له أن يرى والده، فضلا عن وضع أراضي العائلة تحت الحراسة بعد أن كانت مضرب الأمثال في الثراء.

مدّت «سُعاد» أشواك المشط بين جدائل شعرها الفحمي المُسترسل كأنما تُلقي عن حياتها كُل ما يعكرها من أحقاد ونفور رأته طبيعيًا من حماة تجاه زوجة ابن غريبة، مستعينة بسلاح البرود واللامبالاة. قالت لذاتها إنَّها لن تصطدم بحماتها أبدًا ما دام «حسين» موجودًا، خاصة أنَّها تعلم تمامًا كيف تتجنب السيدة «سميرة» إغضابه. فكرت أن تجدد شرود زوجها، وانعزاله النسبي، قد يُثير دبيب القلق في عودته لممارسة العمل السري مرة أخرى، لكنَّها



استبعدت ذلك متوقعة أنَّه لن يقامر بوظيفته الجيدة، وبحياته المستقرة وبلحظات السمر القليلة التي يقضيها مع ابنتيه «كوثر» و«وفاء». طردت وساوس الشيطان، وهي تتذكر أنَّه انقطع عنها في الفراش مُذ أصابته حالة الشرود، وفكّرت أنَّ ذلك سيأخذ وقته ويمُر مثلما هو الحال مع الرجل الذي اختارته عن رضا تام شريكًا لحياتها.

فكَّرت «سُعاد» أن إصرار «سعيد» و«مدحت» على اصطحابهما مع البنتين لمشاهدة فيلم بالسينما قالا إنَّه يحكي قصة «حسين» أسعدها معتبرة أنَّ الفيلم جاء في موعده ليمنح «حسين» شعورًا بالوفاء من جانب الدولة والمجتمع، ويؤكد أنَّ هناك مَن يُقدرون تضحياته. قالت لنفسها إنَّ مشاهدة الفيلم ستكون فرصة جيدة ل «حسين» كي يخرج قليلًا من حالة العُزلة التي انغمس فيها مُنذ عدة شهور.

في الطريق إلى السينما، قال «سعيد» موجهًا حديثه للبنتين الصغيرتين:



ستشاهدان اليوم فيلمًا يحكي قصة بابا مع حُب الوطن. كيف حارب الأعداء بشجاعة وكيف هرب منهم وكيف أحبّه الناس وكيف صار نموذجًا ومثالًا للشباب.

لم ترد أي من البنتين، لكن «سعاد» قالت:

ألم يكتب الفيلم إحسان عبدالقدوس. لقد أخبرني حسين كيف كان هذا الصحفي شهمًا ووقف إلى جواره وقت هروبه من الإنجليز.

لم أهرب من الإنجليز أيها الأغبياء. لقد هربت من المصريين. قالها «حسين» في سرّه، وظلّ مُتدثرًا بالصمت يُتابع حديث العائلة عن بطولاته.

سأل «مدحت» «سُعاد» باسمًا:

لكن عليك أن تُخبرينا إن كان حسين يُشبه عُمر الشريف بطل الفيلم أم لا؟

ابتسمت وأجابت:

إنَّه أكثر وسامة منه.

ضحك «مدحت» قائلًا:

إذن أنتِ أجمل من زبيدة ثروت.

طبعًا.

جلسوًا معًا في تراس مخصوص حجزه سعيد بسينما مترو، ليشاهدوا الفيلم صامتين.

بدأ الفيلم بمشهد للطلبة في الجامعة يحتشدون حول طالب يخطُب فيهم قائلًا إنَّ المصريين لن يصمتوا على عملاء الإنجليز، والخونة، مع تعالي الهتاف «يسقط الخونة. الموت للخونة». انطلقت مظاهرة الطلبة خارج الجامعة وهي تنادي بسقوط العرش لتصل إلى كوبري عباس، حيث كان في انتظارها ضابط البوليس السياسي «الدبَّاغ»، الذي أمر بإطلاق النار على المتظاهرين ليقفز الطلبة هربًا في النيل. ظهر «إبراهيم حمدي» بطل الفيلم فجأة ليقفز إلى النيل



محاولًا إنقاذ أحد الطلبة غير القادرين على العوم ليجد أحد أصدقائه يموت أمام عينيه قائلًا: تحيا مصر.

بدا «إبراهيم حمدي» بعد ذلك في شقة صغيرة ومعه زُملاؤه وهُم يتناقشون حول العمل للرد على حادث إغراق عشرات الطلبة في كوبري عباس، حيث قال «إبراهيم» لهم إنَّهم قتلوا عشرات الإنجليز دون حل وأنَّه لا بديل سوى قتل الخونة الذين يتعاملون معهم.

ظلَّ «حسين» صامتًا لا ينبس، بينما علَّق «مدحت» ساخرًا بأنه لا يشبه أيا من الطلبة المُجتمعين مع «إبراهيم حمدي» سائلًا «حسين» أين هو، ثُم قال له:

قُل لصديقك إحسان أنَّ مدحت لم يظهر في فيلمك.

لم يرُد «حسين»، واستغرق في مُتابعة الفيلم ليشاهد «إبراهيم حمدي» يعرض على زملائه ضرورة قتل «عبدالرحيم باشا» الخائن الموتور. أرسل «إبراهيم» رسالة لوالدته يطلب فيها أن تدعو له، وحمل مُسدسه وذهب إلى مقر الوزارة ومعه كاميرا وقدم للحراس



كارنيهًا ادعى فيه أنَّه صحفي ثُم يدخل ليطلق الرصاص على «عبدالرحيم باشا»، وجرى هاربًا، لكنَّ الحراس أحاطوا به وأمسكوه. وظهر «إبراهيم» بعد ذلك في مكتب ضابط البوليس «الدباغ»، وهو يتعرَّض هناك للضرب المُبرح ليشي بأسماء شركائه في الجريمة، لكنَّه يصرّ على الرفض، ويتم نقله لمستشفى قصر العيني للعلاج. وهرب «إبراهيم» بعد ذلك مرتديا ملابس طبيب ليذهب إلى «محيي» أحد الطلبة المُبتعدين عن السياسة ليختبئ عنده، وهُناك التقى «نوال» شقيقة «محيي» لتبدأ قصة حُب مُلتهبة تصل إلى درجة كتابة ورقتين بعبارة «لا إله إلا الله. محمد رسول اللّه» حتى لا يفترقا. وتصل الأحداث ذروتها عندما ينجح أصدقاء «إبراهيم» فى تهريبه إلى الميناء ليختبئ في باخرة بعيدًا عن مصر، لكنَّه يقفز منها في اللحظة الأخيرة عائدًا لممارسة العمل الفدائي حتى يموت خلال تفجير ينفذه ضد قوات الاحتلال.

انتهى الفيلم بكلمة «البداية» مُبشّرًا بثورة يوليو التي خرج معها «مُحيي» و«عبدالحميد» من السجن دليلًا



على حُرية مصر، لكنَّ «حسين» قام صامتًا ليُدخّن في عصبية ظاهرة وهو يقول لمن معه:

التزوير سمة العصر. لقد شوهوني كما أرادوا.

ابتسمت «سُعاد» قائلة:

حسين إنَّه فيلم جيد، لقد ردّ اعتبارك.

ردّ بتجهم:

لا أنا أعرفهم جيدًا. على العموم هذا قطيعة بيني وبين إحسان. الصحفيون دائمًا هُم الصحفيون، يعشقون الأكاذيب، ويرشون البُهارات على كُل حكاية. لقد خاصمت الحُب من أجل الوطن، وأغلقت قلبي، لكنَّهم صوَّروني شخصًا ضعيفًا يهيم حُبًا بفتاة.

في طريق العودة أمّن «مدحت»على رأي ابن خالته قائلًا:



الفيلم مُفاجأة لي شخصيًا، في أحداثه وسهولته وسذاجته وحتى نهايته.

ثُم بصوت حاول أن يبدو أكثر جدية:

أعتقد أنَّهم بمشهد النهاية أرادوا أن ينزعوا عنك أي بطولة. أرادوا أن يقولوا إنَّ البطل الحقيقي لا يهرب، ويعود ليموت فداء لوطنه.

كلااااب.

علّق «حسين» غاضبًا، وواصل تدخينه بعصبية.

***

على المقهى كان جميع الرواد صامتين يستمعون لصوت الزعيم عبر الراديو يخطُب في شجن. جلس «حسين» و«عبدالقادر عامر» يستمعان لصوت «عبدالناصر» حزينًا، وهو يستعرض ما جرى من انقلاب ضده في سوريا قائلًا:

«الإخوة في جميع أرجاء الوطن العربي..



هذه أول مرة أسمح فيها لنفسي أن أوجه الخطاب إليكم جميعًا على هذا النحو الرسمي، ولكنَّني أشعر أنَّ من حقكم عليّ، ومن واجبي حيالكم أن أطلعكم على فكري، وأن أفتح أمامكم قلبي في هذه اللحظات الحاسمة من نضال الأمة العربية ومن كفاحها في سبيل مثلها الأعلى في الوحدة والحرية.

إنني لا أوجه هذا الحديث إلى شعب الجمهورية العربية المتحدة، لأنَّني أعتبر أنَّ الساعات التي نعيشها الآن ليست ملكنا وحدنا، إنما ملك تاريخ سبق، وملك حاضر يبنيه الدم والعرق، وملك مستقبل نحاول تحريكه في ضمير الغيب، إنَّها ملك نضال قديم مستمر باق إلى الأبد من أجل هذه الأمة العربية ومن أجل عزتها. لهذا أريدكم جميعًا أن تكونوا معنا، وأن تعيرونا كل الفكر الواعي منكم والاهتمام».

همس «حسين» في أُذن «عبدالقادر» قائلًا:

ألا ترى هؤلاء البُلهاء الذين أوشكوا على البكاء مما يقوله الطاغية.



أجابه «عبدالقادر» بهزّات موافقة لرأسه، ليستمع لصوت الزعيم هادرًا:

«إنني لا أقبل مهما كانت الظروف أن أرى الشعب هنا والشعب في سوريا أطراف معركة وأصحاب خلاف وشقاق، لا أستطيع أن أتصور القاهرة ودمشق إلا إخوة كفاح، وإلا زملاء معركة، وإلا شركاء قدر ومصير مع كل عاصمة عربية أخرى، مع كل مدينة عربية، مع كل قرية عربية. ولقد شعرت خلال الأيام الأخيرة أنَّ ما حدث كله قد فتح فرصة واسعة أمام أعداء الأمة العربية من قوى الاستعمار ومن أعوانه، ومن قوى الرجعية في المنطقة وأعداء تقدم الشعوب، ولقد رأيت رأي العين فرحتهم جميعًا بهذه الفرصة التي تفتحت أمامهم، ورأيت تأهبهم للاستفادة منها لمصالحهم وعلى حساب المصلحة العربية.

لقد أحسست أنَّهم يريدونها معركة تقتتل فيها عناصر من أبناء الشعب السوري مع بعضها، معركة تقع فيها الفتنة بين الشعب العربي في سوريا وبين الشعب العربي في مصر، معركة تقع فيها شعوب الأمة العربية



في حيرة تتوه بعدها في الظلام. ذلك كله كان أمامي، وكان أمامي أيضًا واجبي تجاه الأمة العربية وتجاه المصير العربي، وإنَّكم لتعرفون أنني اتخذت منذ أيام قرارًا بألا تتحول الوحدة العربية بين مصر وسوريا إلى عملية عسكرية، وبناءً على ذلك فلقد أوقفت جميع العمليات العسكرية التي كانت قد بدأت لمناصرة الجموع الشعبية الثائرة ضد الحركة الانفصالية في سوريا».

أشعل «حسين» سيجارة، وسأل صديقه بصوتٍ هادئ:

أما زال هذا المُدعي يحسب نفسه زعيمًا للأمة العربية؟ هااوو. إنَّه لا يعلم كيف صاروا يتندرون عليه في كُل محل ومقهى بدمشق.

بالتأكيد يعلم. لا تنس أنَّ مُخابراته تنقل له كُل شيء.

واصل الرئيس حديثه، وبدا الحُزن مرسومًا فوق وجوه معظم الناس، لكنَّ «حسين» أنكره. فكَّر أنَّ المصريين



يتقنون كُل شيء حتى النفاق في المشاعر. إنَّها هزيمته هو لا هزيمة المصريين ولا الأمة العربية.

«أيها الإخوة في جميع أرجاء الوطن العربي..

لقد حاولت جهدي أن أؤدي واجبي كجندي في خدمة هذه الأمة العربية، وحاولت ألا أدع مجالًا لفرقة ولا أفتح طريقًا لفتنة. إنَّ عدوي وعدو أمتي هو الاستعمار والرجعية المتعاونة معه، والقاعدة التي يتحفَّز منها لضرب آمالنا؛ وهي إسرائيل. إنَّ أملي هو حرية الوطن العربي وحرية المواطن العربي، وإنَّى لأثق في حتمية الوحدة بين شعوب الأمة العربية، ثقتي بالحياة، وثقتي بطلوع الفجر بعد الليل مهما طال.

أيها الإخوة..

أعان الله سوريا الحبيبة على أمورها، وسدَّد خطاها، وبارك شعبها، وستبقى هذه الجمهورية العربية المتحدة رافعة أعلامها، مرددة نشيدها، مندفعة بكل قواها إلى بناء نفسها؛ لتكون سندًا لكل كفاح عربي، ولكل حق



عربي، ولكل أمل عربي، وسلام عليكم جميعًا. وعاشت الأمة العربية، وعاشت الجمهورية العربية».

عاش جمال عبدالناصر. عاشت الجمهورية العربية المتحدة.

تردد الهُتاف من أحد الكروش المُنتفخة داخل المقهى ليُردد خلفه بعض الجالسين على استحياء، فقال «حسين» مُبتسمًا:

عظيم. واحد من المُخبرين كشف لنا نفسه.

ضحك «عبدالقادر» ساترًا شفتيه بكفِّه، وقال لصاحبه:

هذه الوحدة كانت أكذوبة، ضحك على الذقون، لذا لم تستمر. قبل شهور حكى لي تاجر سوري صديق يقطُن في الإسكندرية كيف يتعامل الضباط المصريون بتكبر وتعالٍ مع زملائهم السوريين. وقال لي إنَّ تطبيق قرارات التأميم داخل سوريا أدّى لتزايد كبير في حنق الناس على عبدالناصر، خاصة أن أكثر من نصف المجتمع السوري تجار وأصحاب مشروعات. كما أنَّ



عمليات القمع والاعتقال التي مارسها الرجل ورجله السفاح عبدالحميد السراج ضد السياسيين ضاعفت غضب الناس على القاهرة. لقد توقع صديقى السوري انهيار الوحدة خلال شهور، وأثبتت الأيام صحة توقعه.

هرش «حسين» في شاربه الذي بدأ الشيب يعرف طريقه إليه، ثُم قال:

الغريب يا عبده أنَّ الناس هُنا لا تعرف أي شيء. ألا ترى حُزنهم العظيم لأنَّ زعيمهم حزين.

طبعًا يا حسين للأسف هناك كثيرون يصدقون نشيد «وطني حبيبي. الوطن الأكبر».

نظر «حسين» إلى صديقه، واقترب برأسه أكثر، وهمس:

هل تظُن أن المشير عامر سيقوم بانقلاب على عبدالناصر؟



سكت «عبدالقادر» كثيرا ثُم أجاب سائلًا:

لمَ تقول ذلك؟

عرفت من بعض المصادر أنَّ منشورات جديدة بدأت تظهر داخل الجيش موقعة باسم الضباط الأحرار.

فكَّر «عبدالقادر» قليلًا وقال:

بحساب القوة الآن، فإنَّ عبدالحكيم عامر أقوى، لكن بحساب الدهاء أعتقد أنَّ عبدالناصر سينتصر. أتصور أنَّ المشير عامر رجل طيب، ولا ناقة له ولا جمل في الحرب أو التآمر، ولو استرجعت ما جرى له في دمشق لعلمت كيف استسلم تمامًا لقوات الانقلاب، ثُم غادر دون كلمة.

ابتسم «حسين» وقال:

نعم. كانت فضيحة.

وسكت «حسين» لحظات شرب فيها شايه الساخن قبل أن يقول:

عمومًا. أنا أتصور أنَّ مرحلة الإعداد للحركة يجب أن تتضمن إيجاد أي جسور مع ضباط بالقوات المسلحة.

واصلا النقاش، بينما كان مُعظم أحاديث روَّاد المقهى تدور حول خيانة القومية العربية، ونكران الجميل، وطعنات الأشقاء لناصر العروبة.

***

أدخلت خادمة المنزل كوب الشاي الصباحي للرجل الثمانيني الجالس في الشرفة مُطلًا على أحد شوارع جاردن سيتي مُتنفسًا هواء الصباح، ومُستمتعًا بدفء الشمس، واضعًا مُصحفه بين راحتيه، ليقرأ كعادته بعض القُرآن. كان الرجُل قد ألقى عن كاهله هموم العمل، وألاعيب السياسة، راضيًا بما قدم لبلاده، وقانعًا بأنَّ لكل عصر رجالًا، وأنَّ دوام الأحوال ضد نواميس البشرية. رنا نحو الشارع الخالي إلا من بعض البوابين، وتذكر عندما استأجر البيت كيف شاع السرور في



الحي الأرستقراطي العتيق فرحًا بمقدمه. كان الرجُل الذي اعتاد مُنادته بلقب «دولة الباشا» قد باع بيته في مصر الجديدة، ليستكمل بناء فيلا باسم زوجته كانت قد بدأت بناءها في حى المرج لكنَّها لم تُكملها، لأنَّ القدر كان يُخبئ أمرًا آخر، فبعد الثورة قرَّر ضباط الحركة المباركة فرض الحراسة على ممتلكات زوجة الباشا ومن بينها فيلا المرج، والأنكى أنَّهم بعد أن عزلوا اللواء «محمد نجيب» من رئاسة الجمهورية، جعلوا تلك الفيلا مقرًا لإقامته.

رشف الباشا رشفة صغيرة من شايه الصباحي، ورسمت ذاكرته أحداثًا مضت عاش فيها بين القلق والأمل، وشهد فيها أيام سرور ومجد، وأيام محن واضطهاد، لكنَّه في النهاية كان راضيًا، ولا يشعر بخوف أو قلق من حساب أعسر ومُحاكمة أعظم أمام رب العباد. مُنذ عمل بالحقوق وقلبه وضميره مشغول بحق مصر في التحرُر والاستقلال، ومن منبر لآخر ومن حزب لحزب انخرط «مُصطفى النحاس» في جهاد المصريين لنيل الحرية وشارك في الثورة الأعظم وهو في الثالثة



والأربعين ليجد نفسه منفيًا، ومُراقبًا، ومُضيقًا عليه، حتى رحل الزعيم الأكبر ووجد نفسه محل تقدير وإجماع من الناس ليتولّى قيادة أكبر وأكثر الأحزاب شعبية في ذلك الوقت. حارب الرجل في صمت مؤامرات القصر، ومراوغات الإنجليز، لكنَّ حنكته، ونزاهته كانت كفيلة بتجاوزه كُل أزمة، ونجاته من كُل مؤامرة كأنَّ عين الله تحرُسه. تذكر الزعيم المُتقاعد كيف حاول القصر قتله عدَّة مرات عن طريق أشقياء ومُغامرين، فدفع يومًا ب«حسين توفيق» وجماعته ليقوموا بإلقاء قُنبلة على سيارته، لكنَّ ستر الله أخرها بضع ثوانٍ لتنفجر بعد مروره، وفي مرة أخرى أطلقت السيارة السوداء الخاصة بالحرس الحديدي رصاصها على سيارته فأصابت سائقه وحارسه، وأخطأته، ثُم قام قتلة آخرون بتفجير سيارة مفخخة أمام منزله في مصر الجديدة لتحترق ناموسية نومه، بينما كان هو يقرأ القرآن في الغرفة المجاورة. وقتها قال له الناس إنَّ الله يُدافع عن الذين آمنوا، لكنَّه كان على يقين بأنَّ موعد مُغادرته للدُنيا لم يحُن بعد، وأنَّ لكل أجلٍ كتاب.



فكر أنَّه شعر بالغُربة وهو يقف ومعه تلميذه الدؤوب «فؤاد سراج الدين» أمام «محمد نجيب» مُهنئين بالحركة المُباركة، ولم يُصدق ما قاله «نجيب» وقتها من أنَّهم قاموا بالحركة من أجله ولتحقيق ما ينادي به. شعر بالضيق بعد وقت قصير عندما قرأ بالصُحف تلميحات وإساءات مُتعمدة له ولزوجته، والتي اقترن بها بعد أن تجاوز الخمسين من عمره، ثُم بان له الموقف الحقيقي لرجال الحركة المباركة عندما تمت محاكمة زوجته ووضعه تحت الإقامة الجبرية. قاطع الصُحف بعد ذلك، وشغل وقته بقراءة القرآن ولعب الطاولة واستقبال الأقارب والمُحبين الزائرين، مُعلنًا أنَّه طلق السياسة طلاقًا بائنًا.

قال «مُصطفى النحاس» لنفسه إنَّ البلد يمضي من سيئ لأسوأ في ظل أوهام ودعايات كاذبة عن التقدم والعظمة، لكنَّه مؤمن أنَّ الناس في داخلها تعرف الحق من الزيف، وأنَّ التاريخ سيقول كلمته بعد أن يرحل الجميع.

أكمل الرجل كوب الشاي، ثم وضعه على طاولة مستديرة أمامه، قبل أن يقرأ بصوتٍ خفيض: «وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۞ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا. وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا. وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۞ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۞ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۞ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۞ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا. وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۞ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۞ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا. وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا».

***

فاجأه النبأ. عاد «مصطفى راغب» مسئول الإخوان الذي كان هاربًا في سوريا. قال «حسين» لزملائه وهم



جالسون في شقة «مدحت فخري»:

إنَّها فُرصة للتنسيق والتشاور. هذا الشخص خطير جدًا، ويُمكنه إعداد مجموعات للمشاركة في الثورة القادمة.

بدا «مدحت» مُتشككا، وقال وهو يُتابع بعينيه حركة أصابع «حسين» المُنفعلة:

يا حسين: ألم ترفض من قبل أي تعاون مع الإخوان؟ لقد قلت أنت لنا مرارًا إنَّهم أكثر انتهازية من أي فصيل، ألا تذكر عندما قلت مقولتك المأثورة: إذا كانت الأحزاب السياسية تُتاجر بالوطن والشعارات، فإنَّ هؤلاء يتاجرون بالله.

هزَّ «حسين» رأسه قائلًا:

نعم. هذا صحيح، لكن التنسيق والتشاور معهم الآن ضرورة، وذلك سيكون مرحليًا فقط. سنعمل على اغتيال عبدالناصر وعدد من معاونيه، وسيقومون هُم



بإطلاق المظاهرات في الشوارع لإحداث الاختلال المطلوب، والاستيلاء بعد ذلك على الحُكم.

ثُم واصل شارحًا:

هل تعرفون ما سبب نجاح ثورة السوريين ضد عبدالناصر؟ ما جرى أنَّ الإخوان والشيوعيين أطلقوا مظاهراتهم في الشوارع لتأييد الثورة التي قام بها المقدم الكزبري، فتمكنوا من السيطرة على الشارع، فخفتت أي مقاومة لأنصار عبدالناصر في دمشق، وبقية المدن. وحتى اللاذقية التي كان يعتقد أنها تجمع أنصاره، انقلبت عليه في ثلاث ليال، لتُعلن تأييدها التام لخلع سلطته.

هزَّوا رؤوسهم كتلاميذ أمام أستاذهم، قبل أن يضيف:

وهذا ما سنفعله هُنا. حوادث اغتيال للشخصيات البارزة، ثُم ينزل الإخوان مؤيدين في الشارع وينتهي حُكم الطاغية.

قام «عبدالقادر» من كُرسيه، ووقف في منتصف حجرة الصالون، وسأل بشكل مباشر:

مَن هُم هؤلاء الشخصيات البارزة الذين يجب قتلهم لإطلاق الثورة؟ وهل سيكون أنور السادات واحدًا منهم؟

ابتسم «حسين»، وقال:

السادات ليس من الشخصيات الحاكمة. لا يغرك أنَّه رئيس مجلس الأمة. أنت تعلم جيدًا أنَّ هذا المجلس مُجرد حائط الصدى لما يقوله عبدالناصر ولا أي وجود له بين الناس. نحن نُريد تنحية المؤثرين بالفعل. أعتقد أن قائمتنا يجب أن تضم جمال عبدالناصر، وعلي صبري رئيس الوزراء، والسفير الأمريكي بالقاهرة. في الوقت نفسه سنضع خطة للاستيلاء على الإذاعة لإعلان الثورة.

والمشير عبدالحكيم عامر؟

سأل «سعيد» مُبديًا دهشته من تجاهل اسمه ضمن الشخصيات المؤثرة، لكنَّ «حسين» أجاب سريعًا:

له في عُنقي دين لا يُمكن نكرانه، لأنَّه هو الذي تدخل للإفراج عني وعن عبدالقادر. عمومًا هو لن يقف في طريقنا، فكل ما يهمه هو الجيش، وسيبقى حاكما عليه.

قاموا من غرفة الصالون، ثُم جلسوا على مائدة السُفرة ليرسم لهم «حسين» خريطة التنظيم مُحددًا دور كل واحد منهم. أخبرهم أنَّ «عبدالقادر عامر» سيكون مسئول التنظيم العسكري حيث ستوكل له مُهمة جمع الأسلحة وتخزينها، وسيصبح «سعيد توفيق» المسئول المالي للتنظيم، حيث ستكون مهمته جمع المال والاشتراكات والتبرعات، والإعداد لخطط الاستيلاء على أي أموال عامة لشراء الأسلحة، بينما سيكون «مدحت فخري» السكرتير العام الذي يتلقى التعليمات والأوامر من حسين لتنفيذها.



بعد يومين، وكما خطط حسين، تم اللقاء بينه وبين «مصطفى راغب» الذي احتضنه غير مُصدق، مُستعيدًا أيام الخوف والخطر في الشام. جلسا في فندق مينا هاوس بالهرم يرتشفان قهوتهما، ليسأله «حسين» عن السبب الذي دفعه للعودة، فأجاب «مُصطفى»:

لا شيء سوى الشوق لمصر والناس والشوارع. في الوجع هُنا مثل هُناك، لذا كان لابد أن أعود. بعد الوحدة طاردتنا مُخابرات عبدالناصر، ورجاله في دمشق وضيقوا علينا حتى اختبأنا في حماة بعد أن غيّر كثيرون هوياتهم. وساعدنا كثير من التُجار أن نُنشئ مشاريع صغيرة كانت تُحقق لنا أموالًا جيدة استطعنا العيش، لكن تطبيق قرارات التأميم في سوريا دفعني للعودة إلى هُنا للاستفادة بمعاشي والبيت الذي تركه والدي.

ألا تخشى الاعتقال؟

لقد قطعت خيوط الماضي، ومعظم أصدقائي من الإخوان إما محبوسون في زنزانات عبدالناصر أو



هاربون في السعودية وباقي الدول.

أشعل «حسين» سيجارة ماركة «بولمنت»، وقال:

هل تُريد أن تقول لي إنَّك تقاعدت؟

مصمص الرجل الذي بدت سمنته مُميزة شفتيه، وأجاب وهو يهزّ رأسه:

أنا أعرف أنَّك لن تُصدقني. لكن أنا بالفعل أخرجت السياسة والإخوان تمامًا من رأسي.

ثُم سأل بعد هُنيهة:

لكن قُل لي: ماذا تريد يا حسين؟

أريد اتصالًا مع أحد فاعل في الإخوان.

هزَّ «مصطفى راغب» رأسه وقال:

بسيطة. سأكتب لك ورقة لرجل زميل لك بإحدى شركات البترول، سيقرأها ويفهم مُرادك، ويمكن أن



تتعاونا.

سُر «حسين»، ونفث نفسًا طويلًا من بلمونتته، قبل أن يسأل:

ما اسمه؟

أحمد قبودان.

ومد له ورقة صغيرة مكتوبًا عليها «الأستاذ» وقال:

أعطه هذه، وثق به إلى أقصى درجة، ولا تخبرني بشيء.

تمام. أشكرك.

تصافحا، وقام «حسين» وشعور طاغ بالانتصار يُسيطر عليه. وغادر مُغتبطًا.

***



استيقظت «سُعاد» مفزوعة من رؤية ابنتيها «كوثر» و«وفاء» تصرخان هلعًا بعد أن وجدتا كوبي اللبن الصباحي وقد تحولا إلى كوبي دم. أبصرت «سُعاد» الكوبين الحمراوين فضربت بكفها الصينية لتُلقي بهما على الأرض، بينما واصلت البنتان صرخاتهما. ظلَّ صوت البنتين الصغيرتين يتردد في أذُنها وهي تحاول تأمل ما حولها لتتأكد أن ما رأته مجرد كابوس عابر. نظرت إلى يمينها فلم تجد «حسين» راقدًا، ومدَّت أصابعها مُتحسسة مكانه فوجدته باردًا. تثاقلت، وقامت مُتكاسلة لتجد البيت ساكنًا بلا حراك، اقتربت من غرفة البنتين فوجدتها ساكنة، ورمتهما بنظرات محبة وخوف، ثُم نظرت إلى غُرفة السيدة «سميرة» لتجدها موصدة وصامتة كقبر. فكَّرت للحظات، وهي ترمي الغرفة الباقية الخاصة بسعيد بنظرة ريب، قبل أن تسمع صوت حديثٍ خافت. اقتربت ببطء لتكتشف عبر بصيص ضوء مُتسرِّب من أسفل الباب أن الغرفة محل اجتماع سري يُشارك فيه زوجها. تحسست خطواتها بهدوء، واقتربت أكثر مُرهفة سمعها لتستبين ما يُقال، فسمعت صوت «حسين» مُميزًا وهو يقول:



لقد قابلت أحمد قُبودان بالأمس ومن الواضح أنَّه أخطر كثيرًا مما نتخيل. تصور يا سعيد أنَّ هذا الرجل لا يبدو عليه أي شيء، فهو ضحوك وظريف جدًا بين زُملائه، وكثيرًا ما يُكرر النكات، ويجيد تقليد الفنانين، ويُدخّن، ومع ذلك هو واحد من أخطر عناصر الإخوان السريين، ولديه خريطة بمخازن أسلحة في كُل مكان بالجمهورية.

وهل وثق فيك بكُل سهولة؟

ميزت المُتنصتة صوت «سعيد» سائلًا، ثُم أجاب «حسين»:

نعم. تصور. لقد أمسك الكارت الخاص بمصطفى راغب، ونظر فيه كمّن يتأمل لوحة فنية لفاتنة من فاتنات عصر النهضة، ثُم ابتسم ونظر إليّ وسحبني من يدي بعيدًا عن الناس، وقال لي: الآن يُمكنك الكلام دون خوف. قُلت له على التنظيم الجديد، وأخبرته أن عدد الأعضاء لدينا كبير ويتعدّى مائة شخص، فقال لي إن مائة شخص عدد ضئيل، وأن المُهم هو قوة



الأشخاص، مؤكدا أن لهم تواجدا داخل الجيش، وكثير من الجهات المهمة والحساسة، وأنهم يتحينون الفُرصة للقيام بعمل كبير.

سكت قليلًا كأنه يسحب نفسًا من سيجارته ثُم أضاف:

طبعًا تحدثت معه عن القيام بعمل مُشترك، لكنه تحفظ بشدة، مُكررًا أن الإخوان لا يعملون إلا وحدهم، ومَن يرد أن يعمل معهم يعمل تحت قيادتهم. ونصحني أن أجلب السلاح من الإسكندرية، لذا فقد كلفت مدحت بالسفر إلى هُناك ليتابع مع عبدالقادر التفاوض مع أحد التجار، في الوقت نفسه فقد أجرت شقة في الظاهر لنضع فيها السلاح.

ضحك «سعيد»، وقال:

أنت كذبت على رجل الإخوان لتُخبره أن عدد التنظيم مائة شخص، ونحن أربعة فقط.

قريبًا سيتسع التنظيم، عبدالقادر قال إنَّه جنّد اثنين في الإسكندرية، وأنا سأتصل بسيد ليُساعدنا. لا تنس



أنه كان أكثر الأعضاء إخلاصًا.

عظيم. أريد أن أقول لك أيضًا إنَّ نجيب سيأتي الخميس القادم. هل نُفاتحه؟

أجاب «حسين» بحزم:

بالطبع لا. يجب أن نتعلم من دروس الماضي. نجيب ليس مدحت ولن يكون. نجيب مُنفلت، ويحب القراءة والسينما، ويريد أن يستمتع بالحياة. لن يفيدنا، وربما يكون ضارًا بالتنظيم. المُهم سأذهب إلى الفراش، ففي الصباح لدينا تفتيش، ويجب أن أذهب إلى الشركة.

سمعته «سُعاد»، فانسحبت تجري على أطراف أصابعها، ودلفت سريعًا إلى الفراش، وتظاهرت بالنوم.

***

تلاقوا بعد غياب سنوات طويلة. قبّل «نجيب» «فخري» ابن خالته بمودة ظاهرة، ثُم صافح «سُعاد»، واحتضن «كوثر» و«وفاء» ماسحًا بكفِّه شعرهما



الطويل، قبل أن يجلس على أريكة الصالون الذهبي المُميز لمنزل «توفيق بك». هُنا لعبنا، وكبرنا، وفتحنا نوافذ الدهشة والصبا. قالها لنفسه، وهو يتذكر أيام المدرسة وحكايات التنظيم الساذج، وخطط المُراهقين الوطنيين.

كان «نجيب» قد وصل قبل دقائق، مُرتميًا في حُضن خالته، ثُم مُعانقًا ابن خالته «سعيد»، قبل أن يستقبل أسرة «حسين» الجديدة التي لم يرها من قبل. بدا «نجيب» أكثر سمنة من أيام الشقاوة، واتسعت جبهته قليلًا، وحمل فوق شفتيه شاربًا كثيفًا قريب الشبه من ذلك الذي يحمله «حسين». وفوق رأسه وضع «نجيب» طاقية أوروبية مُستديرة، بدا معها وكأنَّه أحد مُمثلي السينما العالمية. رطن «نجيب» بالألمانية بضع كلمات قال لهم إنَّها تعني أنكم أوحشتموني كثيرًا، ثُم أخذ يضحك ساردًا حكايات لا حصر لها عن أزماته العديدة مع اللغة الألمانية مُذ وطئت قدماه أرض ألمانيا الشرقية. سألته خالته عن زوجته فقال، إنَّها

ثقيلة، راسمًا بذراعه علامة البطن المُنتفخ إشارة لحملها، وأوضح قائلًا:

الطفل الثاني. رُزقنا بأحمس قبل أربع سنين، وسأسمي القادم رمسيس لو كان ولدًا، وإيزيس لو جاءت بنتًا.

تذكر «حسين» «سناء» وجمالها الخلاَّب، ورقتها الساحرة، وقال في سرِّه: لو كانت زوجتي لما سميت هذه الأسماء البلهاء التي تُشير إلى حُكام جبابرة مُستبدين جعلوا شعوبهم عبيدًا.

نظر «نجيب» فجأة إلى « سُعاد»، وقال بحركات تمثيلية:

أريد أن أقول لك إنك أفضل ما فعل حسين في حياته. لقد اختار لأول مرة فتاة جميلة لتُصبح شريكته وأم أولاده. تحيتي لأهل الشام وتقديري لجمالهن لا يوصف.

ابتسمت «سُعاد» قائلة:



شكرا على ذوقك.

وتدخلت حماتها في الحوار لتقول:

ومَن مثل حسين ابني؟ ألا تذكر يا نجيب كيف كانت بنات النادي يتشاجرن عليه؟

قهقه «نجيب» بصدق، وقال:

يا خالتي. القرد في عين أمه...

اخرس يا ولد.

قالتها خالته، لكنَّه واصل التهريج مُحتضنًا «حسين» الذي بدا غير قادر على احتمال المزاح، وجلس يُدخّن سيجارًا غليظًا، وهو يقول ل«حسين»:

هااا. ما رأيك؟ ألا أبدو لك كإقطاعي قديم؟

وواصل:



ألم تكُن ضد الإقطاعيين والباشاوات ونحن صغار؟ قُل لي الآن: كيف ترى الاشتراكيين وأبناء الفقراء عندما يحكمون؟

بدا الغيظ واضحًا على «حسين»، وعلَّقت «سعاد» قائلة:

إن حسين هجر السياسة تمامًا وتفرغ الآن لعمله ومستقبل بناته.

قهقه «نجيب» مرة أخرى، فقال «حسين» مُجابهًا خجله، وراميًا بنظرة تحذير نحو زوجته:

حسين توفيق لا يتخلَّى أبدًا عن وطنه ولا يخاف من أحد.

قال «نجيب»، وهو يربت على كتفه:

قلبك أبيض.

ثُم أضاف بشيء من الجدية:



محمود مُراد صار درويشًا، وإبراهيم كامل على وشك أن يُصبح سفيرًا، ومحجوب تفرغ لإدارة شركات تُجارية ناجحة، وعُمر أبو يعلى الآن صاحب عيال، وسيد أصبح رمزًا للثورة الجزائرية بالأفلام التي ينتجها في هيئة الاستعلامات ضد فرنسا، أما أنور السادات فقد أصبح رئيسًا لمجلس الأمة، وها هي الأيام تدفع كُل واحد في ناحية. أستطيع القول الآن برضا حقيقي أنَّ السياسة الحقيقية هي أكل العيش. هي التمتع بالحياة.

ردَّ «حسين» بحدّة:

لا سعادة في العيش على الهامش، خدمة السلاطين، السكوت على الباطل. هل أنت سعيد باستبداد عبدالناصر وتفرعنه؟

علقت السيدة «سميرة» بصوتٍ هامس:

منّه لله.

لكن «نجيب» ابتسم وقال:

لا يعنيني.

وواصل:

أنا مُهتم بحالي وحال عائلتي، باستمتاعي بالفن، بالأدب، بمتابعتي للسمر، بسفري هُنا وهُناك. بقراءة الكُتب، والاستفادة من تجارب الآخرين. أنا أعمل في مجال الاتصالات في ألمانيا وأحصل على ما يسترني ويجعلني أحصل على طعام جيد وشراب أكثر جودة، وأتصور أنَّ هذا يكفي. أما عبدالناصر والاشتراكية والجمهورية المتحدة والقومية وغيرها فإنها لا تمر أبدًا في ذهني.

قامت «سُعاد» على إثر غمزة من عين حماتها لتسأل «نجيب» عما يشربه، لكنَّه عاد إلى هزله قائلًا:

هذه اليد الناعمة تصنع القهوة؟ يااه. ما ألذها قهوة.

ثُم أضاف موجهًا حديثه إلى «حسين»:

أنت محظوظ دائمًا يا ابن خالتي.

ربت «سعيد» على كتف نجيب قائلًا:

دعك من الهزل. قُل لي: كم يومًا ستبقى في القاهرة؟

أسبوعين.

قالها «نجيب»، مُضيفًا:

لأننا سنسافر أنا وسناء بعد ذلك إلى أسوان للقاء محمود. أنت تعرف أنه يعمل في السد العالي. قولوا لي أنتم هل ستعزمونني على السينما؟

السينما؟

سأل «حسين»، فهز ابن خالته رأسه قائلًا:

نعم السينما. هُناك فيلم جديد اسمه الناصر صلاح الدين بطولة أحمد مظهر وصلاح ذو الفقار ونادية لطفى سيُعرض الاثنين القادم في سينما مترو. إنهم يقولون إنَّه فيلم عالمي.



هزَّت السيدة «سميرة» رجلًا فوق الأخرى لتبدو أكثر سمنة مما تركها عليه ابن أختها، ثُم نظرت نحوه سائلة:

ألم تُشاهد الفيلم الذي عملوه عن ابن خالتك؟

فيلم؟

نعم. في بيتنا رجل.

ضحك «نجيب» بشكل مُتقطع قبل أن يُجيب:

آه. رأيته العام الماضي على أسطوانة في دور عرض عربية بألمانيا، وضحكنا أنا وسُناء كثيرًا، لأنَّ بطل الفيلم لا علاقة له بحسين الذي نعرفه، كما أنَّ عُمر الشريف بعيد الشبه عن ابن خالتي تماما.

شعر «حسين» بضيق شديد، وبحلق بحقدٍ إلى القادم بعد غياب، ثُم قام وهو يقول:

سأستئذنك يا نجيب. عندي موعد مهم. البيت بيتك طبعًا.

انتظر. هل غضبت؟

صاح به «نجيب» وهو يقوم خلفه، لكنه غادر مُسرعًا والتجهُم يكسو وجهه.

***

ثلاثة مُسدسات برتا، وبُندقية آلية، وخمس قنابل يدوية، وأظرف من الرصاص. كانت أول توريدة للسلاح تلقاها «حسين» وأخفاها في شقة الظاهر تُثير من القلق في نفسه أكثر مما تبعثه من الغبطة. شعر «حسين» للوهلة الأولى أنَّ تلك الأسلحة تُمثل لا شيء أمام جهاز بوليس يمتلك كُل أنواع الأسلحة، وقوات مُسلحة لديها دبابات ومدرعات ومدافع وصواريخ وطائرات، وأجهزة استخبارات لها صلاحيات مُطلقة في التحري والاستجواب، ونظام حُكم يوجه صحافة وتليفزيون وإذاعة لصالحه واصمة خصومه بالخيانة والفساد. كما أنَّ شُحنة الأسلحة البسيطة كلفتهم نحو ثلاثمائة جنيه، وهو ما يوازي راتبه الذي يصفه كثيرون بأنَّه كبير في ثلاثة أشهر. أما أكثر ما أزعج الأوتار



العصبية «لحسين» فكانت تلك المُشادات الحادة التي كانت تظهر بين الحين والحين مع «سُعاد» المُتجهمة دائمًا. في آخر خناقة قالت له إنَّها تعلم أنَّه يُدبر أمرًا ما وأنَّه يُعرضها ويُعرض ابنتيه مرة ثانية للخطر. كان أكثر ما أوجعه قولها:

يا حسين. أنت حُر في حياتك، حُر في أن تفعل بها ما تشاء. تكره، تحب، تضرب أو حتى تقتل، لكن أنت لست حُرًا في تدميرنا وإلصاق الأذى ببنتين لم يفعلا شيئًا لأحد.

لقد ضربته «سُعاد» بسيفٍ بتار عندما ذكَّرته ب»خالد» قائلة:

لقد خسرنا ابننا الأول بسبب عدم وجود رعاية، ومات على حِجر غيري لأنَّني كُنت مكلومة في زوجي أجري يمينًا ويسارًا بحثًا عن مخرج لورطته التي صنعها بنفسه.

ردَّ «حسين» بغضب:



إنني كُنت أجاهد من أجل ابني وأبناء سوريا ليجدوا مناخًا آمنًا وحياة كريمة. لقد كُنت أحارب الطاغية الذي طرده السوريون شرَّ طردة، وها هو انتهى به الحال قتيلًا في بلاد غريبة.

علا صوتها كثيرًا، وهي تقول:

لم يُعينك أحدٌ وكيلًا لله في تخليص العالم من الأشرار. إنَّهم لن ينتهوا. كُلما مات طاغية أو خائن جاء خلفه ألف طاغية وخائن. تلك هي طبيعة البشرية. أفق يا حسين من وهم يد العدالة.

فكَّر «حسين» بجلاء في جدوى ما يفعل هو وأصدقاؤه الثلاثة. شُحنة أسلحة محدودة القدرات ماذا تفعل وسط غابة الشر، حتى لو تضاعفت؟ ماذا لو نجح في قتل «عبدالناصر»؟ هل يضمن أن يأتي خلفه أحد من رجال الله الأنقياء الصالحين الذين يُحققون ما يريد؟ «عبدالحكيم عامر» مثلًا بصرامته وقدراته المحدودة، أم «السادات» بمكره وخداعه؟ وما الذي يعني نجاحه في قتل «علي صبري» أو السفير



الأمريكي؟ سيتغيرون بآخرين ربما أسوأ أو أشد بطشًا. ألم يقتل الإخوان «النقراشي باشا» لأنَّه أصدر قرارًا بحلّ الجماعة؟ ماذا جرى بعد ذلك؟ ألم يأت «إبراهيم عبدالهادي» ليفتح معتقلاته وسجونه ويسحق الإخوان ويقتل مرشدهم ويُشرد عائلاتهم؟ ليس بعد الشر خير، ولا يعني رحيل القُبحاء أن يعود الحُسن. شعر أنَّ «سُعاد» مُحقَّة في كثير مما تقول، وأنَّه تحول إلى مفرخة كراهية، ومصنع حقد، وأنَّ التفكير العقلاني هجره إلى حيث لا يدري. قال لنفسه إنَّ حياة ابن خالته «نجيب» على ما فيها من هزل وضحك ولهو وحب هي حياة رائقة، يكفي أنَّه اقترن بسناء الرومانسية الرقيقة التي سبق أن خطفت قلبه. أما هو فقد بدد كثيرا من السنوات في القتل الخطأ، التفجير للغير، والركض خلف البطولات الوهمية. لقد قتل «أمين عُثمان» قبل ثمانية عشر عامًا، وقبض آخرون ثمن العملية، فأُعيد «السادات» للجيش، ونُزع من الوفد أحد مخالبه في صراعه مع السراي لتصعد جمعية سرية محدودة القدرات وتستولي على الحُكم، حُكم مصر، أما هو فظل مُطاردًا مُشردًا خارج القطر

كُله. وفي الشام حارب وفجّر وقتل يهودا وأجانب بحثًا عن بطولة حقيقية، لكنَّ عملياته وعمليات زُملائه نُسبت جميعًا إلى كتائب الفداء العربي وشلة جورج حبش دون ذكرٍ لتضحياته، ثُم أطلق الرصاص على الشيشكلي ليكسب رجل المخابرات السري وتيارات المُعارضة والدروز ويقضي هو سبع سنوات مُنتظرا الموت في أي لحظة. أي خُطى مُتعرجة تخطوها قدماه؟ وأي دروب ضلال يمضي فيها دون وعي أو تأمل أو تدبر؟ صدقت «سُعاد»، فما يريد أن يفعله لن يُصلح الكون، وسيمضي الأشرار ليأتي غيرهم أشد شرًا، وأكثر استبدادًا.

فتح الراديو ليُتابع تفاصيل خبر اغتيال «أديب الشيشكلي» في برازيليا، وسمع ما نقلته نشرة الأخبار من أنَّه تم استلام جُثمان العقيد الراحل «أديب الشيشكلي»، ولفّه بعلم سوريا تمهيدًا لنقله لسوريا لدفنه بمدينة حماة في مدافن عائلته. كان رجُلا دُرزيًا يُدعى «نواف غزالة» قد قُبض عليه واعترف بأنه أطلق الرصاص على «الشيشكلي» في مزرعته انتقامًا



من قيامه بقتل عائلته في جبل الدروز، ومن المُقرر أن تُقام جنازة عسكرية للرئيس الراحل.

ابتسم «حسين» وقال لنفسه: قتلوه بعد أن صار يستحق الشفقة. لا طعم لذلك. لا بطولة ولا يحزنون. لا مُتعة في القتل السهل، في عمليات اللاتخطيط، في الوصول للهدف دون مشقة، في اللامواجهة عند اصطياد الفرائس الكسيحة.

سمع طرقًا شديدًا على الباب، فزعت زوجته، وهرولت قادمة من غُرفتها، وقام هو ببروده المُعتاد ليفتح. برقت عيناه عندما رأى أمامه ملابس سوداء ووجوهًا كالحة يعرفها جيدًا. صاح فيهم سائلًا:

من أنتم؟ وماذا تريدون؟

نحن من المباحث الجنائية. أنت مُتهم بالتخطيط لقلب نظام الحُكم. فتشوا الشقة.

***

صفعة، صفعتان، ثلاث. لم يُصدّق أنَّ تلك الأصابع الغليظة لامست خديه. كيف سمحوا لهؤلاء الأجلاف أن يُهينوه؟ فكَّر «حسين» وهو مُلقى على أرض أسمنتية صلبة في غُرفة مُظلمة، وهو يستثير حواسه على الاستيقاظ من ذلك الكابوس المُفزع. كيف مرَّ على صفَّين من البشر، لا من الأوغاد ليتلقى ركلاتهم في جنبيه وفخذيه ومؤخرته؟ ثُم كيف تلقى سبابًا لم يسمعه في عُمره؟ وكيف لم يستطع أن يرُد على وصم أمه بالعاهرة عدة مرات مُذ أُنزل من سيارة الشرطة حتى وصل إلى زنزانته؟

صرخات تتعالى حوله، وشرر يتناثر من عيون المُخبرين والعساكر يُنبئه أنَّ القادم أسوأ مما تخيل يومًا. قال لنفسه إنَّه لم يرتكب خطأ ولم يُطلق رصاصة، وأنَّ كُل ما فكر فيه لم يتجاوز مرحلة التفكير، وهو ما يعني أنَّه لا جريمة. بريء، غير مُذنب. هل يُحاسب القانون في مصر أحدًا على النوايا؟ سأل نفسه مُقررًا أنه اتخذ قرارًا بالعدول عن أفكاره امتثالًا لنصيحة زوجته الحبيبة التي تعتبره هو وابنتيه دُنياها



كُلها. لقد اقتنع أخيرًا أنَّه لن يُصلح الكون، ولن يُنهي وجود الأشرار، ولن يُحقق العدالة، لأنَّ طبيعة البشر تقتضي وجود ظُلم وضلال وفساد وقهر إلى يوم القيامة. لقد حاول قبل سنوات قتل «أديب الشيشكلي»، وهو في أوج قوته وأخطأته رصاصاته، لكنَّ يد القدر كانت تحتفظ للرجل بميتة أكثر إيلامًا وهو وحيد منفي بلا حولٍ ولا قوة.

لمس بكفه سائلًا ساخنًا فوق شاربه ليكتشف أنَّ ضربات الأيدى الغليظة جرحت شفتيه. لعق الدم النازف، وجلس مُستندًا إلى الحائط ليسمع تأوهات مكتومة مُتسللة عبر قُضبان الباب الأسود. قاس بنظراته مساحة الزنزانة فوجدها أقل كثيرًا من غُرف الحبس الاحتياطي التي سُجن فيها في سوريا، وقال لنفسه إنَّه كُلما مر الزمن تضيق الزنازين على ساكنيها. فكَّر فيمن وشى به، مُتذكرًا أنَّه لا أحد يعرف بأمر التنظيم سوى «عبدالقادر»، و«سعيد»، و«مدحت»، وأنَّه حتى «أحمد قبودان» لا يعرف شيئا عن تفاصيل التنظيم. هل هُناك خيانة جديدة من أولئك الذين



أودعهم كامل ثقته؟ وهل يتكرر «نوار» الفلسطيني؟ أم هي السذاجة التي تدفعه دفعًا أن يثق بالناس بسرعة؟ فكَّر في «سُعاد»، وشعر بلسع دمعها، وهو ينزلق فوق وجهه. ستتوجع ألمًا وستظُن أنَّه لم يلتفت لنصائحها، ولم يُفكر في مخاوفها. قرر أنها لو زارته، فسيُخبرها أنه بريء تمامًا هذه المرة، لم يقتل ولم يجرح ولم يُطلق رصاصة واحدة.

ساعات مرَّت دون استدعاء. تركوه مُكومًا بين النُعاس، والصحو ككمٍ مُهمل. مثل ذلك الباب الأسود المُصمت الشاهد على مآسٍ وأنات مُعذّبين ومظاليم كُثر. اقترب من القضبان، لكنه لم ير سوى الجدار الصامت، وأبواب بعض الزنزانات الأخرى التي قدَّر أنَّها مليئة، عندما حمل إليه الهواء روائح شتى لبشر آخرين يجمعهم الخوف، الذي اعتاد شمه عند كثير من الناس. بدأ العطش يغزو روحه، وانتابه صُداع خفيف، وشعر بالضيق ألا يجد في جيبه سيجارة واحدة، وأحس أن نقص النيكوتين في شرايينه يدفعه دفعًا نحو الجنون. لو سألوه عن نواياه سيُنكر كُل شيء، وسيقول إنَّه



مُختلف مع «عبدالناصر» في نظام حُكمه، لكنَّه لا يُمكن أن يقتله، لأنَّ الثوار لا يقتلون الثوار. سيحكي لهم عن بطولاته ضد الإنجليز واليهود والخونة، وسيخبرهم أنَّه كان شريكًا ل»أنور السادات» فى اغتيال «أمين عثمان». سيؤكد لهم أنَّه البطل الحقيقي لفيلم «في بيتنا رجل» وأنَّ المشير «عبدالحكيم عامر» وظّفه في شركة «شل» للبترول التي تمصرت وأصبح اسمها الآن «مصر للبترول». تخيل نفسه جالسًا أمام المُحققين، وهم يعتذرون له في أدب جم بعد أن خطب فيهم قائلًا: «أنا أول من ثار على الملك، أول من قتل الإنجليز، أنا عدو الأحزاب، وخصم الإقطاع، ونصير الفقراء. أنا الاشتراكي الحقيقي، والقومي الأصيل، والعروبي المثال».

غفا قليلًا أو كثيرًا لم يُحدد. بانت له «ميمي» بقميص فاتن، قبلته في بشبق، قبل أن تخلع عنه قميصه. بدا مُترفعًا وصامدًا لا يصُد أو يرُد، لكنَّ أصابعها واصلت تجوالها فوق جلده، ليشعر برعشات مُمتعة تسري في كل أنحاء جسده. اشتم عطرها فواحًا، وهبطت جدائل



شعرها فوق وجهه، وانتابته رغبة عارمة في تقبيلها، لكنَّ صوت والده صك أُذنيه وهو يصرخ فيه قائلًا: «أنت فاشل. فاشل. فاشل يا ولد».

ركلته قدم غليظة، وسمع مَن يُناديه بوصف يخجل أن يسمعه عن أمه، ورأى رجُلا طويلًا، واسع الصدر، يسحبه سحبًا من معصمه، ليقف على نصف رجل، ثُم يتقَّبل ركلة بين فخذيه يسقط على إثرها، ويقوم مرة أخرى مُستجيبًا، مُسيرًا، مذعورًا، مدفوعًا إلى الخارج، ثُم إلى غُرفة المُحقق. تضاعف ذُعره، وهو يرى بقايا وجه «عبدالقادر»، عندما كان يجرّه على الأرض مارد آخر ليُخرجه من غُرفة التحقيق إلى زنزانته.

***

حبست «سُعاد» أوجاعها في قلبها وكتمت جراح روحها، وهي تجلس أمام «أحمد الناحي» المُحامي في مكتبه المُطل على مشهد السيدة زينب. كان الشيب قد غزا الرأس العجوز، وبدت تجاعيد السبعينيات تجد طريقها إلى وجهه، وعرفت أصابعه ارتعاشات التقدم



في السن. قال لها المُحامي الكبير وهو يُقلب أوراق ملف أمامه:

يا بنتي هذه المرة الأمر يختلف. حسين الآن مُتهم بالتخطيط لقلب نظام الحُكم، وقد اعترف بشكل تفصيلي وأرشد المباحث على مخزن للسلاح في الظاهر، كذلك فقد اعترف شقيقه سعيد، وابن خالته مدحت، وصديقه عبدالقادر. جميعهم اعترفوا بأنَّه كان يقودهم بالفعل لتنفيذ عمليات اغتيال لعدد من المسئولين أولهم الرئيس عبدالناصر، وآخرهم السفير الأمريكي في القاهرة. والخطير في الأمر أنَّ المباحث الجنائية قبضت على تنظيم آخر للإخوان لقلب نظام الحُكم، وأتصور أنَّ الرد من جانب الدولة سيكون حاسمًا لكلا الطرفين، لذا فقد تم تحويل القضية إلى قاض عسكري اسمه فؤاد الدجوي لا يعرف الرحمة، ولا يقبل الأعذار. إنَّه فقط يقرأ الأحكام التي تأتي إليه من القيادة العامة.

وأضاف هامسًا:



ربما من عبدالناصر نفسه.

انسكبت دمعات ساخنة من عينين بدتا متورمتين من كثرة البُكاء، لتسأل «سُعاد»:

يا أستاذ أحمد. هل قرأت تفاصيل القضية جيدا؟ ألا تجد ثغرات يُمكن تخفيف الحُكم من خلالها؟ أنا أعرف أنك أفضل محامٍ في البلد، وأنك أنقذت حسين مرتين من قبل.

هزَّ الرجل رأسه في تأثر، وقال:

قرأت القضية كلمة كلمة. وأعرف أنَّ حسين لم يرتكب شيئًا بعد، لكنَّهم ضبطوا لديه أسلحة وهو اعترف بأنه كان ينتوي اغتيال الرئيس. أعتقد أن القصة شبه مُغلقة، وكُل ما يُمكنني فعله هو إعادة تقديم الشهادات الطبية التي تفيد اختلال القوى العقلية لحسين.

لا.

صاحت «سُعاد»، مُضيفة:



إنَّ ذلك الأمر يقتله قتلًا. حسين ليس مجنونًا. إنه يقول لي أنه لم يؤذ أحدًا هذه المرة. وأنَّه لا يوجد قانون يُحاسب على النوايا.

ابتسم المُحامي الكبير ابتسامة باهتة، ثُم قال:

مَن قال ذلك؟ القانون يُحاسب على النوايا إذا تم إعلانها. وفي الوقت الحالي فإنه يحاسب على النوايا حتى لو تم إخفاؤها. اسمعي يا بنتي.

هزَّت رأسها مُستقبلة لكلماته، فواصل:

لقد اشترى حسين أسلحة من الإسكندرية من سائق مُجند اسمه محمود الشيشيني، وهو الذي وشى بمدحت بعد أن سلمه السلاح. وما جرى بعد ذلك هو أنَّ مدحت وشى بباقى المتهمين ومنهم حسين تحت تأثير الضرب المُبرح. ولا شيء الآن يُمكن عمله سوى التماس العفو، واعتبار حسين شاهد ملك لأنه أدلى ببيانات ومعلومات قادت إلى تنظيم الإخوان المُسلح واعترف على أحمد قبودان ومصطفى راغب، اللذين



كشفا أنَّ قائد التنظيم الإخوانى هو سيد قطب نفسه. وأتصور أنَّ هذا هو الطريق الوحيد، أن نؤكد نوايا حسين الوطنية، وندمه على ما جرى، وكشفه لأخطر مجموعة إخوانية تستهدف قلب النظام.

هل يُمكن أن نستعين بأحد؟

سألت «سُعاد»، فهزَّ «أحمد الناحي» رأسه قائلًا:

لا أفهم.

فكررت:

هل أذهب إلى السيد أنور السادات؟

رئيس مجلس الأمة؟

نعم.

هزَّ المحامي رأسه مُبتسمًا، وقال:

القضية القديمة. أليس كذلك؟

نعم. لقد كان...

قاطعها بحزم:

أعرف ما كان. لكن اسمعي جيدًا. لا تحاولي ولا تُفكري في هذا الرجل أبدًا. إنَّه لن يُقابلك، وسيعتبرك خطرا عليه، وربما يعتبر حسين يحاول إحراجه أمام الرئيس عبدالناصر. وربما يؤدي ذلك إلى آثار سيئة. ربما يضغط للحكم بالإعدام، أو أي شيء آخر. من الأفضل أن تنسي هذا الأمر تمامًا. مفهوم؟

هزَّت رأسها بالإيجاب، وقامت تسحب قدميها مُفكرة فيما يُخبئه القدر لها. فكَّرت أنَّ براءة زوجها هي الأمل الوحيد لها في هذه الدُنيا. قبل أيام تعرضت لسيل من السباب من خالة زوجها، قبل أن تواصل حماتها وصمها بالبومة، وتتهمها بسرقة أموال «حسين». قالت لنفسها إنَّها تحمّلت ما لا يتحمله إنسان بعد القبض على زوجها، وأنَّه في حال صدور حُكم بالإدانة ستُغادر إلى دمشق، ولن ترجع للأبد.

***



«ومنذ أن تفجرت قوى الثورة وانطلق الشعب في طريق الاستقلال والحرية، واجه حروبًا مسعورة من كل صوب، كما واجه أعداء الثورة في الداخل الذين يتنمرون أملًا في فرصة تسنح لهم في اغتصاب السلطة والقضاء على أبطال الوطن. وهؤلاء تآمروا لتأليب الرجعية وتآمروا لإثارة الذعر والتخريب في الجبهة الداخلية، غير أنَّ إيمان الشعب بالأهداف التي رسمتها الثورة جعلها تخطو في ثبات إلى الأمام». كان مُمثل النيابة يخطُب في حماس وعيناه تبثان حقدًا صوب عدد من الرجال الواقفين في القفص، بينما كان «حسين» بينهم يضحك في أعماقه على بلاغة وكيل النيابة، ونفاقه، وانتهازيته.

فى قرارة نفسه كان «حسين» موقنًا أنَّ الحُكم صدر مُنذ شهور، وأنَّ كُل ما يدور مُجرد تمثيلية سخيفة لوضع إطار شكلي لقرار حبسه. أزعجه أن يتحدث المُحامي مرارًا عن اضطراب شخصيته وعن إصابته بمشكلة عصبية نتيجة مرض ضرب شبكية عينه عندما كان صغيرًا. ودَّ لو يتكلم، ويرُد كلام ذلك الواهن الذي



لا يستطيع أن يدافع عن أحد سوى من خلال وصمه بالجنون. رمى نظرة استفهام نحو والدته، ليقرأ في عينيها صلابة وقوة اكتسبتها عبر السنين، ونظر إلى زوجته فوجدها مُنكسرة، دامعة العينين، فقدَّر أنَّ حُزنها ينصب أولًا على الصغيرتين «كوثر» و«وفاء» لأنهما حُرمتا عائلهما ووالدهما فجأة. قال في تسليم إنَّه لم يمنحهما ما تستحقانه من عناية واهتمام.

واصل ممثل النيابة خطابه قائلا: «إنَّ القضية المعروضة على حضراتكم اليوم ليست قضية حسين توفيق ورفاقه فحسب، بقدر ما هي قضية شعب بأسره.. صنع ثورته التي حققت له رصيدًا متجددًا من المكاسب والانتصارات، وهو اليوم يناشدكم القصاص من هذه العصبة الآثمة التي تريد أن تنقض على مكاسبه، وتقوض دعائم ثورته. لقد كانوا يسعون من جحورهم إلى بلبلة الأفكار، وإحداث فتنة دامية في البلاد، كانت ستصيبه في الصميم لولا عناية الله، ويقظة القائمين على الأمر. ولولا الإيمان المتأصل في الشعب بثورته وقائده».



ابتسم «حسين» ساخرًا وهو يُردد في سره «الآن صارت قضية حسين ورفاقه هي قضية الشعب بأسره. آه أيها الشعب المسكين. كم من الطُغاة يتحدثون باسمك». فكّر في كلام الرجل وتساءل: كيف يُغير الناس المُسميات بكل هذه السهولة؟ كيف يعتدون على الذاكرة بهذه البساطة؟ لقد تغير اسم الانقلاب العسكري إلى حركة مُباركة، ثُم أصبح الآن ثورة. استمع للمُحامين عن زُملائه واحدا تلو الآخر. قالوا كلامًا مُكررا، كُله ذُل واستعطاف. نظر إلى القاضي، وقرأ في عينيه الحُكم قبل أن ينطق به. قال لنفسه إن سيادة القاضي الفريق أول عرفه الناس مُنهزمًا في حرب السويس سنة 56 عندما استسلم كحاكم على غزة للإسرائيليين، قرأ في وجهه أنَّ الحُكم أن يُسجن مؤبدًا، لأنَّ «عبدالناصر» سيمنحه أعلى عقوبة ليستريح من خطره في الوقت نفسه فإنه لا يُمكن أن يأمر بإعدامه، خاصة أنَّه لم يُطلق رصاصة واحدة. وقدّر أنَّ «عبدالقادر» و«مدحت» و«سعيد» سيلحقون به، ورُبما يُحكم على «محمود موسى» الضابط السابق بالسجن ثلاث أو خمس سنوات، وسيخرج «سيد»



براءة لأنَّه دخل القضية خطأ بعد أن وجد رجال المباحث اسمه في أوراق «سعيد» الخاصة.

تذكر كيف عُلّق يومين مُتتاليين من معصميه ليقر بأسماء كُل مَن يعرف شيئا عن التنظيم، ثُم حرموه من الماء والسجائر عدة أيام حتى باح لهم بنواياه وخططه وأفكاره بطريقة مُرتبة. ووصل به الأمر أن شرح لهم طريقة تصنيع الديناميت التي عرفها في سوريا من خلال تحضير مادة النيتروجلسرين وتجهيزها يدويًا. ابتسم عندما لمح أحد زُملائه بالشركة ضمن الحضور، وقال لنفسه إنَّه لابد جاء للفُرجة.

نطق القاضي العسكري بالحُكم، وخُيّل له أنَّه لم يسمعه، لكنه لمح دموعًا مُنحدرة على خدي «سُعاد»، وسمع نحيبها، بينما لاحت ابتسامة تشفٍ على شفتي زميله، الذي لم يعُد يذكر اسمه. ابتسم ساخرًا، ثُم سار صامتًا بين بقية المتهمين، بينما شلَّ الوجوم ملامح «سعيد» و«مدحت» و«عبدالقادر». ومضى هو في لامبالاة نحو عقوبة لجُرم لم يرتكبه.



***

قالت «سُعاد» ل«فاطمة» إنَّها لا تستطيع البقاء بابنتيها في هذه الظروف، وأنَّها قررت السفر إلى دمشق للعيش هُناك. كانت صريحة وواضحة، وهي تُخبر شقيقتها أنَّها لم تعُد تُبادل «حسين» أي مشاعر محبة، بعد أن شعرت أنه مسئول عما وصل إليه. أكدت ل«فاطمة» أيضا أنَّ نظرات الكراهية والحقد المُنبعثة من عيني حماتها قد تُصيب البنتين بالجنون والتطرف والحدة الشبيهة لتلك الساكنة برأس «حسين». قبّلت أختها المودعة بعد أن حزمت حقائبها، وسافرت مُقسمة أنَّها لن ترجع إلى هذا البلد أبدًا. لن تطلب الطلاق، لكنَّها لن تعود لزوجها الذي منحته حُبًا فأجابها جفاءً، وأعطته قلبها، فمنعها حُبه، وقدمت له الطاعة، فأبى أن يُهيئ لها الراحة والطمأنينة. ستعيش في شقة أبيها الصغيرة بحي الصالحية إلى جوار ضريح مُحيي الدين بن عربي، وستعمل أي عمل بسيط يضمن لها لُقمة شريفة وحياة هادئة، وتربية سليمة لزهرتين جميلتين. اقتنعت سعاد نهائيا بأنه لا مجد في القمم،

ولا مُتعة في التفاعل مع الأحداث كما كان يُردد «حسين» على الدوام، وأنه ليس أجمل من ابتسامة بنت صغيرة وهي تحاول نُطق الكلمات الصعبة، ليس أجمل من شفتين رقيقتين تنطقان كلمة «ماما».

في دمشق طاردها الخوف في ظل الاضطراب الدائم المُصاحب للانقلابات العسكرية التي صارت عنوانًا لافتا للبلاد. سعت «سُعاد» بعد التحاقها بوظيفة ملاحظة عاملات بأحد مصانع الملابس أن تُجنّب بناتها أحاديث السياسة وحكايات الزميلات عن الصراعات الشرسة بين الإخوان والبعثيين. وبعد شهور قليلة من وصولها وقطعها لكل الصلات بالقاهرة قامت حركة مُباغتة من بعض العسكريين لتستولي على الحُكم وتتهم البعثيين بالتآمر وتسجن عددا منهم. وشعرت «سُعاد» لأول مرة بصحة ما كان يراه شقيقها «عاصي» في بلاد العرب وفي حُكوماتهم وحتى في «حسين» نفسه. قالت لنفسها يومًا إنَّ انقطاع شقيقها عنها طال كثيرًا، لكنَّها تعرف كيف تصل إليه، كيف تُراسله، وتُحادثه، ثُم تلتقيه، وتحتضنه. تذكرت أنَّ له



صديقًا مُقربًا يعمل في سوق الحميدية وقدرت أنَّه لابد ما زال على اتصال به، لذا فقد مرَّت عليه يوما لتسأله، فبدا سعيدًا برؤيتها، واستفسر عن أحوالها وأحوال أسرتها، فطمأنته، وفاجأها قوله إنَّ «عاصي» اختفى تمامًا عندما سافر بصُحبة فتاة فرنسية من لبنان إلى فرنسا قبل ثلاث سنوات، وأنه لم يعد يتصل به أو يبعث إليه بأي رسائل. وبعد أن غادرت قليلًا جرى خلفها ليلحق بها وهو يقول «إنَّ عاصي لابد سيتصل به يومًا ولابد سيعود إلى دمشق».

ولسنوات طالت نجحت «سُعاد» في التكيّف مع الوحدة، والاعتماد على الذات، وأغلقت نوافذ الماضي ناسية أحزان القاهرة، وراسمة لابنتيها طريقًا للتميز والتعلُم والتربية الرشيدة، بعيدًا عن كُل ما يُعكر صفو الحياة، لكن «عاصي» لم يعُد، ولم تُخبرها «فاطمة » بخروج والد طفلتيها في عفو رئاسى في أي من أعياد الثورة.

***



تأقلم «حسين» سريعًا على حياة السجن، اعتاد الاستيقاظ مُبكرًا، والوقوف في طابور الصباح ثم الخروج إلى الجبل، وتكسير الحجارة. كان الأمر يتم في البداية تحت ضربات الشوم وسباب النُزلاء بالأب والأم، ثُم تحسن الأمر رويدًا مع قدوم مأمور جديد أكثر إنسانية، إذ أوقف الضرب واكتفى بالشتائم. وصار أكثر ما يوجع «حسين» حينئذ هُتافه اليومي بحياة البلاد وبحياة قائدها وزعيمها «جمال عبدالناصر»، فضلًا عن ترديده لأناشيد «الله أكبر فوق كيد المُعتدي» و«وطني حبيبي» مرارًا أمام الحرس والضباط. كان الطعام يسمونه «اليمك» عبارة عن خليط عجيب من الحساء والخضروات الكاملة التي يتجرَّعها المُذنبون كرهًا لسد الجوع، بينما تميَّز الفول المُقدم في وجبة الإفطار بكثرة السوس، وهو ما اعتادته معدات سُجناء السياسة سريعًا.

في العنبر تكوّم «حسين» مع ثلاثين سجينًا، إخوان، وشيوعيين، ورجعيين، وضباط عُصاة، فضلا عن بعض المساجين الجنائيين المدانين في قضايا سرقة أو



احتيال. وامتدَّ العنبر على هيئة مستطيل بطول عشرة أمتار وعرض خمسة أمتار، وتتخللت جُدرانه ثماني نوافذ صغيرة، يتسرب من قضبانها بعض الهواء، بينما توزَّعت أبراش النُزلاء في صفين بطول العنبر.

طرد «حسين» من رأسه أي أفكار كانت تراوده حول الهرب، خاصة أنَّ العُمر امتد، والنظام الأمني اختلف، ووسائل الحراسة صارت أكثر تقدمًا. استمع الرجل لحكايات شتى من سُجناء مُجرمين، ومظاليم، بعضها أوجع قلبه، والبعض الآخر هوّن عليه ما يحياه. قصَّ عليه البعض كيف كانوا يُضربون كُل يوم قبل الإفطار، ويُدفعون دفعا للاعتراف بنسويتهم ليقول كلا منهم «أنا امرأة» أمام الشاويش كي لا يُشبعه ضربًا.

تحسنت الأحوال كثيرا.

قالها أحد السُجناء ل»حسين» عندما كان يشكو من غباء الحُراس وساديتهم.



كان «حسين» يقول لمَن حوله إنَّه يدفع هذه المرة ثمن أفعال سابقة، وأنَّه ضحية غدر الذين اختطفوا ثورته. في يوم قابل مُدرسا وفديا مُسنا قُبض عليه بتهمة السير في جنازة «مُصطفى النحاس»، وسأله الرجل إن كان حاول بالفعل قتل النحاس باشا قبل «أمين عُثمان»، فردَّ «حسين» بالإيجاب، لكنه حمد الله على فشل المحاولة، مؤكدًا أنَّ «النحاس باشا» رغم ما لديه من مكر وبلاغة أشرف كثيرًا من هؤلاء الذين يُعلقون زُملاءهم في السلاح، ويضربون أصدقاءهم ويسومونهم سوء العذاب.

واستمع «حسين» من بعض السُجناء لحكاية موت «شُهدي عطية» ضربًا وهو يهتف بحياة «جمال عبدالناصر»، وكان الحاكي مفتونًا بالزعيم وما أحدثه من تغيير اجتماعي كبير، مؤكدا أنَّه مثل «شهدي» لا يلتفت لتعرضه للظلم من القائد، مادام ذلك القائد أنصف الفقراء وبدّل أحوالهم. وردَّ «حسين» عليه بأنَّه من المُخدرين الذين يسيرون خلف تاجر الشعارات مُنسحقين بلا تفكر أو تدبر.



وحكى له سجين من الإخوان كيف تعرَّضوا للقتل في زنزاناتهم بعد خلافهم مع الثورة، حتى أنَّ عساكر ليمان طُرة كانوا يطلقون النار عليهم داخل الزنزانات، فقال له «حسين» بغل:

أنتم تستحقون. تستحقون كُل ذلك وأكثر لأنَّكم قبلتم بالتحالف مع عبدالناصر ضد جميع القوى السياسية وتجاهلتم مصالح البلاد فالتفت إليكم بعد أن خلصتموه من الشيوعيين والوفديين.

كان «حسين» يشعر أنَّ خبرات السنين صبّت في رأسه قُدرة على استيعاب حوادث التاريخ وتحولاته، وفكّر كثيرًا لو عاد به الزمن مرة أخرى لاختار دروبًا مختلفة. كان سيحب بصدق، وسيقرأ بُعمق، وسيشاهد السينما مثل «نجيب»، ويهتم بالموسيقى مثل «سناء»، وسيكمل تعليمه مثل «محمود مراد» و«إبراهيم كامل»، وسيتزوج ويُنشئ أسرة طيبة يمنحها عنايته ورعايته.



في السجن اقترب «حسين» أكثر من شقيقه، «سعيد»، وشعر أنَّه ضحيته لأنَّه كان دائمًا منساقًا خلفه، بلا اختيار أو قرار، ربما لأنَّه كان ينظر له دائمًا باعتباره أبًا لا أخًا أكبر. كان يراه مُرشدًا، ومُعلمًا، وجديرًا بالقيادة. لقد وجد «سعيد» في شقيقه الصاحب الأمين، والراعي المُحب القادر على استيعاب اندفاعاته، وتفهُم آلامه، خاصة أنَّ والده كان بعيدًا، مُنشغلًا، بينما كانت والدته مختلفة لأنها تركية. نفس الأمر كان ابن خالته «مدحت» الذي كان مولعًا مُنذ صغره بالمغامرات، مغرمًا بالتنقل بين المخاطر. أما «عبدالقادر» فبدا ل»حسين» أكثر طيبة مما كان يتخيل، واندهش كيف كان هذا التابع البسيط يقتل الإنجليز في الإسكندرية.

انقطعت الزيارات عن «حسين» وشقيقه، واستبدلت بها خطابات من الأم التي كان واضحًا اعتلال صحتها. كانت السيدة «سميرة» تحمل على «سُعاد» لأنَّها هربت بطفلتيها إلى دمشق، ومنعت البنتين من زيارة أبيهما. لقد اتهمتها سعاد» بسرقة آخر راتب له بالشركة، ثُم قامت بإرسال خطاب استعطاف إلى رئيس الجمهورية



ليصرف لها معاشًا بعد قرار الفصل من الشركة. ورغم التحريض الذي توالى في خطابات الأم تجاه «سعاد»، والذي وصل إلى حد الطلب من «حسين» أن يطلقها، فإنه كان يشعر في قرارة نفسه بأنَّه أوجعها كثيرًا وأنها تحملت معه ما لا يمكن احتماله. وكان مُقتنعا تمامًا بأن قرارها بالسفر بالبنتين إلى دمشق كان أمرًا صائبًا. لم يكن يعلم أي أخبار عن «سُعاد»، لكنه كان يعرف فقط من «عبدالقادر» الذي تزوره «فاطمة» على فترات متباعدة أنَّ «سعاد» والبنتين بخير.

مرَّت السنون سريعة كعربات قطار مجري يحمل ركابه من محطة إلى أخرى. في كل وقفة يهبط البعض، ويصعد آخرون، ويواصل القطار رحلته دون عُطل أو خروج عن القضبان. أُعدم «سيد قطب» واثنان من زُملائه في القضية التي كشفت أول خيوطها اعترافات «حسين توفيق». وشعر «حسين» بمرارة أن يتسبب في شنق أحد، لكنَّه عاد واقتنع أنَّ الثورة كانت تنتوي تقديم أحد رجال الإخوان للموت، لكنَّها كانت تبحث عن مُبرر منطقي. حوكم الصحفي «مُصطفى أمين»



في العام نفسه وصدر حُكم بالسجن المؤبد عليه في قضية تخابر مع أمريكا، رحل المطرب والموسيقار «محمد فوزي» موجوعًا بتأميم شركاته الفنية، ومات المؤرخ «عبدالرحمن الرافعي»، وارتكبت القوات الأمريكية مذبحة دامية في فيتنام، في الوقت الذي احتفلت فيه دور العرض المصرية بفيلم «أخطر رجل في العالم» ل»فؤاد المهندس» و«شويكار».

كان «حسين» يتعرف على الأنباء من خلال الدردشة مع الحرس والعساكر، الذين اعتادوا مع الوقت، وبقشيش الأهل أن يعاملوه كزعيم سياسي سابق. كانوا يأتون إليه ليستطلعوا رأيه فيما يحدث، ويسألونه كخبير عما يتوقع. ولما اضطربت الأحوال في خليج العقبة، وأصدر الرئيس «جمال عبدالناصر» قراره بسحب القوات الدولية من سيناء، قال «حسين» للعساكر إنَّ الحرب صارت وشيكة. وحتى عندما قامت الحرب، لم يشعر «حسين» بالصدمة لأنباء الهزيمة، ولم يستغرب أن تدك الطائرات الإسرائيلية مطارات مصر ومواقعها الحربية في ساعات معدودات، لكنَّه شعر

بالصدمة لخروج الناس رافضين تنحي «عبدالناصر» عن الحكم، ومُهدرين عليه الفرصة للخروج من سجن النسيان. ولم تمُر أيام قليلة على الهزيمة حتى رأى السجناء كبار الضباط والمسئولين وبعض المُحققين معهم إلى جوارهم في السجن ذاته، وقتها ضحك «حسين» لأول مرة من قلبه.

***

ماتت السيدة «سميرة». «أركان حياتك تنقض واحدة خلف الأخرى». سمع «حسين» همسًا روحيًا يتردد في أذنيه، وقال إنَّه يفقد كثيرًا ممن حوله بسرعة ويسر. في الغُربة رحل الرجل المُهيب ذو الطلة الصارمة، الذي كان سندًا له رغم قسوته، وفي الحبس مات الابن قبل أن يراه زاحفًا، ودون أن يسمع منه كلمة «بابا»، ثُم فرت «سُعاد» سيدة القلب ومعها أمله الوحيد، وحسناته القليلة كوثر ووفاء، وها هي السيدة الكبيرة تُغادر، دون أن يقول لها: وداعًا.

في المرآة رأى وجهه فأنكره، غيّر الشعر المُسترسل موطنه بعد أن تبدل لونه، وبرزت العينان جحوظًا، وغامت الرؤية كثيرًا، وأحاطت الهالات السوداء حدقتيه، وترك الزمن بصماته تجعيدا على جلده. ظنّ «حسين» أنه يُطالع شخصًا آخر، لا يعرفه، وتيقن أنَّ قطار العُمر قطع أكثر من نصف الطريق أسرع مما كان يتوقع. في السجن علم «حسين» أنَّ الأيام والسنين مُجرد مشاهد للحظات محبّة أو كراهية يخفت بريقها يومًا بعد يوم في خلايا الذاكرة.

رأى في إحدى الزيارات «ميمي»، فاتنة المعادي في زيارة لزوجها. كان «محمود موسى» قد قاطعه تماما مثلما فعل «مصطفى راغب» الذي سيق للحبس بلا جريرة. لم يُصدق «حسين» عينيه وهو يُشاهد كُتلة لحم مُنتفخ، فقدت كل معاني الرقة والجمال. كانت السيدة السمينة تُغطي رأسها بطاقية من الصوف، بينما أخفت عينيها بنظارتين سوداوين، وبدت ملابسها ضيقة على جسد فقد امتشاقه. هل هذه ميمي؟ سأل نفسه قبل أن تمنحه نظرة احتقار، تعاطفًا مع شعور

طاغ لدى زوجها بالكراهية تجاهه جزاء وشيه به، وسحبه معه إلى السجن. تذكر أيامًا خلت كان فيها فارسها، وفتاها، وملاذ رضاها. وقتها، كانت تحتضنه بحب، وتُقبله بشوق، وتبثه لوعتها ولهفتها، كانت تستمع لكل ما يبوح به، وتُثني على ما يقوله، وتُوافقه في الرأي، وتشاركه في الآمال والأمنيات. أما الآن، فهي تلومه دون أن تنطق، وتعاتبه بعدم الاكتراث، وتنتقم منه بالتجاهل. كأنه لا شيء. لا شيء البتة. لم تعد «ميمي» «ميمي»، لم تعد البنت الفاتنة، المبهرة، الجذَّابة. لقد تحولت مع الزمن إلى بقايا أنثى.

مثلها في ظنِّه مثل «سناء» التي قالت لخالته في زيارة أخيرة بصحبة ابن خالته وزوجها «نجيب» أنَّها تُشفق على «حسين» لأنَّه اعتاد أن يؤذي نفسه، قبل أن يؤذي مَن هم حوله. اغتاظ أن يسمع ذلك، فهو لا يقبل شفقة شافق أو عطف عاطف. إنَّ أقصى ما يُمكن أن يُعذّب به رجل هو أن تُشعره بالضعف، والصَّغار، أن تُفتته إلى جُزيئات صغيرة، أن تُحوله إلى كائن يحتاج المُساعدة، أن يخاف، أن يقلق، أن يبكي. «لن أفعلها



حتى الموت. لن أبكي يا سناء. ولا أريد شفقتك» قالها مرارًا، وهو يتلقى ضربات القدر واحدة تلو أخرى.

كان مَن حوله مثله، ينقلبون من الغبطة إلى الانقباض، ويمضون أيامهم بين الندم والسرور. «سعيد» كان يشعر بأنَّه خسر كُل شيء، بينما كان «مدحت» يعتبر ما جرى له أشبه بكبوة جواد لابد سيقوم منها. أما «عبدالقادر» فكان صامتًا كحجر، يؤسًا كصحراء، لا يُبدي أسفًا، ولا يشارك برأي، ولا يكترث لخبر.

مات «جمال عبدالناصر» فجأة. اختنق القلب المُتخم بهمومه، ذُبح بردًا بسيف الظروف والحوادث والنكسات. بكاه الناس عطفًا، وبكاه آخرون حُبًا، وشمت شامتون وما أكثرهم، كان من بينهم السجين رقم 1135 الذي أسمته الصُحف بالإرهابي «حسين توفيق»، ونشرت عنه الأكاذيب حول مؤامراته وتحالفه مع أعداء الوطن. أي وطن يتحدث عنه هؤلاء الكذبة الذين اختطفوا الثورة وخدروا الناس وسلبوا الممتلكات وحازوا النفوذ! أي بلد صار فيه الكذبة حُكامًا، والقتلة رجال أمن، واللصوص بُناة مجده! أي



إرهاب أصعب من إلقاء زُملاء النضال في السجن وتخوينهم وتشويههم وإلصاق كل خطيئة بهم! هكذا تساءل وهو يُفكر في وميض الأمل عندما علم بتولي «أنور السادات» رئاسة الجمهورية.

***

«سيادة الرئيس..

أكتب إليك رسالتي الثالثة. من جوف بئر يوسف الذي ألقيت فيه ظُلما وافتراء، في ظل سيادة مراكز القوى وتحكم الأشرار في الثورة وتسلطهم عليها. لقد كتبت إليك يوم توليك، وأيقنت أنَّ أمامك معركة حاسمة مع ذيول «عبدالناصر» وخدمه، الذين تحولوا في عهده إلى مراكز قوى قاهرة، لذا فقد عذرت سكوتك وقتها. ثُم كتبت إليك مرة ثانية بعد أن هدمت المُعتقلات، وأحرقت شرائط التنصت، وبشّرت بعهد حُرية وعهد بناء لكنك لم ترُد أيضًا، مما أوقعني في غمٍ وزاد من حيرتي، ودفعني أن أقرر أن أكتب لك الآن للمرة الأخيرة.



سيادة الرئيس..

لن أستجديك، ولن أستغيث بك، ولن أسألك الإنصاف، فأنت تعرف يقينًا أنَّني هُنا في مكاني، وأنت في مكانك لأنَّ القدر اختار لنا ذلك، وكان يُمكن أن تكون مكاني وأكون أنا مكانك، ووقتها لم أكن لأترك زميلًا في النضال، ورفيقًا في السلاح مُقيد السراح إلى جوار اللصوص والقتلة والمُجرمين.

أنت تعرف يقينًا أنَّ القضية التي حوكمت فيها كانت مُلفقة، ويشهد الله أنَّني لم أطلق رصاصة واحدة ولم أؤذ أحدًا، ولكنَّ سدنة الطغيان صوروني كشيطان، ووصموني بكُل نقيصة، ليرموا بي خلف القضبان، فهجرتني أسرتي، وتباعد عني الأصحاب، وهابني الأقارب، وأُهنت وضُربت وقاربت الموت، لكن إرادة الله شاءت لي المقاومة والثبات. لقد كتبت عني الصُحف أنني إرهابي ومجنون وباحث عن شهرة، وشوَّهت تاريخي، وطمست نضالي الذي كنت أنت شريكا لي فيه. وكأنَّهم أرادوا أن يلوثوا تاريخك، ويوغروا صدر قادة الثورة عليك.

أخي العزيز..

اسمح لي أن أحذف الحواجز بيننا مثلما كانت قبل ثلاثين عامًا. إنَّك تعرف تمامًا أنَّني لا أبغي سوى المجد لموطني والحرية لأبنائها، ولم أكن يوما عدوا للناس أو مُخربًا للمجتمع كما زعموا. نعم كُنت مُندفعًا، كُنت ثائرًا، ومُتحمسًا للتضحية والفداء، ورُبما أخطأت مرة، وأصبت أخرى، لكنني لم أخدع، ولم أغش، ولم أخُن. كُنت واضحًا كالشمس، لا أتلون مع مَن تلون، ولا أبدل مبدأ أو رأيا، ولا أقول سوى ما أؤمن به.

عندما قُلت لي أنَّ قتل الإنجليز لا يُجدي وأنَّ قتل الخونة أولى وألح، آمنت وأمنت، وعندما أخبرتني أنَّ «مصطفى النحاس» مُخادع ومناور ويلعب بعواطف الناس صدقت ووافقت، ولما حكمت بأنَّه يستحق الموت أيدت الحُكم، وكُنت يدك الباطشة، ثُم جرى الأمر نفسه مع «أمين عثمان» وشعرت بالبهجة والرضا وهو يلفظ روحه أمامي لأنَّني كُنت أنفذ إرادة الوطن. كُنا معًا ضد الخونة، وضد العُملاء، وضد الفاسدين، ولا



يصح أبدا أن تفترق بنا الدروب، فتلقي واحدًا في الجنة وواحدًا في الجحيم».

طوى الرئيس «أنور السادات» الخطاب المُرسل إليه عبر أحد الأصدقاء القُدامى الذي صار يعمل رجل أعمال، ثُم نظر لمُدير مكتبه، وسأله وهو يضغط على كل كلمة:

قُل لي بالله عليك. ماذا تفعل إن كُنت مشغولًا بأمرٍ مصيري، ورأسك مُنغمس فيه ليل نهار، تُفكر فيه، وتُحلل، وتُناقش الناس، وترسم سيناريوهات، وتضع خططًا، وجاء إليك ولد كان يلعب معك في الماضي وأنت صغير، وقال لك كُنا كذا، وكُنا كذا، وكُنا....؟ ها ماذا تفعل؟

سكت مُدير مكتب الرئيس برهة، مفكّرًا قبل أن يقول:

سأعتبر أنني لم أسمع شيئًا.

هزَّ الرئيس رأسه مُبتسمًا، وقال:



تماما.. تماما، وهذا ما سأفعله. أعد هذا الخطاب مرة أخرى إلى مرسله، وقُل له إنَّ الرئيس مُنشغل جدا، وتعذَّر عرضه عليه، وأنَّ الأفضل أن تعرضه بنفسك عليه عندما تلتقي به.

مفهوم. سيادة الرئيس.

هزَّ مدير المكتب رأسه، وانصرف، لتنفتح في ذاكرة الرجل الذي صار حاكما لوطن ذاب حُبا فيه نافذة رحبة على الماضي المُنصرم، مُستعيدًا تنظيمات لا عدد لها انضم إليها وانفصل، وخلايا سرية وضع لها مُخططات وأمدها بالسلاح، وإخوان حالفهم ثُم خالفهم، وشيوعيين اقترب منهم وانقلب عليهم، وضباط أحرار سار معهم، ومع غيرهم، وأصدقاء خسرهم، وأعداء وقف إلى جوارهم. تلك هي السياسة، أجمل ما في الوجود. قالها لنفسه، قبل أن يُشعل غليونه العاجي، ويسعل سعلة خفيفة أعقبتها ابتسامة رضا.

***



زحفت النهايات رويدًا. انفتح باب الزنزانة بعد تجاهل وتسويف ومماطلات. لم يُصدق «حسين» مأمور السجن عندما استدعاه مُقدمًا له مندوب رئاسة الجمهورية الذي كان يحمل قرارا جمهوريا بالعفو الصحي، وابتسامة دبلوماسية باردة.

آه يا «سادات» تذكرت أخيرًا صديقك القديم، رُبما مرَّت برأسك ذكرى لقاء قيسون، واجتماعات الغُرف الضيقة، ونقاشات مواجهة الخونة. ربما تذكرت زمالة الحبس، واتفاقات إفساد التُهم، وإتلاف أدلة واستنتاجات البوليس السياسي. ربما انتابك الحنين لصُحبة جروبي الساخطة على الساسة والأحوال والمُجتمع. تأخرت كثيرًا. قالها «حسين» في سُره وهو يستمع لمندوب الرئاسة يخبره أنَّ الإفراج عنه تأجل عدة مرات بسبب مؤامرة مراكز القوى، ثُم الإعداد للحرب، ثُم مفاوضات إطلاق النار.

عشر سنوات في الجحيم، وها هو الباب ينفتح، لكن متى؟ بعد أن صار بقايا إنسان، ونصف مواطن، وشظايا بطل؟ بعد أن هجرته أسرته وتجنبه أقاربه

وهرب منه الأصدقاء واحدًا تلو الآخر؟ بعد أن استوطنت داخله الآلام وأصابه الكبر، ونثرت الشيخوخة بذورها في جسده؟ تأخرت كثيرًا يا «حاج محمد». لكن عظيم أنَّك لم تبع، ولم تتنكر، ولم تمح ماضيك تمامًا. مازال لديك بعض الشهامة وبعض الوفاء. قالها دون أن ينبس بكلمة، وهو يلحظ على غير المُعتاد أدب مأمور الليمان وهو يتحدث إليه. سأل نفسه مُتعجبًا: ما أسرع تلون الناس وما أبسط انقلاباتهم! الأشرار يُصبحون أخيارًا في لمح البصر، ما دامت اللياقة تستلزم ذلك.

اشتم «حسين» هواء الصباح لأول مرة دون أن يمُر عبر أسلاك شائكة تُحيط سجنًا مُنعزلًا مُمتلئًا بالمآسي والأحزان. امتدت خطواته تدوس باستمتاع على أسفلت الطريق مُنتظرًا سيارة أجرة تقله حيث البيت الكبير، والذكريات المرصوصة في تصاوير الماضي. تذكر المُصافحة الأخيرة بينه وبين «عبدالقادر»، الذي أخبره أنَّه سيغادر إلى الإسكندرية دون رجعة أبدًا، وشعر بغُصة أن يرفض «مدحت» و«سعيد» وداعه

رغم وعوده لهما بسرعة إنهاء قرار العفو عنهما. كانا صامتين كباب العنبر في هدأة الليل البهيم.

حاول «حسين» أن يستذكر وجوه زوجته، ابنتيه، زُملائه في العمل دون أن ينجح في تحديد ملامح الغائبين بدقة. شعر بثقل خطواته، وتراءت له مشاهد السيارات المارة مموهة، مُقدرًا أنَّه فقد كثيرا من اتزانه بفعل أمراض لا يعرفها وترسبات فشل في مقاومتها طوال سنوات الحبس. ركب في إحدى السيارات المُتجهة إلى رمسيس مُتلذذًا بالاستماع لأحاديث الناس الصاخبة، عن غلاء الأسعار، والفساد، والثراء السريع للمقربين والواصلين إلى السُلطة.

الآن الرشوة أصبحت جهارًا نهارًا ولا يُمكن إنهاء عمل دون دفع.

قال أحد الجالسين مُخاطبًا آخر يركب إلى جواره:

الأسعار نار وكيلو اللحم ب 60 قرشًا ومرتبات الموظفين لا تتغير.



ردَّد راكب آخر ليسمع تعليقًا حازمًا:

أي شاب الآن يرفض أن يعمل موظفًا بعشرين أو ثلاثين جنيهًا، ويذهب إلى بورسعيد ليعمل في التجارة ويكسب أكثر من مائة جنيه بأقل مجهود.

السادات قال إنَّ مَن يطلب الثراء في عهدي سيُصبح ثريًا.

أي «سادات» هذا؟ سأل «حسين» نفسه مُستنكرًا. ما بال الناس تغيروا بهذه الحدّة؟ ما بال أحاديثهم تناست ما يجري في سوريا، والجزائر وفلسطين! ما بالهم لا يفكرون إلا في الصفقات والأموال وأكل العيش!

هزَّ رأسه مُتحسرًا وقال لنفسه: لا عليك. لا تهتم. أنت الآن: لا شيء. لا تاريخ، ولا بطولات، ولا أحلام بالزعامة. لا نصر ولا ثورة ولا استقلال. الناس تعبد المال، وكل المبادئ والشعارات الفضفاضة صارت جنونًا وإرهابًا. «إبراهيم كامل» أصبح سفيرًا في السويد



ومُرشحًا لتولي وزارة الخارجية، و«سيد خميس» يُعد من رواد الإعلام، و«محمود مراد» صار أحد أكبر المقاولين. أما أنت فمازلت تبحث عن نفسك. آه آه يا زمن.

شعر بنغزات مُتكررة في صدره، ولاحظ أنَّ أصابعه تُصدر ارتعاشات واضحة، عندما استعاد ذكرى ضربه بسوط مُبلل بالزيت في الأيام الأولى للقبض عليه. قال لنفسه إنَّه لن يسترد «حسين توفيق» إلا عندما يسترد أسرته، وتعود زوجته وابنتاه من دمشق. فكَّر أنَّ «سُعاد» ستغفر له، وستفتح ذراعيها لتحتضنه، وستبدأ من جديد حياتهما المُنتقصة. إنَّه يعرفها جيدًا ويعلم أن قلبها رقيق، وطيب، ويحمل من الحُب ما يفيض على المُحيطين. تذكر وجهها الرقيق وعينيها الساحرتين، ليسأل نفسه إن كانت لا تزال تحتفظ بأنوثتها بعد تلك السنوات الطويلة، ثُم أجاب بأنها حتى لو كانت، فإنه لم يعد قادرًا على النهل من تلك الأنوثة. ليس أجمل من ابتسامة حقيقية ترتسم على وجهها. قالها في سرّه وهو يهبط من السيارة ليسير



مُترجلًا في شوارع وسط البلد. نظر إلى البنايات العالية، ولاحظ أنها لم تتغير رغم السنين، لكن وجوه الناس هي التي بدت مُتغيرة، حيث غابت تمامًا مسحة الطيبة، وابتسامة الرضا من فوق الوجوه. تابع بعينين غريبتين مشاهد البيع والشراء والزحام من الناس أمام المحلات التي صارت ملأى بالسلع الأجنبية. مرَّ بميدان الأوبرا، وتذكر كيف ألقى قُنبلة خلفه ليخيف مطارديه يوم قتل «أمين عثمان». استعاد مشهد إطلاقه الرصاص على جندي بريطاني كان يعبر في شارع فؤاد في إحدى الليالي. رمى جروبي بنظرة ذكرى لتمر بخاطره ذكرى حسناوات نجيب اللائي كان يقابلهن فيه. آلامريكان، سينما مترو، والتابعي، والبار اليوناني، كُلها شاهدة على عُمر من المشاغبة، وحيوات من المخاطرة، وحكايات من ألف ليلة وليلة.

ركب المترو إلى مصر الجديدة، واستعاد حديث مندوب الرئاسة، متوقعًا لقاء حارًا وودودًا مع رئيس الجمهورية. قال لنفسه إنَّه الصديق «أنور السادات» وليس الرئيس. نظر إلى الناس حوله مُستغربًا كيف لم



يعرفه أحدهم حتى الآن؟ تساءل إن كانت ملامحه قد تغيرت إلى حد أن ينكره الناس؟ ألم يكُن مطلوبًا ومطاردًا ومقدرًا بخمسة آلاف جنيه قبل ثلاثين عامًا؟ ما بال الناس سريعة النسيان؟ طعنته الآلام مرات ومرات، وشعر بدوار شديد، فأغمض عينيه لدقائق، ثُم هبط مارًا بشوارع لم يعيبها، ومبانٍ لم يتذكرها، ووجوه لم يعرفها، قبل أن يسقط أمام باب البيت مغشيًا عليه.

***

سرطان في الرئة.

سمع «حسين» صوت رجل عجوز إلى جواره يتحدث إلى آخر. تذكر أنَّه خاله الذي عاش طوال عمره في أوروبا ولم يعُد إلا بعد دخوله السجن متهمًا بالتخطيط لقتل «عبدالناصر». كانت الجلبة حوله تشي بتجمع كثيرين، لكنَّه لم يستبن العديد من الوجوه حوله. فكَّر سريعًا حاسمًا أمرهم ليُقرر أنَّهم لابد من الأقارب. حاول أن يتعرف على أيهم، ونجح بعد جُهد في أن



يميّز وجه «نجيب» الذي كان يتحدث مع إحدى السيدات التي بدت كثيرة الشبه ب»سناء». تركزت عيناه عليهما، ثُم بدأ كما تعلّم في السجن قراءة تحركات الشفاه ليصل إليه الكلام المرير:

وصل إلى البيت قبل يومين، وعرفه بواب البيت المقابل، وسقط أمامه فاقدًا للوعي، فاتصل الرجل بنا لننقله إلى أقرب مستشفى.

يااااه.

الآن أخبرني الدكتور أنَّه في حالة متأخرة جدًا، وأن الباقي له على هذه الأرض لن يتجاوز شهورا قليلة. لذلك اتصلنا بمندوب الرئاسة وأجابنا أنه على استعداد لنقله لمستشفى القوات المُسلحة في المعادي، هُناك سيتكفلون بعلاجه حتى النهاية. وعلى أي حال ستُخبر «سعيد» و«مدحت» فور خروجهما هذا الأسبوع، وسأتصل بزوجته لأخبرها إن كانت ترغب أن تُلقي هي والبنات النظرات الأخيرة عليه أم لا.



لا أمل نهائي؟

للأسف وصل المرض إلى العظام. لا أمل في العلاج. سيتكفل المورفين بتخفيف آلامه. وسيقضي معظم أيامه الباقية نائمًا، مُخدرا، غائبًا عن الوعي.

هل يعرف؟

أنكر «حسين» سؤالها، واصطدم رأسه في الحائط. شعر بزغللة النظر تتصاعد، لتدور الساقية بسرعة شديدة ساحبة رأسه تجُره دون توقف. فجأة تراءى له وجه الضابط «إبراهيم إمام» يبتسم في ثبات، قبل أن يقترب منه ويقول: حسين أنت مُجرم. ردَّ صائحًا: لا أنا بطل، لكنَّ الوجه الباسم كرر في حدة: أنت مُجرم. مُجرم. مجرم.

عبر أمامه «مُصطفى النحاس» مُنحنيًا على عكازه، والناس حوله مُحتشدة، نظر في وجهه، ثُم رنا للسماء بعينين شاكيتين. خلفه كانت هناك طفلة صغيرة تبكي. سمع الناس يُنادونها «عائشة»، اقترب منها فتوقفت



عن النحيب وصفعته بقسوة وهي تردد: لم يكن أبي خائنًا. لم يكن أبي خائنًا. جرى خائفًا، فأبصر سيدة وطفلًا، تذكر أنَّه أطلق عليهما الرصاص في المعبد اليهودي في دمشق. قال وقلبه يرتجف: لقد قتلتكما، لكنَّ الطفل الصغير أجاب: لم نمت.

صعد إلى جبل عال فأبصر «حسني الزعيم»، وهو يضحك ضحكًا صاخبًا، وهم يُطلقون الرصاص عليه، ثُم نظر فوجد «أديب الشيشكلي» يشارك في فرقة الإعدام، وإلى جواره وقف «عبدالرحمن ناصر» رجل المخابرات السوري يبتسم في هدوء، ثُم غمز له بنصف عين، فصرخ «حسين» فيهم قائلًا:

أيها الأوغاد مَن منكم مع مَن؟ ومَن ضد مَن؟ مّن البطل؟ ومَن الخائن؟ مَن المُنتصر؟ ومَن المهزوم؟

سمع ضحكات «نوار» الفلسطيني، وهو يشرح له:

يُصنع الديناميت من مادة النيتروجلسرين بعد أن يضاف إليه التراب المُترسب على الصخور الجبلية



ويخلط المزيج بعد ذلك ب...

صرخ «حسين» مُجددًا فيه كي يصمت، لكن صوت «جمال عبدالناصر» صك أذنيه، وهو يخطب قائلًا:

إنَّ قوى الاستعمار تظُن أنَّ جمال عبدالناصر هو عدوها، وأريد أن يكون واضحًا أمامهم أنَّها الأمة العربية كلها وليس جمال عبدالناصر.

شعر بخناجر تطعنه في حلقه، وحاول أن يستبين ملامح الطاعن لكنَّه لم يتمكن من تمييزها، اشتم رائحة تبغ يعرفه، ثُم سمع صوتًا أجش، فجرى خائفًا، وارتمى خلف إحدى السيارات المُغطاة، ليجد يدًا حانية تمسح على رأسه، وسمع صوتًا رقيقًا يهمس في أذنه:

حسين. لا تخف. أنت ضحية.

كانت الشخص الوحيد الذي لم يخف منه، وشعر بدفء أنفاسها، وهتف شاكرًا:

سُعاااااااد.



وسأل نفسه إن كان وجودها حقيقة أم حُلمًا. وابتسم غائبًا في اللامكان.

تمت



تذييل

استمدت الرواية من وقائع حقيقية، لذا فإنَّ معظم أبطالها حقيقيون، واستندت الرواية إلى عدة مصادر كان أهمها كتاب «اغتيال أمين باشا عثمان» الصادر من مركز وثائق مصر بإشراف الدكتور نبيل عبدالحميد سيد أحمد، والدكتور يواقيم رزق مرقص، وكتاب «المحاكمة الكبرى في قضية الاغتيالات الكبرى» للطفي عثمان، وكتاب «الكفاح المسلح ضد الإنجليز» لوسيم خالد، فضلًا عن ملف حسين توفيق بمؤسسة الأهرام للصحافة.



الكاتب في سطور

من مواليد القاهرة 1976 ويعمل بالصحافة.

صدر له 15 كتابا متنوعًا من بينها ثلاث روايات هي «ذاكرة الرصاص»،»انقلاب» و«البصاص».

كتب أول سيرة لزينب الوكيل حرم الزعيم مصطفى النحاس تحت عنوان «سيدة مصر»، وحقق كتابه «العسكري الأبيض»عن سيرة الفريق سعد الدين الشاذلي ثلاث طبعات.

فاز بجوائز نقابة الصحفيين المصريين ثلاث مرات عن أفضل مقال سياسي سنة 2013، وأفضل مقال سياسي عام 2015، وأفضل عامود صحفي عام 2015.

صفحة الكاتب على الfacebook:

Mostafaebeidwriter